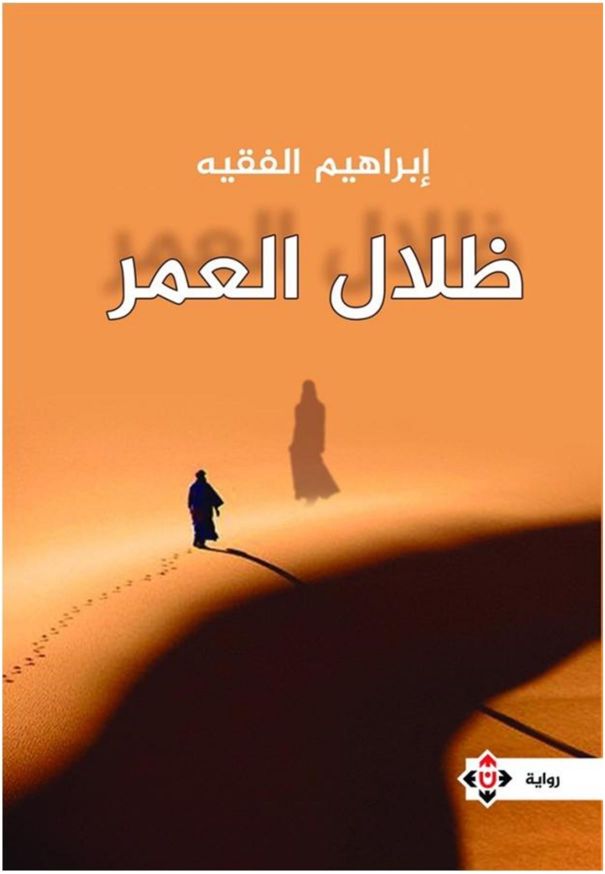

ظلال العمر

| إبراهيم الفقيه|

ظلال العمر (رواية)

إبراهيم ذيب نافع الفقيه (كاتب أردني)

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية (3958/ 8/ ٢٠١٧)

ISBN: 978-9957-698-28-7

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى، جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر بموجب عقد.

الطبعة الأولى ٢٠١٨.

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

المدير العام: جعفر العقيلي	General Manager: Jafar Al-Oqaily

شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة "الرأي"، عمارة البيجاوي، ط3
ص. ب 713680 عمّان 11171 الأردن

Queen Rania st. , near Alrai newspaper, AlBijawi building .3rd floor

Tel. +962 6 562 0722
Mob. +962 77 0 400194 | +962 79 716 27 20
E.mail: alaan.publish@gmail.com
alaan.publishing	alaan_publish
P.O. Box: 713680 Amman 11171 Jordan
www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: **محمد خضير**

إبراهيم الفقيه

ظلال العمر

إلى غارسة بذور الأمل في حياتي

وإلى أبنائي الذين فتحوا بصيرتي على الحياة

إليهم جميعـًا، أهدي هذه الرواية.

(١)

في الطريق وأنا أقود سيارتي من عمان إلى بيروت، راح الماضي يشق طريقه في ذاكرتي، أفكاري بدت امتداداً لما يجري في أعماقي، محطات تتوارد في رأسي وتتسلسل مثل حبات مسبحة.. لم أكن أتذكر، كنت أعيش سنوات عمري لحظة بلحظة، تراءت لي «فردوس» بصورة ملاك وسط إطار مذهب جميل.. وجدتُ نفسي أفكر فيها وأتمنى رؤيتها من جديد.. فردوس لم تكن لحظة عابرة في حياتي.. كانت لهباً في مسيرة العمر، لكن «كل شيء بقضاء، ما بأيدينا خلقنا ضعفاء».

تصفعني حكايات قديمة، تتجدد خلايا ذاكرتي، ينقلب عالمي رأساً على عقب، أشعر أن فردوس قدري وأنا قدرها الذي لا فرار منه.. فما رحلة العمر غير محطة المسافر ليستريح من عناء الطريق، وينفض عن وجهه غبار الزمن.. لكن السفر يطول ويطول في رحلة مضنية، تشتد فيها حرارة الشمس حتى تُصبح لظى يحرق الجسد والروح.

سنوات طويلة مرت، اتسعت فيها مساحات الأحزان وضاقت الدروب، ينتفض ما بين فترة وأخرى شيطان القلق، تنهال الذكريات، ولا أمل من صرخة طفل يلعب بين الأحضان.. حياتي وحياة فردوس غابة من الأسرار مدفونة في أحراج من أشواك الصبار.. قالت والدموع

تملأ عينيها بعد أن عجز الأطباء عن حالتها «ابحث عن غيري، تزوج إذا كان هذا يرضيك، لم يعد هناك فائدة تُرجى مني».. لم يكن مقنعاً ما قالته لي ذلك المساء، ومع ذلك راحت مخيلتي تبحث عن امرأة أخرى تحقق أحلامي، وتملأ الفراغ الذي أعيشه، وفي أعماقي رحت أتساءل عمَّن يحقق أحلام فردوس!.. ومع أني تجاهلت كلماتها، إلا أن الفكرة ظلت تلح على أفكاري وتطاردني، وفي ذاكرتي صورة وحيدة لها تملأ كل حجرات القلب.

***

لم أكن أدري أن كل ذلك سيحدث لي، بعد أن دلفت ذات صباح تلك الفتاة المحل الذي كنت أشغله، لتبتاع بعض الحاجيات.. شابة منطلقة، مرحة، تضج بالحياة، ولا تكف الابتسامة عن شفتيها.. جمالها في ضجيجها وعدم استقرارها، كانت في ربيع عمرها، وأنا في مقتبل خريف عمري.. كنت بأمس الحاجة لأن أهرب من مشاكلي في الحياة بعد أن أكد الأطباء أن زوجتي لن تنجب.. أحببتُ أن أثير الموج في حياتي الراكدة، وبدورها أحبت السباحة في البحر الصاخب.. فعشت معها ساعة بساعة ويوماً بيوم بعد أن كثر ترددها على المحل، وفي ذاكرتي صورة للزوجة الثانية..

يبدو أنه مهما اشتدت العلاقة، وكبر الإعجاب، فلا يغني أبداً عن التفكير بالزواج.. بصراحة تعبتُ من الركض خلف المجهول، فكَّرتُ بالاستقرار، وبدأت أحن إلى الهدوء.. فوجدتُ نفسي أصارحها بما في

أعماقي، وأنا أغوص في ابتسامتها المرحة، ابتسامة الطفلة الكبيرة، ولم أكن أدري أن تلك الابتسامة تحجب ملايين الأسرار، وتخفي تحتها آباراً من التعاسة والشقاء!.

مع انفراج شفتيها عن بسمة حزينة، قالت بصوت منكسر إنها ما زالت تملك عقلها، وعقلها يقول «لا»، لن تعيش في سعادة على حساب شقاء امرأة أخرى، لن تتعذب وتعذبني معها، ولن تغفر لنفسها إذا فعلت ذلك.

قلت لها وفي اعتقادي أن تُغيِّر رأيها في قابل الأيام «لنكن أصدقاء إذن».. أجابت: «وهل تؤمن بالصداقة بين رجل شرقي وامرأة!.. بعد التجارب التي مررتُ بها لم أعد أثق بأي رجل.. نظرات الرجال تقرص وعيونهم تلسع».

جاملتها ودعوتها لاحتساء فنجان قهوة، قالت: إذا التقينا ثانية سأقبل دعوتك، شرط أن تحضر زوجتك معك.

أمام إصرارها وافقتُ على شرطها، فقالت: إذن نلتقي غداً بعد الظهر عند استراحة الشلال.

تلك الليلة، ظللتُ أتقلَّب في فراشي.. عبر عالم ضبابي سرحت أفكاري.. تساءلتُ في قرار نفسي «هل أخبر فردوس أم أتجاهل ما وعدت به «نبيلة»!».. طال الليل وطالت همومي.. لم يغمض لي جفن، وبقيت طوال الوقت أتساءل: «هل أخطأتُ حين دعوتها، وهل

أخطأتْ عندما وافقت!.. أم أن هذا ما يسمونه فترة المراهقة الثانية!».

تجاهلتُ شرطها، وقبل الموعد أسرعتُ إلى استراحة الشلال، دخلتُ صامتـًا هادئـًا، جلت بنظري عبر الاستراحة.. اتجهتُ إلى ركن جانبي يحلو لعشاق الهدوء والصمت والتأمل، وجلست.. تماوجت الأضواء الخافتة أمام عينيَّ، انسابت الموسيقى في أذنيَّ من السقف والجدران.. نظرتُ إلى الساعة، لم يحن وقت مجيئها بعد.. حدثت نفسي «أنا الذي استبق الموعد بأكثر من ساعة».. شعرت بالفراغ، أجلت نظري ثانية في المكان، وراحت عيناي ترقب المارة، وتلاحق السيارات في الشارع العريض.

«ما أصعب لحظات الانتظار!».. حدَّثتُ نفسي ثانية، ورحت أتذكر لقائي الأول معها، كانت ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصـًا زهري اللون.. هادئة كانت وصامتة، بدا لي أني أعرفها منذ زمن طويل، وحين تبادلنا الحديث، بدت ابتسامتها عذبة ومرحة، جريئة وجذابة، وعرفتُ أنها تتابع دراستها في الكلية العربية في عمان.

مرات كثيرة التقيت بها بعد اللقاء الأول.. وحين كانت تغيب عن نظري، تظل ابتسامتها موسومة في ذاكرتي كوشم، ولم يغب وجهها عن مخيلتي منذ لقائنا الأول.

تراءت لي نبيلة قادمة من بعيد ترتدي تنورة حمراء وقميصـًا أصفر.. خُيِّل لي أني أسمع وقْع خطواتها قبل وصولها، أحسستُ بقلبي يخفق مثل طائر مذبوح.. رمقتها ورمقتني من خلال نظارتها الشمسية

السوداء.. كان الجو حاراً.. ابتسمتُ، بادلتني الابتسامة، شعرتُ أن الابتسامة مثل لغة الموسيقى، ليست بحاجة إلى ترجمة.. تفاهمنا بالابتسامة دون أن ننطق كلمة واحدة.. جلستْ على مقعد قبالتي وسألتني عن زوجتي.. قلت صراحة أني فضّلت ألا أخبرها لانشغالها بالبيت.

ران الصمت على المكان، عبست لحظة ثم جاملتني بابتسامة مرح.. تناسيت موضوع فردوس وغصتُ في ابتسامة نبيلة متهربـاً من أمواج أسئلتها.. شدتني ابتسامتها كأنما شفتاها حبتا كرز تفتحتا عن رائحة زكية عبقت في أرجاء المكان، همستُ في قرار نفسي «كل ابتسامة تخفي تحتها أسراراً من معاني القلب المعقَّدة».. أيقظتني من كابوس أفكاري، قالت: «لا أريد قهوة، أريد مشروبـاً بارداً».

طلبتُ كأسين من عصير البرتقال، وبلا مقدمات نظرتُ إلى وجهها، وراحت يدي تلاحق يدها لأفاتحها بموضوع الزواج من جديد.. كظمتْ غيظها وجاملتني بابتسامة مصطنعة، فاسحة لي المجال لأداعب أصابعها.. حدثتُ نفسي «خسارة أن تكون بلا زوج يغدق عليها الحب!».. دق جرس هاتفها النقال وقطع حبل أفكاري.. أسرعتْ وفتحت الخط، أدارت وجهها جانبـاً وهمست وهي تتحدث، تماوجت الألوان على صفحة وجهها، أسبلت جفنيها وهي تُمسك بهاتفها، وقالت «طبعـاً أنا لم أغيِّر رأيي وما زلت أنتظر، إلى اللقاء»،

وأغلقت الخط.

طافت طفلة تبيع الورد الملون، في وجهها جمال أخاذ وعلى شفتيها ابتسامة حزينة.. قدمت لي وردة حمراء، أخذتها ونقدتها ثمنها، وقدمتها مع ابتسامة خفيفة لنبيلة.. تأملت نبيلة الوردة وقالت: «وماذا بعد الوردة؟!».. شعرتُ أنها ألجمتني في تساؤلها.. لم أتوقَّع صراحتها، أضافت: «الماضي لن يعود، وأظنك ما زلت تأمل بتحقيق أحلامك، الحب غير الامتلاك، الحب شيء خاص خارج عن الإرادة مصدره القلب، أما الزواج فهو إرادة، والعقل يقول لا.. أنا الآن صديقة زوجتك التي تحتل قلبك، لكني أحببت أن أجاملك، ألم أقل لك إن كل الرجال يفكِّرون بعين واحدة!».. ونقرت بإصبعها على يدي.

مثل تماس كهربائي سرت قشعريرة في جسدي، سحبتُ يدي وأسندتُ ظهري إلى الخلف على المقعد، تصبَّب جبيني عرقـًا، قلت بارتباك «وهل بدر مني ما يستحق هذه التساؤلات؟!».
أجابت: «لا، لكن أحببتُ أن أذكِّرك فقط».

لم أدرِ ماذا أقول!.. رحتُ أغالب أحاسيسي، حاولتُ أن أرفع رأسي، لم أستطع النظر في عينيها، كأنما أثقلتني هموم الزمن.. حاولتُ أن أجد جملة لأقولها، شعرتُ بنفسي كمن يستل كلماته من بئر عميقة.. أضافت: «انظر في عينيَّ.. هل ترى شيئـًا؟».

بِثَقل الأفكار التي كنت أحملها تلك اللحظة رفعت رأسي..

حدَّقتُ في عينيها، عكست نظارتها الشمسية السوداء صورة زوجتي تتقدم من خلفي، لم أصدِّق.. نظرتُ إلى الوراء، هالني منظر فردوس تقف خلفي مباشرة.. ذُهلت، شعرتُ وكأني أسقط في بئر ليس لها قرار!.. وقفت.. قالت نبيلة «أنا أخبرت فردوس ودعوتها لهذا المكان، كنت متأكدة أنك لن تدعوها، أحببت أن أفاجئك».

تصبب العرق من جبيني وهمست في أعماقي: أية مفاجأة هذه؟!

أضافت: «لا أريد أن أكون نقمة في حياتك.. يكفيك ابتسامة من تحبك وتحبها وطيب قلبها المتسامح».

تلعثمت.. غارت الكلمات وتوقفت في حنجرتي.. أنا من جنى على نفسه.. أنا من دعوتها إلى بيتي وعرَّفتها بزوجتي، معتقداً أنها ستكون مثل شقيقتها بعد الزواج، لكنها قررت ذات ليلة أن لا تشاركها فراش زوجها.. بكلماتها تلك قادتني إلى الهاوية وهي تضيف: إنها لا تحب أن تجرح شعور فردوس وتكون لها «ضرة».. فجأة هاجمتني نظرات العيون التي تلسع وتقرص، طوَّحتُ بثقلي على المقعد، ورحت أرقب المشاة في الشارع العريض.

***

في البيت شعرتُ أني بحَّار فقد سفينته قبل أن يصل شاطئ الأمان، قلبي صحراء عطشى تبحث عن نقطة ماء في غيمة ضالة.. يبدو أن

ساعات الفرح لا تدوم، لكن التعاسة شبح يتقمص الإنسان ويكدِّر حياته. «حدثت نفسي».. كنت أعاني، أقبع في البيت أجتر ذكريات الساعات والأيام التي قضيتها مع نبيلة، أريج عطرها ما زال يعبق في أنفاسي ويطارده.. نبيلة كانت صاحبة رأي، صاحبة مبدأ في الحياة.. الحياة في نظرها ساعات متجددة دائمـًا، وبين ليلة وضحاها، مزَّقت أشعة الشمس وتبخَّرت من حياتي.. تجددتْ مع الحياة، ورحلتْ دون كلمة وداع.

فردوس أرَّقتني تلك الليلة أيضـًا.. أصابعها فتَّتت أفكاري وهي تربت على كتفي.. تظاهرتُ بالتعب وهربت من حنانها إلى وجعه.. دعتني للتجدد ونسيان الماضي.. شعرت أنها تعرف سبب معاناتي، لكنها تتجاهل، وتحاول بكل طاقاتها أن تبقيني في عش الزوجية، همست في أذني بأنها تحبني، أغمضتُ عينيَّ وتجاهلتُ سماعها، ورحت أطارد ابتسامة نبيلة بكل ما فيها من آلام.

بعد تلك الليلة شعرتُ أني لم أعد أعيش الحياة.. بدأتُ أتفرج عليها.. نزلتُ عن المسرح إلى مقاعد المتفرجين، ورحتُ أسبح في بحور من السراب.

***

(٢)

رغم انشغالي بعملي الذي كان يمتد حتى ما بعد منتصف الليل، إلا

أني كنت أشعر بالفراغ يملأ حياتي، تخمَّرت فكرة الزوجة الثانية في رأسي، ورحت أبحث عنها في عمان.. ومع أن الكثيرات من الصبايا وافقن على الزواج، إلا أنهن اشترطن طلاق الزوجة الأولى، وهذا ما لم أوافق عليه.. إحداهن وبعد أن وافقت على طلبي، اشترطت والدتها تسجيل شقة باسمها لتأمين مستقبلها كما قالت، وهذا ما لم يكن باستطاعتي أيضـاً.

ذات ليلة، وبعد مشادة كلامية عن الحبَل والأطفال مع فردوس، قادتني أفكاري للبحث عن زوجة ثانية، من بلد عربي مجاور.

وجهتي كانت القاهرة.. كنت قد زرتها أكثر من مرة، ولي فيها الكثير من الأصدقاء والصديقات، فما زالت ذاكرتي تحتضن رحلتي الأخيرة قبل أكثر من عامين، يومها حللتُ وزوجتي فردوس بضيافة صديقي «حامد»، الذي كان يعمل مدرساً في إحدى دول الخليج، حيث كنت أعمل في السنوات السابقة، وقضيت وفردوس شهراً ممتعـاً أشبه بشهر العسل.. تلك الأيام عرضتُ زوجتي على طبيب إخصائي وأجرى لها عملية، لكنها لم تكلل بالنجاح.. وخلال وجودي في بيت حامد تعرفتُ على «نادية» التي كانت تعمل في حقل التعليم.. كما تعرفت على «إبراهيم فريد»، الذي كان يبحث عن عمل يليق بشهادته بعد تخرجه في الجامعة، فلم يجد غير المقاهي، التي كثيراً ما كانت تجمعنا حتى أنصاف الليالي.

***

أول اتصال لي بعد هبوط الطائرة في مطار القاهرة، كان مع إبراهيم فريد، حيث رحب بي بعد اتصال هاتفي قبل مغادرتي عمان، ووعدني باللقاء في شقته المستأجرة حيث يقيم مع أسرته في الدور الثالث من عمارة مكونة من تسعة أدوار.. فاتحته بموضوع الزواج بعد أن أخبرته أن زوجتي لم تنجب.. فقال إن شقيقة زوجته تخرجت في الجامعة حديثًا، وسيبحث معها الموضوع.. وحين استأذنته بالذهاب إلى الفندق الذي حجزت فيه غرفة منذ وصولي للقاهرة، أصر على مرافقتي إلى ذلك الفندق، ودعاني للعشاء في بيته مساء اليوم التالي.

مساء اليوم التالي وبينما كنت أرتشف فنجانـًا من القهوة في بيته، دلفتْ إلى حجرة الضيافة فتاة ذات قوام جميل ووجه باهر جذاب، شعرها أشقر، ترتدي بنطالاً من الجينز وبلوزة بيضاء موسومة بمجموعة من الورود الصغيرة الملونة.. قال إبراهيم إنها شقيقة زوجته.. بعد الحديث والمجاملات أخبرتها أني أريد زوجة ثانية واختصرتُ حكايتي.. صمتت قليلاً، رشفت من فنجان القهوة ونظرت إلى وجهي، وقالت «أنا عايزه أتكلم معاك بصراحة، إذا كنت عايز تتجوز زوجة ثانية جميلة ومتعلمة وعايز تأخذها معاك إلى بلد ثانية كما تقول، كيف بدها توافق على الغربة إذا كانت بهذه الصفات! هو مفيش في مصر رجّالة أحسن منك حتى تتغرَّب وتكون زوجة ثانية؟، تنازل عن العلم أو الجمال عشان تلاقي اللي إنت عايزها».

في صمتي وأنا أستمع لها، شعرتُ بصعوبة مهمتي منذ البداية..

كانت الفتاة واقعية أكثر مما تصوّرت.. أعادتني إلى واقعي بكلمات مقتضبة دون حرج أو مساس بكرامتي.. وعندما افترقنا تواعدت مع إبراهيم على أن نلتقي ثانية للذهاب إلى الإسكندرية.

في الإسكندرية اكتشفت أن إبراهيم فريد لا يملك نقوداً، متذرعـًا أنه نسيها في البيت، فكان عليَّ أن أدفع كل مصاريف الرحلة، إضافة إلى أجرة الفندق.. وحين عدنا مساء اليوم التالي اضطررت أن أدفع عنه أجرة الطريق أيضـًا.. وهذا ما دفع تفكيري بالشكوك حول تصرفاته، وفيما إذا كان صادقـًا فيما قال، أم أنه يعاني من ظروف مادية صعبة، أم كان يستغل موقفي!، خاصة أني وجدته يعرف الكثير من الفتيات في الإسكندرية، وبِفَخر كان يقدمني لهن بأني صديقه من الأردن.

تلك الليلة، بعد عودتي من الإسكندرية إلى القاهرة، راحت أفكاري تخادعني في غرفة الفندق، فأتحايل عليها وأتجمل بالصبر، خاصة وأن إبراهيم وعدني بلقاء «أم جمال» الذي يعرفها عن كثب، وعندها صبايا قابلات للزواج.. نمتُ والكوابيس تلاحقني.. صحوت قرابة الساعة العاشرة صباحـًا.. فجأة فُتح باب الغرفة ودلفت خادمة التنظيفات في الفندق.. تمايلت وتبخترت بفستانها الذي يشف عن ساقيها، وأظهرت نفسها أنها تعمل بينما كانت تختلس النظرات إلى وجهي.. ابتسمت وقالت بلا مقدمات «أنا خدامتك يا بيه، أأمر اللي انت عايزه».. لم أرد عليها، أضافت: «نظفت لك الغرفة والملابس»..

تجاهلت كلماتها وطلبات عينيها.. قالت «عايز حاجة ثانية؟».. تجاهلت سماعها، أضافت: «معاك دخان يا بيه؟».. تناولت علبة السجائر وقدمتها لها، قالت: «كلها يا بيه».. قلت بشرط أن تتركي لي سيجارة واحدة منها.. أجابت والفرح يطفح من عينيها ووجهها «عينيَّ يا بيه».. أشعلت سيجارة وقدمتها لي، وعندما مددت يدي لأتناول السيجارة، رجفتْ وهربت خارج الغرفة.. تجاهلتُ موقفها المفاجئ، وسرحت للحظات مع قطار الزمن السائر نحو الضباب والمجهول، عبر أفكاري التائهة في سمائي الملآى بالغيوم المتلبدة.

***

قالت أم جمال إن عندها «صبايا تأخذ العقل»، وقد عرفت منها أنها «خاطبة» بمعنى «دلَّالة»، أي تدل من يريد أن يتزوج على من هي قابلة للزواج.. جمعتني مساء ذلك اليوم بثلاث فتيات، كل واحدة على انفراد.. الأولى صغيرة السن لا يتجاوز عمرها الرابعة عشرة، لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ومع أني تغاضيت عما بها من عيوب، إلا أني لم أستطع التغاضي عن ثقل لسانها، فوعدتها بلقاء آخر.

الثانية فاجأتني والدتها بأن والدها لا يرغب بسفرها خارج البلاد، وإذا كان النصيب فهي تريد شقة تقيم فيها في القاهرة، وعليَّ أن آتي إليها بين حين وآخر.. الثالثة كانت موافقة لكنها اشترطت مبلغاً كبيراً من المال تضعه في البنك في حسابها الخاص ضماناً لمستقبلها.. وعندما لم أستجب لأي طلب من طلباتهن، فاجأتني أم جمال بفتاة

رابعة قالت إنها موافقة على كل شروطي، وطلبها الوحيد أن أطلق زوجتي الأولى عن طريق السفارة الأردنية حتى تتحقق من الطلاق قبل سفرها معي.. حدثت نفسي: لو طلقت زوجتي لتزوجت أجمل فتاة في عمان دون أن ألاقي هذا العناء!.. وانسحبتُ من الجلسة بعد أن شعرت بالإهانة من هذا الشرط، ولم أشأ التعليق.

في غرفة الفندق جاءتني إحدى موظفات الفندق، هادئة كانت وحزينة في نفس الوقت.. وبلا مقدمات بدأت تتحدث عن ظروف عملها الصعب وتعبها في البيت، وعناء المعيشة مع أسرتها المكونة من سبعة أنفار.. وفيما كانت تتحدث عن ظروفها المعيشية، وتطلب المساعدة في إيجاد عمل لها في الأردن، دلف الغرفة شاب وقطع استرسالها.. قال إن الفتاة شقيقته، وإنه يحمل دبلوم تجارة ويبحث عن عمل خارج مصر، ورجاني فيما إذا كنت أستطيع مساعدته وشقيقته بالسفر إلى الأردن.. أخبرته أني سأساعده بقدر استطاعتي حال عودتي، وأخذت منه عنوانه ورقم هاتفه.. وحين غادر الغرفة ترافقه شقيقته كما زعم.. تساءلتُ في قرار نفسي إذا ما كنت سأتذكره أم أني سأتجاهله بعد أن غرستُ في قلبه الأمل!.. وللحظات بقيت صامتاً بعد أن شعرت أني بدأت أكذب، وهذا ما لم أكن أتمناه في حياتي يوماً ما.

***

أيام طويلة انقضت وأنا أبحث عن هدفي.. لم أجد فتاة تقبلني بشروطي.. فتاة واحدة زرت أسرتها قبل أيام عدة.. لم يترك والدها كلمة مديح إلا وقالها بحق ابنته، وحين جلست أمامي شعرتُ أنها تشبه زوجتي، تذكرت فردوس، وحاولت خداع نفسي وخداعهم، لكني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة وقلت بأني متزوج، لكن زوجتي لم تنجب.. اشرأبت الأعناق وشاحت الوجوه فجأة، تراجعت نظرات الإعجاب إلى الوراء تخفي ما بقي من كلمات على الألسن.. بدت سماتهم غريبة، وانسحبت الفتاة من المجلس.. وقال والدها وهو يدعوني لاحتساء فنجان قهوة بأن لا نصيب لي في بيتهم.

دوارٌ لفَّ رأسي كدوار البحر، أمواج متلاطمة عصفت في أعماقي.. تذكرت كل شيء، لا، لم أتذكر، أنا كنت أعيش التجربة بكل ما فيها من ألم وألعن نفسي على ما اقترفته من ذنب تجاه «عزة» قبل أيام عدة، تلك الفتاة البيضاء الجميلة التي أبهرتني منذ اللحظة الأولى، عندما اصطحبني إبراهيم فريد لرؤيتها في بيتها.. والدها لم يكن موجوداً في البيت، والدتها هي التي رحبت بي وجلست تحادثني بعد أن انسحب إبراهيم مفسحاً لنا المجال.. تحدثنا كثيراً تلك الليلة وتباحثنا في أمر الخِطبة والزواج.. وحين سألت عن والد الفتاة، قالت والدتها إنه في الصعيد وسيأتي حال أن يتم الاتفاق.. مساء اليوم التالي غصّ البيت بالنساء وكأن أمر الخِطبة قد تمّ فعلاً، لكني لم أرَ والد عزة ولا أي رجل من أقاربها.. أنا الرجل الوحيد الذي كنته يرافقني إبراهيم فريد، اقتربت عزة وجلست جانبي وراحت تحدثني بخجل شديد.. من بين

النساء شاهدت ثلاث نساء بثياب بدوية سوداء، ووجوههن أقرب إلى السمرة المحروقة.. سألت عزة عن هؤلاء النسوة، نظرت إليهن ثم عادت ونظرت في وجهي، قالت إنهن قريبات والدها، يقمن في الصعيد ويزرن القاهرة بين فترة وأخرى.. دارت أمواج عاصفة في رأسي، تظاهرت بأني أريد أن أشعل سيجارة، قمت واتجهت نحو إبراهيم الذي كان يقف قرب الباب، طلبت منه سيجارة رغم أن علبة السجائر كانت في جيبي، أشعلتها ووقفت معه جانباً أستفسر عن موضوع هذه القرابة.. قال إنه لم يكن يعلم، وما علم إلا مساء البارحة.. فوالدة عزة بيضاء ومطلقة منذ سنوات، أما والدها فلون بشرته سمراء كلون بشرة أخواته وقريباته.

لا أعلم تلك اللحظة كيف دارت الأفكار في رأسي!، وتذكرت حديث والدي بأن العِرق دساس، والمرأة تلد كسابع جد.. استعذت بالله من تلك الأفكار التي راودتني، وحدثت نفسي بأن لا فرق بين لون ولون أو عربي وأعجمي، لكني شعرتُ أني عاجز عن العودة لمكاني قرب عزة، فبقيت واقفاً والنساء يتهامسن.. ترددتُ في العودة، وحدثت نفسي ثانية بأني لن أتزوج قبل أن أقابل والدها أو أرى أحداً من أقاربها الرجال.. وتساءلت في قرار نفسي، لماذا خبأت عزة هذه المعلومات عني منذ البداية!.. هل تخجل من لون بشرة والدها وأقاربها!.

جافاني النوم تلك الليلة، بقيت سارحاً بما حدث، فما زالت

ملامح وجوه بلون الحنطة المحروقة عالقة في ذاكرتي، عباءات سود، تنانير قصيرة وفساتين طويلة ملونة، أفكار تائهة، متاهة ودوار وأمواج تلفني وتلقيني في العدم!

صباح اليوم التالي قررت أن أواجه الواقع.. أسرعت نحو بيت عزة، قابلتني والدتها قرب الباب، قلت بأني لن أعقد القران قبل أن أقابل والد عزة.. قالت بأن والدها يريد أن يزوجها لابن عمها وهي لا تُحبّذ زواج الأقارب بعد انفصالها عن زوجها.. ومن خلال الحديث الذي دار بيننا خمّنت أن عزة ووالدتها تتسرعان بالزواج والسفر خارج البلاد حتى تضع الوالد والأقارب تحت الأمر الواقع، لهذا رفضتُ الفكرة حتى لا أتسبب بمشاكل أسرية وعائلية، وانسحبت قائلاً بأني في حل من هذا الارتباط.

***

(٣)

قررت الفرار من إبراهيم فريد والسفر إلى أحد الأصدقاء، ممن كنت أعرفهم أثناء عملي في الخليج، ويقيم في صعيد مصر.. القطار المتجه إلى الصعيد يسابق الريح ويعيد ذاكرتي إلى أيام مسروقة من عمري.. صفيره يشق الأرض ويتسارع بين الحقول الخضراء نحو الوجه القبلي.. لا أعرف كيف جمعت كل هؤلاء المعارف في أيام معدودة.. كم عائلة، كم رجلاً، وكم فتاة جلست معي تترع الشاي أو تشرب القهوة!.. توقف القطار وقطع حبل أفكاري، أناس يغادرون وآخرون يصعدون، تحرك القطار ثانية، ازدادت سرعته وعلا صفيره، عيناي أسرت إحدى الراكبات من وسط الزحام، وقفتُ وفسحت لها المجال لتقترب من مقعدي.. ناديتها «نادية»، فوجئت بوجودي كما فوجئتُ بصعودها.. اقتربتْ، مددتُ يدي لمصافحتها، حملقت بي وابتسمت، جلست على مقعد أمامي.. آثار الانفعال بدت واضحة على ملامح وجهها، قالت «ازيَّك».. سألتها عن حالها وأحوالها، أجابت مازحة «إنت السبب، تعبي في الحياة إنت سببه»، وراحت تقص على مسامعي قصتها منذ أن فارقتها أثناء زيارتي مع زوجتي للقاهرة.. قالت إنها انتقلت إلى مدرسة في الصعيد، وتعود إلى القاهرة كل خميس وجمعة.. وبينما كانت نادية تتحدث كنت أسترجع ما حدث لي معها يوم أن التقيت بها في بيت صديقي حامد في منطقة الزيتون بالقاهرة أثناء العطلة الصيفية قبل عامين.

نادية كانت موظفة في وزارة التربية والتعليم، والدها كان معيداً في جامعة القاهرة حيث يعمل صديقي حامد، بعد أن استقال من عمله في الخارج وعاد للقاهرة، قويت المعرفة بيني وبينها تلك الأيام حتى قاربت علاقة الإعجاب، كنت أوصلها بسيارتي من بيتها إلى مكان عملها، ثم أعيدها إلى البيت.. تلك الأيام لمَّحتُ لنادية بأني أفكِّر بالزواج ثانية، فابتسمت وقالت بأنها على استعداد بشرط أن يُعقد القران في الكنيسة، عرضتُ عليها أن تعلن إسلامها لكنها رفضت، ومع أن علاقتنا امتدت بعد ذلك لعدة أشهر عن طريق المراسلات، إلا أن كلّا منا بقي مصرًّاً على رأيه.. في القطار سألتني وهي تبتسم إذا كنت قد غيَّرت رأيي أو تزوجت، فأجبتها بالنفي وإني على عهدها وما زلت أنتظر جوابها.. وحين غادرتْ القطار دعتني لزيارتها، فوعدتها أن نلتقي في القاهرة أثناء إجازتها.

بني سويف كانت وجهتي، في المحطة حيث توقف القطار ترجّلت.. سألت أحدهم عن عنوان «محمد حنفي»، فقال «يبدو أنك غريب عن الحي، فأبو حنفي تاجر الأخشاب معروف لدى الجميع، توفي والده قبل خمسة أيام وتجده في الصيوان المقام على طرف الشارع».. كنت أحمل بعض الحلويات له، اقتربت من بقالة قريبة ووضعت ما أحمل عند صاحبها حتى أعود ثانية.. صوت القرآن كان ينطلق من المذياع والمعزون صامتون كأن على رؤوسهم ملاك الموت، على مدخل الصيوان شاهدتُ صديقي محمد حنفي.. لم يتمالك نفسه عندما شاهدني، قال بالحرف الواحد بعد أن عرَّفني على

بعض زملائه، بأن وجودي معه هو أكبر عزاء لمصابه الأليم.

صباح اليوم التالي كان عيد شم النسيم، هُدم الصيوان منذ الصباح الباكر، رغم أن بعض الرجال ما زالوا يتوافدون للتعزية.. في البيت حلق محمد حنفي شعر ذقنه الذي طال أيام العزاء، وجلسنا نستعيد ذكرياتنا عن أيام الغربة والشقاء.. قال بأنه ترك التدريس وتفرغ لتجارة الأخشاب مع والده، كما فتح مصنعاً للثلج.. ثم طلب مني أن أرافقه مساء لزيارة زملائه في باحة المصنع.. وحين عرف أصدقاء أبو حنفي مدى علاقتي به، قدموا لي الشكر لإخراجه من محنته، وراحوا يتناولون زجاجات بيرة من صناديق مركونة في زاوية معتمة.. فقال محمد حنفي «من أجل صديقي الذي جاء من الأردن لتعزيتي سأشارككم الشراب».. امتلأت كؤوس وأفرغت، دارت سجائر ذات نكهة خاصة ورائحة مميزة، وتشارك الجميع في أراجيل صغيرة يسمونها «جوزة» لها طعم خاص بدخان أزرق اللون، يُنسي الكرب ويدفن الماضي بنكات وأحاديث لا يذكرها أحد عند صحوه.. وعندما انتهت الجلسة قبيل الفجر بقليل، قام كل إلى بيته يدفع نفسه دفعاً مستنداً على الجدران لئلا يقع أرضاً.. وفي اليوم الثالث عدت إلى القاهرة وأنا أحمل حقيبة مليئة بالذكريات.

***

(٤)

صباح أحد الأيام وقبل أن أغادر غرفة الفندق، رن جرس الهاتف، كانت أم جمال على الخط، سألتني إذا كنت قد وجدت ضالتي، أجبتها بالنفي، قالت بأنها تنتظرني في الخامسة مساء في بيتها لأمر هام.. في الموعد المحدد قابلت أم جمال، وقبل أن أدلف بيتها قالت إنها وجدت من أبحث عنها، ودعتني لمرافقتها إلى بيت إحدى الفتيات.. في الطريق قالت إن والد الفتاة توفي منذ صغرها، وأن والدتها ترغب في زواج ابنتها من رجل على خُلُق ولا يهمها إذا كان متزوجاً.

فتحت لنا الباب فتاة جميلة لم تتجاوز السادسة عشر ربيعًا، ظهرت والدتها من حجرة داخلية ترتدي حجاباً ورحبت بنا.. قالت إن أم جمال حدثتها عن سبب الزيارة، وأن لها ابنتين، إحداهما أنهت الثانوية العامة، والثانية في الإعدادية، ودعتهما للجلوس معنا..

تلك الليلة تحدثنا كثيراً بأمر الزواج والرحيل عن القاهرة ورائحة البخور التي تملأ البيت تعبق في أنفاسنا، ومع ذلك لم نتحدث عن الفتاة التي عزمتُ على اختيارها، فكل واحدة كانت أجمل من الأخرى.. وقبل أن أغادر اتفقت مع والدتهما على أن أعود في اليوم التالي.. لكنني لم أعد في اليوم الثاني ولا الثالث، وجلست في غرفة الفندق أفكر فيما وصلت إليه الأمور.. بصراحة أعطيت نفسي فرصة، ورحت أستعيد في ذاكرتي سهرتنا على رائحة البخور.

البخور في ذاكرتي يعبق منذ زمن طويل، ويذكرني بحكايات قديمة..

تلك الأيام كنت في الصفوف الإعدادية، وكان لنا جار مولع بكتب السحر والجن، يقرأ الكف ويطالع ما يراه في فناجين القهوة، كما يقرأ البخت من الكتب التي يحتفظ بها في بيته، يعالج النساء والأمراض، والنسوة يأتين إليه بين الفينة والأخرى.. لا أدري ما الذي كان يدفعني إلى غرفته وأتابع تصرفاته!.. كنت أرقبه عن كثب، ولم يكن يخفي عني شيئًا، كان واضحاً معي وهو يشعل الفحم ويلقمه البخور، تتصاعد رائحة البخور الزكية، ويقول إنه يُحضِّر الجن.

ذات مساء أوقد النار، وحين استحال الفحم إلى جمر، ألقمه البخور، فحجب الدخان الرؤيا في الغرفة التي لا تزيد مساحتها عن تسعة أمتار، وبينما هو يقرأ تعاويذه وطلاسمه هز انفجار موقد النار، وتبعه عدة فرقعات لا نعرف مصدرها.. تبعثرت النيران في أرجاء الغرفة، انزويت جانبًا وارتمى هو أرضـًا في الزاوية المعتمة، ولم نعد نرى موقع الباب، ساد الصمت لحظات، ولم ينبس أحد منا بكلمة.. كان جل اعتقادي أن الجن حضرت وملأت الغرفة.. فجأة فتح الرجل الباب وقفز خارجاً تحت المطر، فتبعته أسأله عما حدث.. قال إن عفريتاً كافراً من الجن اقتحم الغرفة ولا سيطرة له عليه.. بعد العشاء وبعد أن عاد الهدوء إلى الغرفة ولجناها ثانية.. راح يقرأ آيات قرآنية بصوت مسموع، وينظف الغرفة من الفحم المتطاير في أرجائها.. وتبيّن لنا أن الفحم كان يحوي قطعـًا صغيرة من حجارة الصوان، ما إن اشتدت الحرارة عليها حتى تهشمت إلى قطع أصغر محدثة تلك الأصوات.. قلت له بأنه يكذب في كل أفعاله.. تجهَّم وجهه ودافع عن

نفسه قائلاً بأن الجني هو الذي افتعل ذلك حتى يخيفه ويردعه عن قراءة مثل تلك الكتب، وأضاف «إذا كنت لا تصدقني، خُذ هذا الكتاب واقرأ منه هذه الصفحة - وأشار بسبابته عليها - ونم في الظلام على جانبك الأيمن، عندها ستظهر لك إحدى الجنيات وكأنها من حوريات الجنة، تحايلك وتطلب منك الجماع.. لكن تذكر ما أقوله لك، إياك أن تضاجعها، ستأتيك مرة ثانية وثالثة، فإن وافقت على طلبها ستتلبّس جسدك وروحك حتى يوم وفاتك، وإن لم تلبِّ طلبها ستعطيك كل ما تطلبه منها».

لم تظهر الشمس صباح اليوم التالي، غطت السماء سحب داكنة كثيفة، تلبَّدت فوق الجبال، ثم تمددت ببلادة الكسول فوق الرؤوس، منذرة بتساقط الأمطار.. عند المساء هبَّت عاصفة باردة بشكل أقوى.. ثارت الرياح بشدة، وجرت سيول هادرة من المطر الغزير الذي سقط حسب ما كانت تسيره الرياح وبأي اتجاه.. ازداد الظلام وبدت نذر عاصفة هوجاء في طريقها إلى المنطقة، ومن على بعد ظهرت أضواء أعمدة شوارع عمان تتلألأ مثل فوانيس بعيدة.. رحت أسرع الخطى للاحتماء من البرد والمطر في غرفتي التي لا يتجاوز عرضها عن متر ونصف وطولها متران، ولا يوجد بداخلها غير سرير حديدي قديم ورف صغير لبعض الكتب، يغطيها لوحان من ألواح الصفيح.. قرأت تلك الصفحة التي أشار لي عليها جارنا، ونمت على جانبي الأيمن كما طلب مني.. مرت الساعات ولم أنم وأنا أنتظر الآتي بفارغ الصبر.. راحت السماء تمطر وتتساقط حبات المطر من بين شقوق

الصفيح على الحرام الذي أتدثر به فوق السرير.. قرابة الفجر سهوت.. صحوتُ على الحرام ينسحب رويداً رويداً عن جسدي وينزلق إلى بطني، ارتجفت في سريري وسحبته إلى ما فوق صدري، شعرتُ به مشدوداً على غير عادته.. الغرفة كان يسودها الظلام الدامس والمطر يضرب الصفيح وكأن حجارة تتساقط عليه، ونقاط من الماء تنساب على وجهي.. فجأة بدأ الحرام ينسحب ثانية عن جسدي.. أيقنت أن الجنيَّة حضرت وسكنت غرفتي.. شعرت بقشعريرة في جسدي ورحت أرتجف، وحتى الصباح لا أعرف ماذا حدث معي.. حين صحوت كانت الغرفة عائمة في المياه والحرام مشدوداً إلى الأسفل حتى منتصف السرير.. استعذت بالله من الشيطان الرجيم، ورحت أنظف الغرفة من المياه، وكم كانت دهشتي عندما شاهدت طرف الحرام عالقاً في أحد زنبركات السرير الحديدي من الأسفل! كنت كلما شددته يسحبه اللولب ثانية إلى موضعه.. عندها أدركتُ ما فعلتُ تلك الليلة، وقررت أن لا أعود ثانية لتلك الشعوذات.

***

(٥)

في «مقهى الفيشاوي» الذي تعودت الجلوس فيه، جلست أنتظر إبراهيم فريد الذي وعدني باللقاء في المقهى.. مقهى الفيشاوي شهير بحي الأزهر العريق بالقاهرة.. يُعد من أقدم مقاهي القاهرة، يرجع تاريخ إنشائه إلى ما يزيد على قرنين من الزمان، أصبح أكثر شهرة بفضل الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ الذي كان مقهاه المفضل، ففي رحابه يتكثف عبق الأجواء التاريخية والشعبية التي شهدت معظم أعماله الروائية، وكان بمثابة فضاء حي، يلتقي فيه أصدقاؤه ومحبوه من الكتاب والفنانين وبسطاء الناس.

يقبع المقهى في أحد الأزقة الضيقة المتاخمة لمسجد الإمام الحسين بمنطقة الأزهر، وبمجرد الدخول إليه يشعر المرء أنه يشم عبق التاريخ في ربوعه، فلون خشبه البني المحروق وحوائطه الصفراء الداكنة بفعل دخان النارجيلة وآثار الزمان، جعلت منه مزاراً لعشاق الأصالة والتراث، ووجوده في قلب القاهرة الفاطمية بمنطقة خان الخليلي المليئة بالمزارات السياحية الأثرية، جعل رواده مزيجاً غريباً بين المصريين والسياح العرب والأجانب من كل الجنسيات، الذين يبهرهم جو المقهى الشرقي الخالص، بموائده الخشبية المشغولة، ومقاعده الأشبه بالأرائك العربية الوثيرة، والمرايا المعلقة على جوانبه ذات الأطر الخشبية المشغولة بالصدف.

غرف المقهى لها أسماء خاصة، ويشتهر بالشاي الذي يقدمه،

سواء الأسود منه أو الأخضر، حيث يقدم في إبريق معدني صغير على مائدة نحاسية صغيرة، تفوح منه رائحة النعناع، كما تقدم فيه النارجيلة بنكهات مختلفة، وهو أكثر شيء يقبل عليه مرتادو المقهى خاصة من الأجانب.

في المقهى جلست، طلبت نارجيلة ورحت أستعيد ماضي المقهى وما أعرفه عنه، وأخال الأديب نجيب محفوظ يجلس في إحدى غرفه أو زواياه يكتب أجمل رواياته.. قطع إبراهيم فريد حبل أفكاري واقتحم خلوتي.. جلس يثرثر كعادته، حدثته عن المرأة التي قابلتها قبل أيام عدة، وطلبت منه أن يأتيني بأخبارها وأصلها وفصلها قبل أن أعود إلى بيتها، وأرتبط بإحدى ابنتيها، فطلب مني أن أريه بيتها.. لم نهدر وقتًا، غادرنا المقهى واتجهنا إلى البيت.. ما إن شاهد إبراهيم البيت حتى نصحني أن أبتعد عنه، قائلاً بأنه يعرف البنت الكبرى وأنها مطلقة منذ عامين.. ورغم أن كلامه أثار الشك في نفسي، إلا أني أحببتُ أن أقف على الحقيقة.

قرابة الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي، دققت جرس باب بيت المرأة على غير موعد، انتظرتُ قليلاً قبل أن يُفتح الباب، فتحت البنت الكبرى الباب، ووقفت مشدوهة أمامي، تنظر في وجهي وكأنها تراني للمرة الأولى، كانت ترتدي فستاناً قصيراً يشف عن ساقيها، متبرجة

ومتزينة وكأنها خارجة لتوها من صالون تجميل.. في الداخل كانت الموسيقى تصدح ورائحة البخور تملأ أرجاء البيت وتقتحم أنفي، تطغى على رائحة العطر الذي يفوح من المكان.. صرخت والدتها من الداخل «مين يا..؟».. حاولتْ الفتاة إغلاق الباب في وجهي، لكنني وقفت أنظر إلى الداخل قبل أن تجيب على والدتها.. كانت والدتها تجلس على مقعد أمام رجل يبدو أنه خليجي الجنسية، بدا ذلك واضحًا من خلال غترته البيضاء والثوب الذي يرتديه، والبنت الصغرى تجلس جانبه.. تراجعتُ إلى الوراء.. لحقتني والدة الفتاة وقالت بأني تأخرت، وهذا الرجل خطيب ابنتها الكبرى، والزواج نصيب.. وحين خرجت سمعتها تقول «إذا كان تفكيرك راح لبعيد فاعلم أننا ناس شرفاء وأشرف من الشرف».

***

(٦)

البيوت أسرار.. هكذا حدثت نفسي وأنا أتجه عائداً إلى الفندق، وألعن حظي العاثر.. في الطريق تذكرت جارتنا التي استأجرت شقة في الطابق الأول حيث أقيم في عمان قبل عدة أشهر من مجيئي للقاهرة.. صباح ذلك اليوم كنت قاصداً عملي، قابلتني امرأة تلبس جلباباً واسعاً قرب مدخل البيت، سألتني إذا كان عندي بيت للإيجار؟.. امرأة تعلو الابتسامة وجهها، ليست بذاك الجمال لكنها تبدو جذابة.. تقارب الثلاثين من عمرها.. قالت بأن عندها ثلاثة أولاد وبنتاً واحدة، وزوجها يعمل في الخليج، وأنها مستعدة لدفع الإيجار كل شهر سلفاً.. كنت أقيم في الطابق الثاني، وكان الطابق الأول شاغراً.. ترددتُ في الإجابة، أضافت إنها على استعداد أن تغادر البيت في الوقت الذي أريده ولن تُزعج أحدًا.. وعندما فتحتُ لها باب الشقة، تجولت بداخلها وقالت بأنها تبحث منذ زمن عن شقة بهذه المواصفات.

بعد أن أقامت في البيت تبيّن أن عدد أولادها خمسة وليس ثلاثة كما زعمت، ثلاثة أولاد وبنتان، أكبرهم اسمه «فهد»، أما البنت الكبرى «سعاد» والتي تبلغ من العمر الرابعة عشرة، فهي ابنة زوجها من طليقته الأولى.. رضختُ للأمر الواقع وكظمت غيظي.. مرّ الشهر الأول بهدوء وسلام.. ومع بداية الشهر الثاني لاحظت أن أحدهم يتردد

على بيتها بين فترة وأخرى.. وعندما سألتها عنه أجابت بأنه قريب زوجها، يأتي بين فترة وأخرى ليطمئن على الأولاد، ويُحضر لها النقود التي يبعثها لها زوجها.

ذات ليلة وبعد أن عاد زوجها من الخليج، سمعت صراخمها في البيت للمرة الأولى.. توالت الشجارات بينها وبينه بعد ذلك اليوم.. كثيراً ما وسوس لي الشيطان أن أعرف سر المشاحنات بينهما، وكلما هممتُ بذلك، تراجعت وحدثت نفسي أن للبيوت أسراراً.. أما تلك الليلة فقد وجدت نفسي وسط أتون المعركة.. كانت المرأة تصرخ وتطرق باب بيتي بعنف بعد منتصف الليل.. فتحتُ الباب، اندفعتْ داخل البيت تقول بصوت عالٍ: أنا في حمايتك يا جارنا، أجرني أجارك الله، أنقذني من زوجي.

ظهر زوجها خلفها مباشرة غاضباً وحاول إمساكها، وقفتُ في وجهه قرب الباب، صرخ على زوجته وهي تندفع داخل البيت: عودي يا بنت الكلب إلى البيت ولا تفضحينا أمام الجيران.

هدأتُ من ثورته وأدخلته غرفة الاستقبال، وطلبتُ من فردوس أن تُبقي جارتنا في الغرفة الداخلية حتى أصلح الأمر بينهما، وأعيد المياه إلى مجاريها.

قال الجار إن زوجته تغار حتى من ثيابها، دائمـًا تشك في تصرفاته حتى صار يشكُّ في نفسه، ابتاع لها أجمل الثياب وأحضر لها أفخر

المأكولات، جعل منها ملكة في بيتها، ومع ذلك تتهمه بالخيانة، وأضاف «قررتُ أن أطلِّقها، لا أريدها ولا أريد أن تعود إلى البيت».

في الحجرة الداخلية قالت جارتنا إن زوجها دائماً يهددها بالطلاق، ودائماً يفر منها إلى امرأة أخرى، ترى ذلك في عينيه وفي تصرفاته، في كلماته وفي نمط حياته، دائماً هناك امرأة أخرى يشبِّهها بها، وأضافت «أريده أن يراني كما أنا، وليس مثل النساء اللاتي يرافقهن ويسهر معهن حتى الفجر، لقد مللتُ من تصرفاته، لا أريده ولا أريد العودة إليه».

أقسم الجار أن زوجته كاذبة، وأنها لن تدخل بيته ثانية.. وبدورها أقسمت أنه كاذب ولن تعود إليه.

قبل الفجر بقليل جمعتهما معاً، تقابلا بنظرات تنمُّ عن حقد وكره، شعرتُ أن العداء تأصّل في نفسيهما، ولا يمكن العودة إلى الوراء.. بعد جدل طويل في محاولة للإصلاح بينهما، نظرا إلى بعضهما وراحا يتعاتبان، بدت نظراتها كعاصفة حطَّمت كل زوارق زوجها وخلجانه، واخترقت قلبه كسهام نارية، ومع ذلك صمد كل منهما على موقفه ولم يتراجع قيد أنمله.. تبادلا ثانية غضباً ملوناً بألوان الحزن واليتم والطلاق والحرمان، وضياع أولادهما.. ومع مداخلاتي وإصلاح ذات البين بينهما، انقشع الضباب، وبدءا يريان

الحقيقة بوضوح أكثر، وراحا يتبادلان جملاً مجروحة.. قال لها ملاطفًا «يكفي عتاب، لنعد إلى البيت».

أجابت بدلال: دائمًا تجرح مشاعري وتنعتني بالساقطة، أنا زوجتك وأم أولادك، ومع ذلك ترى فيَّ امرأة أخرى!..

قاطعها: سامحيني فأنا بأمس الحاجة لمن يُذكِّرني بأخطائي هذه الليلة.

تفتّرت شفتاها عن ابتسامة نصر، قالت: في أعماقي أعرف أنك حرِّي وبردي وكل زمني، وإلا فلمن ألبس أجمل الثياب وأتزيَّن كل ليلة! لكنك أعمى، ظالم وبليد.

تأسف لها للمرة الثانية، وانسلَّا من البيت، وكأن شيئًا لم يكن.

***

بعد تلك الليلة توطدت العلاقة بين جارتنا أم فهد وبين زوجتي، وبعد أن عاد زوجها إلى مكان عمله، صارت جارتنا تدخل بيتنا بلا موعد، مدعية أنها ترغب في مساعدة فردوس، خاصة وأن زوجتي تعمل في حقل التعليم وتغيب عن البيت إلى ما بعد الظهيرة.

ذات مساء، وخلال سهرة لأم فهد في بيتنا، أشعلتْ سيجارة وقالت إنها مخنوقة، وتريد أن تفض ما في صدرها لمن يصغي إليها.. ليلتها فتحتْ كل ملفات سنوات عمرها «كما قالت»، وراحت تحتسي

فنجانـاً من القهوة وتسرد قصة حياتها، قالت وهي تزفر إنها ومنذ ثلاثة عشر عاماً احتل «نمر» حياتها حين قيدها بعقد الزواج، بعد أن عقد صفقة مع والدها مقابل التنازل عن قطعة أرض، كان عمرها سبعة عشر عامـاً، نمر يكبرها بعشرين عامـاً، رضيت به وهو يحمل على كتفه ابنته الوحيدة "سعاد" من امرأته الأولى المطلقة.. بعد زواجه منها سحبها معه إلى بلاد بعيدة، تعاني مرارة الغربة.. في موطنها الجديد أسكنها مع عائلة أحد أقاربه في شقة مجاورة، وكثيراً ما كان نمر يطيل المكوث في بيت قريبه مدعيـاً أنه يسهر معه.. وحين راقبته عرفت أنه يدخل بيت قريبه أثناء غيابه عن البيت، عند ذلك شعرتُ بخيانته لي وخيانة قريبة، كما عرفت أن تلك المرأة غير سوية.. تلك الليلة وبعد أن فاتحته بالأمر، افتعل مشاجرة وغادر البيت، وطيلة الليل ظللتُ أتقلب على جمر الغيرة والحيرة مع ارتفاع درجة الحرارة في صحن الدار، بعد أن هدم جدار الحياة الزوجية بيننا..

أضافت أم فهد بـأن النـاس لـن يصـدقوها لـو قالـت لهـم الحقيقـة، يعتقدون أن بها مسّـاً من الجنون، يقولون إنه شك وغيرة، وإن مثل هذه العلاقة غير معقولة.. «لن يصدقوني، ولن يصدقوا أن وراء هذه الحالـة علاقة خيانة، رغم أنها واضحة في نظري مثل الشمس».

الأمر الوحيد الذي تبقَّى أمام أم فهد عمله هو أن تغيِّر نفسها مع الوقت، وهذا يكفي لتخفيف حقدها على زوجها وعلى عشيقته كما

قالت.. كثيراً ما فكرت أن تقطع العلاقة معه وتعود من حيث أتت، الأمر الذي يتعذر التفكير فيه «بعيد عن العين بعيد عن الذهن».. كان يتوجب عليها عمل ذلك، ليس لأنها تجد هذه التغيرات ضرورة، بل لمجرد استرضاء نفسها، لأنها لم تستطع أن تعلن عما يجول في صدرها.

أضافت أم فهد وهي تمسح دموعها: «بعد مشاجراتي المتكررة معه، أرجعني مع ولدي فهد إلى عمان، وأسكنني غرفة في حيٍّ فقير قريباً من أقربائه، وعاد من حيث أتى، يرسل لي النزر اليسير من النفقة، والكثير ينفقه على عشيقته في غربته».

بعد عودتها واستقرارها حاولت أن تنتقم لنفسها من العذاب الذي عاشته وتعيشه كما قالت.. أضافت: «في عمان واجهتُ بعض المتاعب.. حاولتُ الانتحار أكثر من مرة لكني لم أفلح.. صرت أكثر عنفاً مع نفسي، أخذ الأقارب يتحلقون في بيتي لمعرفة دوافع عودتي، الناس المتطفلون يحبون التدخل في حياة الغير إن استطاعوا لذلك سبيلاً.. يتدخلون فيما لا يعنيهم، وحين لم يجدوا فائدة، اعتمدوا على ما يمكن أن يشموه أو يخمنوه.. أصحاب الأنوف والألسنة الطويلة دائماً مشغولون بالقيل والقال.. هذه حالهم مع مرور الأيام.. دائماً فضوليون.. أما الذين برروا تواجدهم وزياراتهم لي بعذر ماكر، كان الشيء المفضل لهم ادعاء القرابة، ودائماً يدسون أنوفهم يتشممون

المشاكل.. الفارق الوحيد هو أني أصبحت أعرفهم وأميِّز وجه الواحد منهم عن الآخر.. يدَّعون القرابة وينظرون لي بخبث وكأني امرأة غير سوية.. هذا ما كانت تقوله نظراتهم ونفوسهم المريضة، الأمر الذي دفعني للابتعاد عنهم، والبحث عن بيت بعيد عن جوارهم، لكنهم لم يتركوني في حال سبيلي، فلا شأن لهم إطلاقاً إلا البحث عن المشاكل والأزمات.. لقد داسوني بأقدامهم من دون صوت، ورموا بي عرض الحائط مثل ما فعل بي زوجي تماماً.

مع مجريات الأحداث والسنين أصبحتُ صعبة المراس، فالمرأة لا يمكنها ببساطة أن تحتمل كونها هدفاً متواصلاً لأعين الرجال، وزوجها يزورها شهراً كل عام أو عامين.. كنت له مثل قطة يتربّصها قط شرس في موسم التزاوج، ويقضي معظم أوقاته مع الأهل والأقارب، يسافر ثم يرسل لي رسالة مختصرة يسأل فيها عن الحمل الجديد.. ذات يوم صرختُ في وجهه بعصبية.. «أنا لست وعاءً لبذورك».. لطمني وحمل حقيبته وعاد من حيث جاء.. لا أدري لمَ هذا الحقد الذي ليس له داع بيننا!.. علاقة تبدأ بطريقة جسدية فاترة ويتوقع لها قرارات نهائية.. وهكذا مرت السنوات إلى أن أصبح عدد أولادي خمسة».

بكت أم فهد تلك الليلة كثيراً، لكنها تجمّلت بالصبر، وقالت إنها

راضية بنصيبها، لكنها لن تسامح والدها الذي باعها لهذا الشيطان.

***

ذات مساء وبينما كانت أم فهد تلج مدخل العمارة شاهدتُ أحد زبائن المحل ممن كنت أعرفهم جيداً، ينظر إليها مليّاً ويتابع خطواتها.. بعد أن اختفت اقترب مني قائلاً «ماذا تفعل هذه المرأة هنا؟».. أجبته بأنها مستأجرة، فابتسم ساخراً وقال «أنصحك أن تطردها من البيت حتى لا تسوِّئ سمعة العمارة».. فاجأني بكلماته، دافعتُ عنها وقلت إني لم أرَ منها ما يسيء إلى سمعتها، فقال إنه يعرفها حق المعرفة، يعرف أين كانت تقيم، كما يعرف الكثير ممن يترددون على بيتها.. لم أصدق كلمة مما قال، ومع ذلك أدخل الشك في رأسي، مما دفعني لمراقبة تصرفاتها دون أن أبدي أمامها أية شكوك.

بعد أيام عدة، وبينما كنت أسهر وفردوس على سطح البناية، شاهدت أحدهم يلج مدخل العمارة، خمَّنت أنه قادم لزيارتي، خاصة وأن البناية لا يقيم فيها غيري وغير أم فهد، واستبعدت أن يلج بيتها أحدهم بعد منتصف الليل، وحين لم يظهر أحد على السلالم ولم تسطع أنوار الدرج، خمنتُ أنه أحد اللصوص يحاول اقتحام البيت خلسة.. تسللتُ نزولاً ووقفت أرقبه.. الظلام كان يسود المكان.. فجأة فُتح باب بيت أم فهد بهدوء عبر ظلام الغرفة.. اندفع الرجل إلى الداخل وأُغلق خلفه الباب.. ثارت الدماء في عروقي وتصبب العرق

من جبيني، حامت الشكوك في رأسي وتذكرت ما قاله الرجل عنها، أضأتُ مصباح السلالم، تسارعت خطوات الرجل نزولاً واختفى كما ظهر فجأة.. أسرعت إلى بيتها أدق جرس الباب.. لم تفتح في البداية، صرختُ عليها وقلتُ بأني سألم الجيران عليها، فتحت الباب ووقفت أمامي وجهـًا لوجه.. كانت ترتدي روبـًا زهري اللون، قالت تفضل.. قلت رأيتُ أحدهم يصعد الدرج ثم اختفى فجأة.. أجابت أنها لم ترَ أحداً، وأضافت «ادخل».. ترددت، ابتسمتْ بغنج وسحبتني من يدي إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي، أضافت بلا مقدمات: «أعرف أنك تراقبني منذ فترة طويلة، كما أعرف ذلك الشخص الذي وشى بي.. وطالما عرفت الحقيقة فخذ مني ما تشاء وما يعجبك».. تراجعتُ إلى الوراء.. فجأة خلعت الروب الذي ترتديه ووقفت بقميص نوم يشف عن مفاتنها وقالت: إذا حاولت الخروج سأصرخ وألم عليك أمة لا إله إلا الله، أنا «دنيا» وأنت لم تعرف الدنيا بعد.. وراحت تدفعني نحو السرير.. تراجعتُ ثانية إلى الوراء، فجأة سمعت صوت فردوس تنادي من أعلى الدرج.. ارتدت دنيا روبها وأسرعت نحو الباب، فتحته وقالت لي بصوت منخفض: «إذا لم تستر على ما رأيت مني سأفضحك عند زوجتك وأقول للجيران إنك تهجَّمت عليَّ بعد منتصف الليل».. ثم نادت فردوس وقالت لها بأن أحدهم حاول خلع الباب لولا تدخل زوجها في الوقت المناسب وهروب ابن الحرام.

لا أعرف كيف تسارعت الأمور تلك الليلة! نسيتُ أولادها، وابنة زوجها سعاد، ولم أرهم في البيت، كما لم يتبادر إلى ذهني التحقق من أمر الرجل الذي تسلل إلى غرفتها.. في الصباح قالت أم فهد بأنها سترحل من البيت بعد أن تجد بيتاً آخر، لكنها لن ترحل عن طريق القوة حتى لو وصل الأمر إلى المحكمة.

وجدتُ نفسي في الأيام التالية أتهرَّب من طريقها، حتى لا تُسبب لي فضيحة أمام زوجتي والجيران، ورحت أدبر خطة لإخراجها من البيت.. منعتها من دخول بيتي، وقلت لفردوس أن تتجنبها، استغربت زوجتي الأمر وقالت إنها لم ترَ منها شيئاً يدفعها لقطع العلاقة معها.. ومع أني لم أعد أرى أحداً يدخل بيتها أثناء مراقبتي لها، إلا أنها صارت تغيب عن البيت كثيراً، ولا تعود إليه إلا بعد العشاء.. في قرار نفسي كنت مقتنعاً أنها تنصب لي فخّاً.. أيقنتُ من ذلك حين أخذت تتقرب مني، وتُظهر مفاتنها كلما سنحت لها الفرصة عندما أمر من أمام بيتها.. عند ذلك تأكدتُ من نواياها الخبيثة، وألححتُ عليها بالرحيل.

***

(٧)

قاربت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل قبل أن أصل الفندق، اكتشفتُ أني جلت في شوارع القاهرة سيراً على الأقدام، من منطقة الزيتون إلى العتبة مروراً بمنطقة العباسية وشارع الجيش وباب الشعرية، وشوارع فرعية كثيرة.. كنت تعباً وغارقاً في بحر من المتاهات وأنا أخطو نحو باب الأزهر، أدخل زقاقاً جانبيّاً، أدق جرس الباب ليفتح لي إبراهيم فريد.. لا أدري ما الذي دفعني إليه دفعاً، ولا كيف قادتني قدماي إلى بيته!.. كم تجاهلته وحاولت نسيانه في المدة الأخيرة، لكنه تربع في ذاكرتي تلك الليلة فوجدتني منقاداً إليه!.. أفضتُ له بأني يئستُ وسأغادر القاهرة.. حاول أن ينسيني الأحداث، قدم لي شاياً ثقيلاً مرّاً، وراح يتحدث عن فرصة عمل وجدها في أحد الأفلام كممثل ثانوي.. كان يتحدث، وبدوري كنت سارحاً في عمان، كل معارفي كانوا يعرفون أني سأعود بعروس، خاصة فردوس.. فكيف سأعود بخفي حنين!.. قررت ألا أتزوج من مصر، بينما راحت ذاكرتي تدغدغ أحلامي وتقول بأن كل النساء متشابهات.. «أنت تبحث عن بطن يحمل الأولاد، لا عن امرأة تحبها وتحبك».. لعنت الشيطان في قرارة نفسي، واتخذت قراراً بأن أعود إلى الأردن دون أن ألتقي بأية فتاة من مصر.

***

في أواخر الليل وأنا أتمدد على سريري في غرفة الفندق، عادت ذاكرتي إلى الوراء.. تذكرت فردوس والمصير الذي آلت إليه، بعد أن اتخذتُ قراراً بالزواج من امرأة ثانية.. حاسة الزمن قادت ذاكرتي إلى سنوات بعيدة، الأحداث تربعت في ذاكرتي وقادتني إلى أول لقاء جمعني بها.. كنت في لبنان أدرس في جامعة بيروت العربية يوم أن التقيتُ بها للمرة الأولى..

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً وأنا أقف في شارع صبرا، عندما توقفت حافلة مدرسية، وترجَّلتْ منها طالبة متوسطة القامة، ترتدي مريولاً مدرسياً أخضر اللون، بشرتها بيضاء، شعرها أسود فاحم، عنقها ناصع البياض طويل، نظراتها خجولة ووجهها ملائكي.. شعرتُ أن قطباً مغناطيسياً يشدني إليها، ويدفعني لملاحقتها عبر زقاق جانبي قادني إلى وسط منطقة الداعوق.. استدارت جانباً واختفت داخل ممر ضيق قادها إلى طابق علوي.. غريباً وجدتُ نفسي ووحيداً تلك اللحظة.. نظرتُ حولي، أحسستُ بأني أضعتُ شيئًا أو فقدتُ عزيزاً على قلبي.. تمشَّيتُ في الزقاق.. ظهر بعض المارة واجتازوني دون أن يعيروني أدنى انتباه.. عدت أدراجي وتوقفت أمام البيت الذي اختفت بداخله.. فجأة وبلا مقدمات وجدت نفسي أدق جرس الباب.. طالعني وجهها من خلف الباب، قلت «مرحباً».. نظرتْ إلى وجهي مباشرة وأسبلتْ جفنيها.. سألتها عن بيت للإيجار.. نظرت إلى وجهي ثانية ولم تجب، أحسستُ بألفة مردُّها ابتسامة خفيفة أطلَّت من عينيها.. تمعَّنتُ في صفحة وجهها

وابتسمت.. لاحظتُ أن احمراراً وردياً خجولاً يحيق بوجهها مثل هالة.. تأمَّلته جيداً، بشرة نقية وعينان عسليتان، شعرتُ أني أعرفها منذ سنوات طويلة، وأن هذا الوجه يوحي بالألفة والمحبة والاطمئنان.. تناهى إلى سمعي صوت نسائي من الداخل «مين يا فردوس».. تسارعت دقات قلبي، قطعتْ حبل أفكاري صاحبة الصوت عندما ظهرت قرب الباب، امرأة مربوعة القوام بوجه مدوَّر وبشرة بيضاء عرفتُ أنها والدتها.

تراجعتْ فردوس إلى الوراء فاسحة المجال لوالدتها بالتقدم دون أن تتفوَّه بحرف.. كنت أقف أسفل الدرج، بينما وقفتْ على ارتفاع أربع أو خمس درجات.. أعدت لوالدتها نفس السؤال.. نظرتْ إليَّ من الأعلى إلى الأسفل ثم سألتني عن عملي.. أخبرتها أني طالب جامعي.. قالت «توجد غرفة واحدة لشخص واحد».. وعندما طلبتُ رؤية الغرفة طلبتْ من ابنتها أن تُحضر المفتاح.. بعد لحظة نزلتْ الدرجات فتراجعتُ إلى الخلف، لكنها استوقفتني وأدارت المفتاح بالباب الذي أقف بجانبه.. فتحتْ الباب وقالت «هذه هي الغرفة».

اندفعت رائحة رطبة من داخل الغرفة المهجورة المعتمة.. سبقتني والدة الفتاة إلى الداخل، أضاءت المصباح ووقفتْ تنتظرني وأنا أتأمل الكهف الذي يفتقد لكل مقوّمات الحياة.. هممتُ بالخروج، لكن ابتسامة فردوس التي كانت تقف قرب الباب استوقفتني، ظلَّت ابتسامتها تبرق للحظات في مخيلتي.. أحسستُ أن عينيها تشعان نوراً

هادئـًا وحزينـًا، ووجهها مصيدة.. وجه فريد له طابعه الخاص، دفعتني غرابته للتراجع عن قراري واستراق النظر نحوه.. تأمَّلته عن كثب حتى وصلت النظرات ثانية إلى العينين.. هناك توقفت، تسمَّرت، شعرتُ أني أعرف هذا الوجه منذ زمن بعيد، وكأنه مطبوع في ذاكرتي منذ طفولتي، مخلوق حسب ما كنت أفترضه في مخيلتي وأتمناه.

تلك اللحظة، شعرت أن نظراتها الوادعة تحولت إلى مقصات هذَّبت جناحيَّ عند مدخل الغرفة.. يومها تحدثت معها للمرة الأولى، ولا أدري ما الذي شدني نحوها أكثر فأكثر ووالدتها توافق على إيجاري الغرفة! فتركتُ الشقة التي أقيم فيها قرب الجامعة لأنتقل إلى تلك الغرفة، حيث شعرت أنها جنة الله على أرضه، وأن فردوس صاحبة الوجه الملائكي هي الملاك الموعود به في الدنيا والآخرة.

الغرفة تقع على مدخل بيت مكوَّن من طابقين خلف مأوى العجزة، بين صبرا والمدينة الرياضية، حيث تقبع هناك أكوام من بيوت الصفيح المتلاصقة.. لها نافذة وحيدة، هي التي ألمحها وأنا أعبر الزقاق الوحيد الذي يربط الحي بمنطقة صبرا، وهي متنفَّسي الوحيد إلى قلب بيوت الحي الإسمنتية بأناسه وذكرياته.. أمام الغرفة هناك نافذة أخرى عند بسطة الدرج تطل على الطريق من الجهة الشرقية، وقد عرفت فيما بعد أن النافذتين كانتا لغرفة واحدة قبل أن يختل النظام وتسود الفوضى في المكان، فبعد التغيير تسارع العمران وتقلَّصت الغرفة، اقتطع منها مدخل ودرج يؤدي إلى الطابق العلوي، وأصبحت مثل غرفة حارس يقيم عند مدخل البناية.. في الغرفة وعلى

مسافة أربعة أقدام فقط من الباب، يجثم سريري الحديدي، وعلى مقربة منه تركن طاوله خشبية وإلى جانبها مقعد خشبي قديم، وفي مؤخرة الغرفة وخلف باب داخلي صغير يقبع ما يسمى بالمطبخ، حيث تركن أدوات الطبخ على رف خشبي، تعلوه نافذة لا يزيد قطرها عن خمسين سنتيمتراً للتهوية، مطلَّة على الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي.. في الداخل أيضاً كان هناك باب أصغر من باب المطبخ يؤدي إلى بيت الخلاء المقام تحت سلالم الدرج، بمساحة لا تتَّسع سوى لشخص واحد نحيف الجسم متوسط القامة.

غرفتي الجديدة بدت مثل كهف قديم، لا تزورها الشمس ولا يدخلها النور، لا تتنفس الهواء، ولا يمكن للمرء أن يجلس فيها نهاراً دون أن ينير مصباح الكهرباء، أما وقد انقطعت الكهرباء عن بيروت وأصبح نهارها ليلاً بسبب الحرب الأهلية، فلا بدَّ من مصباح الكاز لينير الغرفة ليلاً ونهاراً.. ونظراً لوجود بيت الخلاء في زاوية معتمة تحت الدرج، فقد كان المكان بارداً ورطباً على الدوام، وهذا ما جعله يحوي أنواعاً من البزاق تسعى جاهدة في سيرها بخطوط مستقيمة ومتعرجة إلى الأماكن الرطبة والمظلمة، مخلِّفة وراءها خيوطًا عنكبوتية شفافة لامعة على أرضية الغرفة وعلى الجدران، وما بين فترة وأخرى كنت ألاحقها بكميات كبيرة من الملح، فتتقلَّص وتتحوَّل في ثوانٍ معدودة إلى كُتَل صغيرة رخوة، وفي الأيام التالية يعود غيرها للظهور وتتكاثر من جديد.

في تلك الغرفة كثيراً ما كنت ألتجئ إلى عالمي الخاص، أقبع في

سريري الحديدي قرب النافذة التي تطل على الحي، أسحب ستارتها الخام البيضاء المعلَّقة بسلك نحاسي رفيع، وأجلس أنتظر بشوق رؤية صاحبة الوجه الملائكي أثناء عودتها من المدرسة، أرقب المارة والطريق الضيق من برج مراقبتي، وألاحق بنظراتي النساء اللاتي لا يحلو لهن إلا التجمع والجلوس أمام أحد البيوت في الممر الضيق، يبسطن سيقانهن، يشربن القهوة ويقلبن الفناجين، يبحثن في بقايا خطوط سوادها عن أمل أو لحظة فرح.. يحكين عن أحلامهن لبعض، وينتقدن المارة وحملة السلاح.

أهل فردوس بدوا أهلاً لي منذ أن أقمت في الغرفة، ساقتهم أقدارهم مع المهجَّرين عام النكبة من شمال فلسطين إلى لبنان، أُجبروا كغيرهم من اللاجئين على الشتات تاركين ديارهم ووطنهم حتى استقروا في مخيم صبرا.. شعرتُ أن لي أسرة وعائلة جديدة، وأحلام بدأت أسطرها في مخيلتي.. أرقب ملاكي من الباب أو النافذة المطلة على الممر الضيق لعلِّي أراها، وحين لا أرى طير الحب أو أسمع تغريده، أنام طوال الليل أعاني من الحرمان، أشعر أني أحب ملاكًا من طرف واحد، لا يعلم مقدار ما يعانيه ذلك القلب الذي عذبته الأيام وجرحه الزمن.

***

ليالٍ طويلة مرَّت لا أستطيع عدَّها، لاحقتُ خلالها بنظراتي صاحبة الوجه الملائكي، عيناي كانتا تتلصَّصان من خلف الباب،

أذناي تسترقان السمع لوقع خطواتها.. الطابق العلوي كان مسكونـاً بها، أحلامي، كتبي، عملي، وقت فراغي وغرفتي صارت مسكونة أيضـاً بعطرها وظلالها.

تكرَّر لقاء النظرات منذ أن أقمت في الغرفة، وتوثقت علاقتي بفردوس دونما حاجة إلى مكاشفة أو تأكيد.. لغتنا الرمزية تطوَّرت أيضـاً، وصارت فردوس تتقن الحركات، تدق على الجدار أو تذرع سطح الغرفة جيئة وذهاباً بإيقاع معيَّن، معلنة عن وجودها داخل المنزل، تتحدث أحيانـاً بصوت مرتفع قليلاً حتى يتسنى لي سماعه من النافذة الصغيرة، وكنت أفسِّر كلماتها حسب ما يحلو لي تفسيرها، وعندما تلحظني على مدخل الغرفة يرتعش صفاء وجهها، يختنق صوتها الناعم الخجول، وتنسحب إلى الداخل بصمت.

عندما كانت تقف قرب النافذة الداخلية الصغيرة، تضيع مني الكلمات، وهوى الحب يختنق في صدري، فألمِّح إليه تلميحـاً أو أغلِّفه بكلمات رقيقة وبكلمات هامشية بين الكلمات، وفردوس تصغي وتفهم كل ما أعنيه.. تقف مسبلة عينيها، غائبة عن الوعي وعن العالم الذي يحيط بها، وعندما تسمع وقع خطوات قرب الباب الخارجي تجفل وتصحو من حلمها، تختفي من أمامي كلمح البصر، وبدوري أصحو لأجد نفسي مستنداً على الجدار في ظلام ما يسمى بالمطبخ، عند ذلك أعود إلى سريري، أتمدد وأنظر إلى السقف.. تتراءى لي صورتها من جديد.. أراها تولد من جديد وتتوثب في

أعماقي.. تجتاحني مثل عاصفة ثم تنفجر في داخلي وتحيلني إلى شظايا.. أتمزق، أتبعثر، ثم ألملم نفسي على أمل لقائها ثانية.

مع مرور الأيام استطعت أن أبني علاقة جيدة مع والدها «أبي سعيد»، كنت أمر على بقالته الكائنة في أول شارع صبرا وأحيِّيه، وعندما عرفتُ أنه لا يجيد الحساب بطلاقة، وأن أكبر أبنائه الذكور لم يتجاوز العاشرة من عمره.. عرضت عليه المساعدة، ورحت أقضي معظم ساعات فراغي في البقالة، لكني لم أفلح مرة واحدة بكلمة ترحيب إلى بيته.. وخلال تلك الفترة استطعت إقناعه بتحويل بقالته إلى محل لبيع مواد البناء، خاصة وأن منطقة صبرا التي تتعرض للقصف بين يوم وآخر بسبب الحرب الأهلية بين فصائل المقاومة والكتائب بحاجة لمثل هذه المواد؛ وبالتالي فهي بحاجة إلى عمران أو إصلاح جديد.. وخلال أشهر قليلة تغيَّر المحل وانتعشت تجارته، ولم يعد أبو سعيد يجد وقتاً يرتاح فيه، مما دعاه لتوظيف عامل يساعده في عمله.

في وقت فراغي من عملي ودراستي، كنت أعود إلى غرفتي، ألقم المسجل شريطاً لأم كلثوم أو فيروز، وأتذرع بطلب أي غرض من بيت أبي سعيد.. أدق على نافذة المطبخ بعصاً قصيرة دقات معيَّنة، تنزل فردوس، التي أصبحت تُدرك معنى حركاتي تماماً، تقف عند النافذة الصغيرة، تسألني إذا كنت بحاجة إلى شيء، وعندما أرى وجهها أقف مأخوذاً وألتجئ إلى الصمت، وبدورها تقف صامتة أيضاً، وكلانا ينصت بإجلال إلى صوت أم كلثوم، وهي تعبِّر عما

يجول في صدرينا «عوِّدت عيني على رؤياك، وقلبي سلّم لك أمره».. فقد علَّمني ذلك الوجه الصمت والتحديق والإبحار في الخيال.. لم أكن قادراً على محادثتها، كنت أرقبها بصمت وكأني أراها للمرة الأولى، أشعر بأن جمال وجهها سيبقى في مخيلتي حتى لو أصبحت امرأة عجوزاً، كما لو أن جوهر الأنوثة بالذات سيمر بها دون أن يمسها، إنها تملك سحراً جباراً لن أجده عند أي امرأة أخرى.. أشعر أنها تستحق ذلك الصراع الطويل بعد أن أصبحت هدفي ومطمعي.. وردة جورية باغتني حبها على حين غرة، بعد أن ظننت أن ينابيع القلب قد نضبت.. سمكة ملونة كانت فردوس، أسبح بفرح في صفاء عينيها، أرحل في فضائهما وظلالهما نحو المستقبل.. هالة من هالات قوس قزح كانت تتراءى لي، ودائماً أتذكر لقاءنا الأول، وأتساءل في قرارة نفسي إذا ما زالت تذكره أيضاً!.

***

(٨)

مع بداية عامي الجامعي الثالث، لا أعرف لِمَ أحسستُ بالوحدة والكآبة وهي تتراءى لي في عملي ظلاً باهتـًا، وما بين صفحات كتب الجامعة أراها نوراً يدفعني نحو مستقبل مشرق.. الأمر الذي دفعني لأقدم لها قلبي هدية تفعل به ما تشاء.. شعرتُ أن قلبي يهيم كفراشة حول سريرها ليزيل وحدتها ويطمئن على نبض قلبها، إنها قمري الذي يضيء عتمة ليلي، غارسة الورود في عمري، هي من قالت لي في المنام سأقتلك إن توقفت عن حبي، وفي النهار هربت بعد أن أشعلت نيران الحب في قلبي.. انساب حبها في دمي وجرى في عروقي دون أن أعلم.. لم تعد طيفـًا في خيالي بعد أن سرى حبها في نبضات قلبي، أصبحت واقعـًا وبتُّ أتقلب في أتون من لهب.

تحوّل عالمي من الظلام الدامس إلى ضوء مشرق منذ أن التقيتُ بها للمرة الأولى.. طيفها كان يتراءى لي منذ ذلك اللقاء بصورة بارعة الجمال، ذلك الطيف الذي عجزت عن إبعاده عن ذاكرتي ولو لحظة واحدة، كم شعرتُ بدفء الحب في حوَر عينيها العسليتين وهما تشداني إلى عالم السحر والجمال! أما كلماتها الدافئة، فتلك موسيقى سمفونية خالدة سرت في روحي وتجلت فيها سعادة سرمدية.. شعرتُ أن حبنا من فعل الأقدار الذي أعطى فأجزل العطاء، حبي هو الفرع وهي بكل ما تملك من صفات، الأصل، الأصل دائمـًا أكرم وأبدع من الفرع.. ومع ذلك رحتُ أتساءل: كيف تجرأت ذات مساء وأعادت لي

زجاجة العطر التي أهديتها إياها بعد أن ملأتها بكلمات عاطفية قبل أن أودعها بين يديها!.. وكيف أتتها الجرأة ورفضت مني كلمة «ملاك» ترفعاً عن البشر، قائلة إنها إنسان يخطئ ويصيب!.. ازدادت حيرتي وتساءلت عن سبب تحولها المفاجئ، وهي تسقط في يدي من النافذة الصغيرة قصاصة ورق كتبت فيها «ابتعد عن طريقي، وعار على الجار أن يغازل جارته».. كنت أعتقد أن شمساً قد أنارت لي الطريق عندما التقيت بها، وها أنا أفاجأ بعد أن قرأت قصاصتها بأن شمساً حجبتها الغيوم.. اعتقدتُ أن وردة الحب قد تفتحت برائحة زكية، وإذ بها وردة اصطناعية بلا رائحة ولا جمال!.

خمسة أيام مرت لم أشاهد خلالها فردوس بعد تلك الليلة، صوتها المخنوق في الطابق العلوي لم أسمعه منذ ثلاثة أيام أيضاً، أرَّقني الشوق إليها، صداع عنيف راح يمخر رأسي على موجات متتالية حاملاً معه كل شظايا المعادن الباردة.. فتحتُ باب الغرفة ووقفت أرقب رؤيتها.. فجأة اندفع شاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره نحو مدخل البناية، صعد درجات السلم دون أن يلقي السلام واختفى داخل البيت.. صداع عنيف دار دورة كاملة ودفع بكل شظايا قنبلته في رأسي، اندفعت ثلوج سوداء لطخت وجهي وحجبت عن عينيَّ الرؤية، تسرّب القلق إلى نفسي ووجدتْ الغيرة لها حيِّزاً في أعماقي، أحسست إحساساً عميقاً أن لهذا الشاب دوراً في حرماني من رؤيتها، وسبب تحولها المفاجئ.

نار توقَّدت في أعماقي وأشعلت روحي.. تصبَّب العرق من جبيني وامتد إلى بقية جسدي.. ازداد خفقان قلبي وبدأت أرتجف.. ساعات طويلة مرَّت والشاب لم يغادر البيت، رحت أصول وأجول وأذرع أرضية الغرفة ذهاباً وإياباً بين الباب ونافذة المطبخ.. أتنصَّت من النافذة وأرهف السمع لعلي ألتقط كلمة واحدة مما يقال في الطابق العلوي، لم أسمع شيئًا.. تساءلت في قرارة نفسي عمَّا يقول هذا الشاب لها في البيت وعما يفعله!.. وما علاقته بها!.. مجرَّد التفكير فيما يمكن أن يكونا يتحدثان به كان يرعبني.. همستُ في أعماقي «ماذا لو نمَت بينهما علاقة وهجرتني فعلاً! ماذا لو أغلقتْ النافذة! آه النافذة، إنها نافذتي الوحيدة التي أطلُّ منها على عالمي الخاص، لا يمكن لقلبي أن يدق بدون هذه النافذة، ماذا يتبقَّى لي لو أقفلت؟!.. أرجع إلى ظلام الغرفة، أدوخ وسط الرطوبة، الإنسان حين يخرج من مسكنه يكتشف العالم والأشياء.. أما أنا فقد اكتشفت العالم من خلال عتمة الغرفة ووجه فردوس المضيء من تلك النافذة.. فكيف أحتمل العتمة ثانية بلا نور يطل من عينيها!».

تراخت أعصابي، تشوَّش عالمي، شعرتُ أني بأمسِّ الحاجة لأن أعيش صفاء عينيها وفضاء عالمها، بحاجة إلى الابتسامة المرسومة على زوايا فمها، بحاجة إلى الاستراحة المسترخية على إطلالة وجهها الملائكي من النافذة.

ساعات طويلة مرَّت، الدقائق مرَّت كالساعات وأنا أصيخ السمع

وأعيد نفس الأسئلة في ذاكرتي، وأرقب نافذة الحب.. ماذا يفعل هذا الشاب داخل البيت، وماذا يقول لها؟!.. أرعبني التفكير، ولا أدري كيف قادتني مخيَّلتي تلك اللحظة إلى غيرة أوصلت أفكاري حدَّ الانتقام والتخلص من هذا الشاب!

عند المساء عاد أبو سعيد من عمله، كنت أقف قرب الباب متسمراً متوتِّر الأعصاب.. دار بيننا حديث قصير عن الأحوال الصحية، والسياسة والحرب الأهلية في لبنان.. قال وقد لاحظ قلقي «الجميع خوَنة، والخاسر الوحيد مَن يُقتل هذه الأيام».. ثم دعاني إلى بيته ليعرِّفني بقريب له، فطلبت منه أن يسبقني حتى أستبدل ثيابي.

عند الباب تسارعت دقَّات قلبي وأنا أقف أدق الجرس.. سمعت صوتها تقول «أيْوَه»، ثم فتحتْ الباب.. ما إن رأتني حتى تسمَّرت في مكانها وراحت تنظر إليَّ بذهول.. اتسعتْ حدقتا عينيها وأنا أقف صامتـًا.. تجرأتُ ومدَدت يدي مصافحـًا.. لامستْ يدي صفحة يدها.. أحسستُ برعشة لذيذة تسري في جسدي، سحبتْ يدها وكأنها فوجئت بما فعلت، انسلتْ في لحظة مباغتة مثل قطة مذعورة، وغابت في غرفة داخلية.. ظهر والدها قائلًا «تفضَّل»، ودلف أمامي إلى غرفة الاستراحة.. وقف الشاب، سلَّمتُ عليه وجلست.. قال أبو سعيد بأن «فايز» ابن خالته قد أنهى دراسة الهندسة المدنية من جامعة القاهرة.. لم أسمع بقية الحديث، رحلتُ إلى عالم ضبابي.. وعندما خرجت من

البيت ولمحتها ثانية عند الباب، داهمني شعور غريب، وسافرتُ بخوف في متاهات المستقبل مع ظهور هذا الشاب الذي اقتحم عالمي، وأغرق سفينة حبي بأمواجه المتلاطمة.. وفي داخل غرفتي تغبَّش العالم أمام ناظريَّ، طال الليل وأصبح عمراً كاملاً.. وتمنيت لو أرى فردوس لأقول لها كل ما أخفيه من عواطف في صدري.. أغمضتُ عينيَّ، وسافرت مع صوت أم كلثوم في رحلة ضبابية وهي تغني «يا ترى يا واحشني بتفكّر في مين».

***

(٩)

ثمَّة خطوات تجيء وتروح فوق سطح الغرفة بعد العشاء، أيقظتني من عالمي السحري وعادت بي إلى أرض الواقع.. في أعماقي سمعت صوتها يناديني ويطغى على كل الأصوات.. قمت، فتحت الباب ووقفت عند المدخل، شاهدتها تقف على سلالم الدرج، وقفت أرقبها بذهول وصمْت.. حين أراها، كنت أنسى كل شيء عداها.. اندفعتُ نحوها، تراجعتْ إلى الخلف، قالت «إذا بدّك شيء ناديني من شباك المطبخ».

«أبوكِ في البيت؟». سألتها.

«نايم، لكن أمي سهرانة». أجابت، وبقيتْ واقفة في مكانها.

اقتربتُ منها، مددت يدي حتى لامستْ صفحة يدها، شعرتُ أنها ارتعشتْ وكأن أحدًا اقتحم حصانة جسدها، ظهر الخوف في عينيها وانسحبتْ إلى الداخل.. ظهرت والدتها ووقفتْ قرب الباب.. «تفضَّل». قالت.

تعرَّق جبيني ووجهي وأنا أدلف البيت، شعرتُ بأنفاسي عميقة متلاحقة تتجاذب الهواء كأني أختنق.. أضافت «أنت أصبحتَ واحداً من أهل الدار».

اختفت فردوس.. كان التلفاز يبث فيلمـًا عربيّـًا باللونين الأبيض والأسود لفريد الأطرش وشادية، وقط مرقط بالأسود والأبيض يهرهر ويرقد تحت المقعد الذي أجلس عليه.. أخوها سعيد كان يتابع الفيلم، وشقيقتها «مريم» تتصفح كتابـًا بين يديها، تُغلقه بين لحظة وأخرى وتتابع مشاهدة الفيلم.. جلستُ أتابع الفلم، انزوت والدتها داخل المطبخ.. بعد دقائق عادت فردوس وجلستْ تتابع الفيلم أيضـًا.. اختلستُ النظرات إليها، كانت خجلة وهي تعيد خصلة نافرة من شعرها إلى موضعها، وتختلس النظرات إلى جهتي أيضـًا.

عادت والدتها تحمل صينية نحاسية وعليها فناجين القهوة، ناولتني فنجانـًا وجلستْ على مقعد قريب.. فُتح الباب فجأة ودخل جد فردوس لأبيها دون سابق إنذار.. عجوز في السبعين من عمره، لكنه دائب الحركة، يرتدي غُتْرة بيضاء اللون وسروالاً أسود عريض يشبه الملابس الدرزية.. فوجئت بوجوده، وقفت، لم يُسلِّم العجوز، جال بنظراته أنحاء البيت ووقف قرب الباب عاقداً يديه وراء ظهره، دون أن يتفوَّه بحرف.

- تفضَّل اقعد اشرب القهوة. قالت له أم سعيد.

لم يجب العجوز، جلستُ في مكاني.

- وين أبو سعيد؟ قال العجوز بعد لحظة صمت.
- تعبان ونايم. أجابت.

زفر وأدار وجهه نحو الباب قاصداً الخروج من البيت.

- هذا جارنا أنت تعرفه، جاء يعطي سعيد درسـًا. أضافت.
- أعْرف أعرف، خلّيه يعطيكِ أنتِ كمان دروس خصوصية. قال بغضب وخرج من البيت.

كثيرًا ما أحسستُ أن هذا العجوز لا يحبني، خاصة عندما كنت ألتقيه في محل ابنه أبي سعيد، أو أراه جالسـًا قرب باب المحل مع أصحاب له يقاربونه في العمر.. ذات مساء حاولت التقرب إليه فجلست قربه على الرصيف.. قال بأن صاحبه الذي يجلس بجانبه يطالع الأبراج ويرى المستقبل، وأضاف مازحـًا لصاحبه بأن يطلعني على ما يراه في أيامي القادمة.. تناول صاحبه كتابـًا أصفر اللون من صدره وفتحه.. سألني عن اسمي واسم والدتي، ثم جمع أرقامـًا بقلم رصاص على صفحة الكتاب، وفتح على صفحة من كتابه ذي الخطوط القديمة والمتعرجة.. بعد أن قرأ ما يقارب الصفحة قال «ستحصل على مرادك عاجلاً أو آجلاً، وأن أبواب العمل مفتوحة أمامك في بلاد بعيدة، وستتزوج امرأة تحبها، ثم تتزوج ثانية من امرأة غريبة عن الحي الذي تقيم فيه، واحدة منهما لن تنجب، وواحدة ستملأ البيت بالأولاد».. ثم نظر في وجهي وأضاف بأن «إحداهما لن تبقى على ذمتك، ولا أعرف أي من الزوجتين سيتم الفراق بينك وبينها».. قلت «وكأنك تتنبأ لي بطول العمر إذا كانت كل هذه

الأحداث ستجري في حياتي!».. فقال «الله أعلم، لكن هذا ما قاله برجك.. وكذب المنجمون ولو صدقوا».. وعلق جد فردوس قائلاً بأن «الأيام ستكشف المستقبل، والمستقبل لا يعرفه غير رب العالمين.. الأرزاق والأعمار بيد الله».. ثم نظر نحوي وأضاف هامسًا: «اللي بدّه يدخل البيت يدخله من الباب، مش من الشباك».. شعرتُ وكأنه يقول لي بأنه يعرف قصة حبي لحفيدته منذ البداية.. لكني تجاهلتُ ما سمعت، وتظاهرتُ بعدم الفهم.

«قصتك صارت على ألسنة كل الأقارب، ويتساءل الجميع عن نهايتها!». قالت أم سعيد لي بلا مقدمات، وقطعت حبل أفكاري.

فوجئتُ بصراحتها، وجدت نفسي أعترف بقصة حبي لفردوس، ووعدتها أني لن أتأخر عن الزواج مجرَّد أن تسمح لي الظروف في أقرب وقت.

انتهى الفيلم.. قام سعيد وانزوى في غرفة جانبية، بينما توجّهت مريم إلى المرحاض مباشرة والكتاب ما زال في يدها، وأغلقتْ على نفسها الباب.. وعلَّقتْ فردوس مبتسمة «إن شقيقتها تحب القراءة في الحمام، وهي أفضل الساعات بالنسبة لها».

نظرتُ إلى ساعتي، أشارت عقاربها إلى الواحدة بعد منتصف الليل، قمت واتجهت نحو الباب، شعرت أن قطبًا مغناطيسيًا يشدُّني إلى الوراء، تبعني القط المرقط بالأسود والأبيض وولج غرفتي.. في

غرفتي احتضنت القط وتمدَّدت على السرير، متمنياً لو يبزغ الفجر سريعاً وأرى فردوس من جديد.. أحسستُ أني مقيَّد بهذا الحب، وأن فردوس أصبحت قطعة من جسدي لا يمكن الاستغناء عنها.. معها لن أضل الطريق، وفي قرارة نفسي قلت أنه لو قدِّر لسعادتنا أن تنقص في يوم ما، فإني سأخلي سبيلها ولن أقيد سعادتها.. وإن شاءت الظروف أن تفرق بيننا في يوم من الأيام، فسأكون أشقى الأشقياء، وسأعيش على ذكريات عشتها مع أجمل وأرق مخلوقة أحببتها.. فذاكرتي لم تعد تتسع إلا لفردوس والجامعة والمستقبل.. شعرت أني مشتاق لها كاشتياق الجسد للروح، والصحراء لنقطة ماء.. قادتني أفكاري تلك الليلة للحظة فرح حقيقية قبل أن يبزغ الفجر.. عند الصباح أسرعت إلى بيتها.. قابلتني والدتها عند الباب بجفاء وقالت «أبو سعيد في المحل».. قلت لها بأني أريد محادثتها بأمر خاص.. فتحتْ الباب وقالت «تفضَّل، إن شاء الله يكون الموضوع خير».. قلت بلا مقدمات بأني أنوي خِطبة فردوس ولا أعرف كيف أتصرف!

نظرتْ إلي بدهشة واستغراب وقالت «أنت مقطوع من شجرة، ما إلك أب أو أم أو أقارب يطلبوها!»

تلعثمت وعقدت المفاجأة لساني، فلم يخطر على بالي كلمة مما قالت.. قلت «أنتِ تعرفين أن أهلي وكل أقاربي في عمان، ولا يمكن

الوصول إليهم أو قدومهم»..

قاطعتني بامتعاض «إنتَ بتفكّر بنات الناس لعبة! هات وخذ، هل معك مهرها أولاً؟ وهل تقدر تفتح لها بيت كامل من مجاميعه؟ وهل تقدر على مصروفها ولّا بتفكّر الحب وحده بكفّي!»

ألْجمتني الأسئلة.. أحسستُ وكأن زخات من الرصاص تخترق جسدي وتستقر في صدري، تماماً مثل خيبات الأمل التي تتلبسني.. لم أعرف ماذا أقول، وانسحبت.

عند الباب توقفت وقلت: «الواقع لم يخطر على بالي شيء مما قلتِ، لكن أنا اللي بدي أتزوج لا أبي ولا أمي، وانتم تعرفوني على حقيقتي بعد كل هذه الفترة التي عشتها في بيتكم».. وسمعتها تقول وأنا أخطو فوق سلالم الدرج نازلاً: «روح لأبوها واخبره بموضوعك، ولا تنْس أنّ مَن ليس له أهل، له ربّ يكفيه».

***

(١٠)

في غرفتي وأنا أستعيد الأحداث التي مررت بها، لا أعرف لِمَ أحسستُ أني لن أستطيع إسعاد فردوس حتى لو كتب لي القدر وتزوجتها!.. لا أعرف لمَ بزغت هذه الفكرة وتربعت في ذاكرتي وأنا أفكر بحالتي المادية التي وصلت إليها.. والقط المرقط يهرهر ويموء حول سريري!.. أفكار غريبة وسوداء غزت عقلي تلك الليلة، أيكون الزواج سعادة أم تعاسة بالنسبة لنا معـاً؟!.. أم سعيد أيقظتني من غفوتي وأعادتني إلى الواقع، وكلماتها لا زالت ترن في أذني «أنتَ بتفكّر بنات الناس لعبة! هات وخذ، هل معك مهرها أولًا؟ وهل تقدر تفتح لها بيت كامل من مجاميعه؟ وهل تقدر على مصروفها ولّا بتفكّر الحب وحده بكفّي!»..

أعادتني أم سعيد إلى واقعي وقهري، ورحت أستعيد في ذاكرتي ما حدث معي قبل يومين.. في ذلك الصباح توجهت إلى مكان عملي ولم أكن أملك غير ليرة لبنانية واحدة، عند المساء دعاني أحد الزملاء للتنزه في شارع الحمراء، في الشارع تبادر إلى ذهني ما كنت عليه من ضياع، فطلبت منه العودة، تساءل عما ألم بي! لم أجب، وبدلاً أن نلج أحد المقاهي طلبت منه ليرتين لأستقل سيارة وأعود إلى البيت.. قطعتُ صلتي بالماضي ولم أعد أفكر إلا بفردوس والجامعة.. فمنذ سنوات طويلة وأنا أعمل وأدرس وأحلم بالمستقبل، نمتُ خلالها في

الطرقات وفي الأزقة وعلى الأرصفة، كما نمتُ ليالي طويلة بلا عشاء.. شعرت أن أيام الطفر عادت لتتكرر في حياتي من جديد.. منذ صغري وأنا أعمل وأقيت نفسي وأتابع دراستي، حتى في الجامعة، لم أترك عملاً إلا وشغلته لدفع أقساط الجامعة.. فردوس هي الوحيدة التي قهرتني، قهرت إنساناً لم يقوَ عليه الزمن ولم تقهره الأيام.

لا أعرف لماذا قادتني حاسة الزمن للماضي، واسترجعت أيام القهر والطفر وحكاية القط الأسود في ذاكرتي! وأنا في الصفوف الإعدادية من ستينيات القرن الماضي في عمان.. تلك الأيام كنت أعمل بعد خروجي من المدرسة في بيع بطاقات المعايدة أمام الجامع الحسيني الكبير، وعلى مدخل شارع بسمان لأقيت نفسي، وحين كان يتوفر معي ما يزيد عن حاجتي، أنتهز الفرصة مع زملاء الدراسة لنبتاع تذاكر ونحضر أحد الأفلام المفضلة لدينا.. سينما البتراء، خلف الجامع الحسيني، أو سينما عمان في شارع السلط، أو سينما الأردن كانت الأكثر نشاطًا وحضوراً.. ذات ليلة وبعد أن انتهى عرض فيلم لإسماعيل يس في سينما البتراء غادرت السينما سيراً على الأقدام متوجهاً نحو غرفتي الكائنة في جبل نزال، كان عليَّ أن أسلك طريق رأس العين.. الساعة كانت تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل عندما وصلت مطحنة ملحس المقابلة لمركز أمن المهاجرين، حيث تقاطع الشوارع، بعضها يؤدي إلى جبل النظيف والوحدات، آخر إلى المهاجرين، وثالث إلى رأس العين.. بعض أعمدة الشوارع مضيئة

وأخرى مطفأة.. فجأة ظهر خلفي قط أسود اللون يموء ويلاحق خطواتي، لم أعر انتباهًا له في البداية، وعندما كاد يلامس ساقي نهرته بقدمي.. اختفى للحظات ثم عاد يلاحقني.. استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ونهرته للمرة الثانية.. اختفى ثانية، لكن مواءه ظل يلاحق مسامعي.. وصلتُ رأس العين مارّاً قرب سوق الماشية.. ثمة أصوات للأغنام والأبقار تعلو وتختفي فجأة.. اجتزت الشارع وتوجهت نحو شارع القدس.. فجأة ظهر القط ثانية يلاحقني.. تذكرت أحاديث والدتي عن القطط السوداء اللاتي يتلبسهن الجن ويظهرن بأشكال وصور مختلفة، سرت قشعريرة في جسدي، أسرعت باتجاه الشارع المتفرع من شارع القدس صعوداً إلى جبل نزال.. الشارع ترابي ولا أعمدة كهرباء تنير المكان، فقط هو القمر الذي يظهر نوره تارة، ويختفي بفعل الغيوم مرات كثيرة.. في منتصف الطريق تراءى لي حماران يقفان في منتصف الطريق.. خُيل لي أنهما يعترضان طريقي.. حوقلت ورحت أقرأ ما تيسر لي من سور القرآن.. تراجعت وسلكت طريقـًا فرعية، لا بيوت ولا أناس في هذه المنطقة.. تحرك أحد الحمارين واتجه نحو طريقي الذي أسلكه ووقف.. شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، وتجعَّد شعر رأسي.. توقفتُ أرقب الحمار، شاهدت من خلفه رجلاً باهتـًا يقف على تلة يفتح ذراعيه، ولا أعرف إذا كان حقيقة أم وهمـًا ذلك الصوت الذي سمعته، وكأن رجمـًا من الحجارة ينهار في ظلال التلة المعتمة!.. حملت حجرين

صغيرين وتقدمت نحو الحمار.. فجأة ماء القط الأسود عند قدمي وقفز هارباً إلى الوراء، ارتجفت وسرت قشعريرة ثانية في جسدي، لاحقته ببعض الحجارة ثم دُرت دورة كاملة بعيدة عن الطريق واتجهت نحو بيت مضيء في الجانب الآخر، ومن هناك تخفيت خلف جدار قريب واتجهت إلى البيت.

بيتي في عمان كان غرفة واحدة، هي عبارة عن فسحة التهوية بين بيت أخي والسور الجانبي، وضع أخي عليها ألواحاً من الصفيح واستعملها كمخزن في البداية.. ثم أطلق عليها عبارة «سقيفة» استعملها فيما بعد مطبخاً لبيته قبل رحيله إلى المملكة العربية السعودية، وبالتالي جعلها والدي في فصل الشتاء مأوى للحمار الذي ينقل عليه الثمار من البساتين التي كان يفلحها إلى أسواق عمان.. استوليتُ على السقيفة بقوة التفرغ للدراسة، بعد أن كنت أنام صيفاً وشتاءً وفي الحر والبرد بين الشجيرات التي غرسها والدي في فسحة الأرض أمام البيت.. طردتُ الحمار وقمت بتنظيف السقيفة، فرضخ والدي للأمر الواقع.. وما زلت أذكر ذلك الحمار السكني اللون الذي كان يسقيه والدي من إبريق الوضوء، بينما كان يدير ظهره لي استعداداً لرفسي كلما اقتربت منه، لاعتقادي أني نافسته على مأواه الذي كان يبيت فيه وأخذته بالقوة.. ومع أن السقيفة لا تحوي غير سرير حديدي، إلا أنها كانت ملتقى للأصدقاء، فيها كنا نسهر ونحن نجلس على السرير، ونبث همومنا كلما سنحت الفرصة لتجمعنا.. وكثيراً ما

فاجأنا والدي في الليل وقام بطردي مع أصدقائي، فندور في الشوارع، ومع الفجر أتسلل ثانية وأعود إلى السقيفة التي أطلق عليها بعض الأصحاب «الوكر».

لم أنم تلك الليلة، عدت ثانية لرفقة الأشباح، أضأت مصباح الكاز، «حيث لا كهرباء في السقيفة» انعكس ظلي على الجدار الإسمنتي المتآكل كشبح طويل.. جلست على السرير أتأمل سقف الغرفة المصنوع من الصفيح، راح الماضي يشق طريقه إلى رأسي.. تذكرت كل شيء.. تذكرت كيف كنا نعيش في غور الأردن بعد أن حطت رواحلنا بعد الهجرة عام ألف وتسعمائة وثمان وأربعين في بلدة الكرامة.. في الأغوار وفي بلدة الكرامة حيث الحر الشديد، ابتليت بنمو أظافر ومسامير لحمية في قدميَّ منذ خطواتي الأولى.

تلك الأيام كانت البدايات.. كانت الطفولة.. الطفولة كانت عناءً وتشرداً وضياعـاً في عالم المخيمات والخيم الممزقة والمطر والبرد، والفقر والهجرة من فلسطين إلى بلدة الكرامة شرقي النهر.. مشوار طويل من الألم والمشي على حجارة الصوّان.. في بلدة الكرامة عرفتُ بقجة الملابس الأوروبية مع بطاقة المؤن، وكيلو الحليب، وقوالب السكر الأصفر، وخمسة كيلو غرامات من الطحين، لعائلة مكوَّنة من تسعة أنفار، عليهم أن يقيتوا أنفسهم منها شهراً كاملاً.. لم يعد للحلم مكان ووالدي يفلح الأرض وينام في البساتين عند ضفة النهر الشرقية،

يقارع الخنازير البرية والضباع، ويحرص على توفير لقمة العيش لأسرته، كما لم يعد للذاكرة غير الرضاعة من هذا الواقع المرِّ.. كان والدي فلاحـًا يقضي معظم أوقاته في فلاحة الأرض، ويعيش من خيراتها، وكنت أقضي وبقية أفراد الأسرة بصحبته في الأرض التي لم يكن يملكها، بعد أن هُجِّر من وطنه وفقد أرضه، كان يستأجر أرضـًا أو يضمنها قرب ضفتي النهر حتى نهاية المحصول، ويدفع لمالكها ما اتفقا عليه، مرابعة أو مناصفة، ووالدتي تساعده، ويتعاونان في نقل الخضار إلى أسواق عمان.. الأرض كانت بمحاذاة نهر الأردن، ويسمى باللهجة العامية «الشريعة»، وكنا نرافقه سيراً على الأقدام، نغوص في الوحل حفاة، ونتيه بين الأشجار في الليالي القمرية، وحين كنا نقطع النهر لم يكن أمامنا غير القارب الذي يدعى «فلوكة»، ولا يتسع لغير شخصين أو ثلاثة مربوط بحبل من الضفة الشرقية للنهر إلى ضفته الغربية، أما حين كان يفيض النهر، فكان يغرق كل شيء، المحاصيل وكل ما تصله المياه، فتتوقف الحياة حتى تغور المياه.. تلك الأيام كثيراً ما كنت أنام مع والدي في البساتين، وكثيراً ما كنت أستمع لأساطير الفلاحين التي تروى على ألسنتهم عن النهر وفيضانه، وعن الهجرة والتأوه على ما فقدوه في أرضهم المعطاء، حيث لا تشرد ولا هجرة، وينتظرون بفارغ الصبر مواسم الفلاحة وتقليم الأشجار والنعيم الذي كان ينتظرهم بعد فصل الشتاء.. في الكرامة كنت أستمع لمخاوف الفلاحين من القادم بعد فيضان النهر، قلقهم وكفاحهم وطموحاتهم، وأحزان فراق أحبابهم.. طفولة تختزن الذكريات فيما

تحت الوعي.

الحياة في بلدة الكرامة كانت مجموعة من القصص المأساوية التي يتناقلها الناس ويعيشها الشعب الفلسطيني.. وما عاد المقروء والمكتوب منها غير ألحان حماسية، كتابة مقفَّاة تثير الشجون، وتشحن عواطف المشرَّدين للعودة إلى ديارهم المغتصبة.

مثل باقي الأسر الفلسطينية كنا نعيش في الشتات ونقتات العدم.. حكايتنا تناسلت مع الأجيال في زمن الغربة والقهر والتشرد.. أما حالة والدي فهي حالة الفلسطيني الضائع.. كان والدي قاسياً مع أبنائه.. جاهد في سبيل تعليمهم، وتمنى حصولهم على الشهادات العليا، لكنهم خيَّبوا أمله، ولم يحب أحدهم العلم ولا التعليم، فأرغمهم على العمل معه في فلاحة الأرض، وكثيراً ما كان يصب جام غضبه عليهم وكأنه يثأر لنفسه جراء حرمانه من أرضه ووطنه، وكم تساءلتُ في قرارة نفسي «ما الذي جنيناه حتى نؤذى ونُدمَّر على هذا النحو!».. بدا لي أننا مشوهون من الداخل، وغير مؤهلين لحياة الاستقرار.. فقدنا الأمل والفرح قبل ألم المخاض.

بيتنا كان في الضاحية الشمالية من بلدة الكرامة، يتكون من غرفتين وساحة كبيرة، يحيط به سور من الطوب المصنوع من الطين والقش، سقفه من القصب الذي يعلوه الطين أيضـاً، وفي مساءات تلك الأيام كثيراً ما كنت أرى في الظلام بعد أن يطفئ والدي المصباح أبو البنورة

نمرة خمسة، أو سراج الزيت الذي يشعله لصيد الفراش وقتل الناموس.. كثيراً ما كنت أرى الديدان تخرج من عيدان القصب الموجودة في سقف الغرفة، ولا أدري أكان ذلك حلماً أم وهماً أم حقيقة! لكني كنت أرى ديداناً تكبر، تهبط من وسط أعواد القصب لتأكلني.. أحس بديدان حقيقية تنهشني ونمل صغير يعضني.. أزحف على بطني، شلل يصيب أطرافي السفلى.. ينمل جسمي، أحكُّه بأظافري الطويلة، ولا أتوقف حتى يسيل الدم من تحت الجلد.

غيلان كانت تخرج من سقف القصب كل ليلة، تربض على صدري.. وحكايات أمي عن الوطن والهجرة والتشرد والمعاناة تحفر باستمرار في مسامعي، حكايات تدور كرحى الطاحون ليلاً نهاراً ولا تتوقف، تترك في داخلي آثاراً هيكلية قديمة ذات أصداء، أسمع فيها حس الحشرات تنخر وتتقدم وتسري في دمي.

كنت وإخوتي ننام في غرفة واحدة، مفروشة بحصيرة من قش ملون عليها فرشات صغيرة، ووالدي ينام مع أمي في زاوية من الغرفة على فرشة أكبر.. وكثيراً ما كنت أسمعهما يتهامسان في الليل، يضحكان مرة، ومرات كثيرة أسمع أمي تتأوه وتتوجع، وكأنها تبكي في الظلام!

ورغم مرور السنوات ما زلت أذكر ذلك البيت الطيني الذي كنا نقيم فيه، وتلك الأيام التي كنت أنكمش فيها مع إخوتي تحت اللحف والبطانيات، ونتظاهر بالنوم ما إن نسمع صوت والدي يعود للبيت.. كان والدي قاسياً في معاملته مع أفراد أسرته، و«لا يضحك لرغيف

الخبز الساخن»، كما يقال في الأمثال العامية، فهو جاد في كل تصرفاته، والضحك في نظره بلا سبب يُعتبر من قلة الأدب، ونادراً ما كنا نجتمع على سفرة واحدة، فيخيم على رؤوس أفراد الأسرة الطير، نلوذ بالصمت، وننسحب من أمام والدي قبل أن نفرغ من طعامنا.. كما لا زلت أذكر طابون الخبز المصنوع من الطين الأحمر والتبن في سقيفة جانبية من حوش الدار.. كانت رائحة الخبز الساخن حين تقلعه والدتي من الطابون تشدني من على بعد، تعبق في أنفاسي، وتفوح في البيت مثل زجاجة عطر انسكبت فجأة على أرضية الغرفة.

***

تلك الليلة لم يكن الماضي وحده في ذاكرتي، كان الحاضر أيضًا.. تذكرت أخي الكبير الذي سافر قبل سنوات عدة للعمل في السعودية، تمنيت أن أراه ليحل مشكلتي ويبعث لي بعض النقود لأقيت بها نفسي.. تناولتُ ورقة وقلماً وحاولت أن أكتب له رسالة.. حرن القلم في يدي.. تذكرت كيف كانت الكلمات تنساب كانسياب الماء على الجدران وأنا أرصع كلمات ورسائل حب لزملاء الدراسة ليبعثوها إلى من يحبون.. أما تلك الليلة فلم أجد كلمة أقولها لأخي.. تذكرت ما قاله لي في يوم من الأيام «اعلم أن مشاكلك ستبدأ عندما تحصل على الشهادة الثانوية، لا تعتقد أن الحياة مجرد شهادة، فإن لم تكافح وتعتمد على نفسك، وتَخُضْ تجربة الحياة وسط المجتمع، فلن

تنفعك الشهادة، كما لن ينفعك أحد».

أخي قال لي بصراحة متناهية «اعتمد على نفسك».. تساءلت في قرارة نفسي: منذ متى وأنا لا أعتمد على نفسي؟!، منذ طفولتي لم يساعدني أحد، منذ طفولتي بعد أن حط بنا المطاف في عمان وأنا أعمل، كنت أصنع أكياس الورق وأبيعها في سوق الخضار المركزي وسط عمان، عملتُ عتالاً في السوق، وحملتُ سلة قش منذ صغري على ظهري، بعت الخضار على بسطة عند أحد تجار السوق، عملت خادم تنظيف لفترة من الزمن في أحد بيوت الأثرياء، عملت في دور السينما والمقاهي ولم يساعدني أحد.. كنت مصمماً على أن أصنع نفسي وأشق طريق المستقبل بعصاميتي.. حتى طواحين الحجارة «الكسارات» عملتُ بها وأنا في المرحلة الثانوية، ولم أتوقف عن العمل إلا أيام الامتحانات.. الظروف القاسية التي مررت بها لم توقف مسيرتي يوماً ما.. ما زلت أعتمد على نفسي ولم أعتمد على أحد.. تلك اللحظة ألقيتُ بالقلم جانباً، مزقت الورقة وألقيت بقصاصاتها من النافذة في الهواء البارد الذي غمرني، ودفع قشعريرة في جسدي.

استسلمت لدفء الفراش، وفي الظلام استسلمت لكابوس النوم.. ومع شروق الشمس توجهت إلى حيث كانا الحماران في الليلة السابقة، لم أجدهما، وما وجدت إلا عريشاً منصوباً لحارس البستان قرب التلة، وبالقرب منه كان خيال مآتة واقفاً فاتحاً ذراعيه وقد ألبسه أحد المزارعين ثوباً يتلاعب به الهواء.. وعندما عدت إلى الغرفة شاهدت القط الأسود يموء تحت السرير.. اقترب مني وراح يهرهر

ويتمسح بقدمي، شعرتُ بالشفقة عليه، قدّمتُ له طعامـًا وأسكنته غرفتي، ومنذ تلك اللحظة بات يلازمني ولا يفارق الغرفة.

***

(١١)

بعد أن اجتزت امتحانات الثانوية العامة بنجاح، مرت أشهر طويلة وأنا أبحث عن عمل.. بدت كل السبل مغلقة في وجهي، وكأنه لا وظائف أو عمل لشخص منحوس مثلي! وحين شعرت بالجوع عدت للعمل في الحصاد مع والدي.

والدي لم يرحمني أيضـًا.. كثيراً ما كان يناديني بالساقط أو الفاشل وأنا أعمل معه وأنام في الحقل.. كلماته كانت تخترقني كالسهام السامة.. الشمس كانت حارة ذلك اليوم، وراحت الدماء تتسرب من أنفي.. توقفتُ عن العمل واسترخيت في ظل عريش بين أكوام القمح.. صداع عنيف مخر رأسي، دفعني لترك أبي ومغادرة الحقل.

ثلاثة أيام انزويت خلالها في غرفتي.. شقيقتي الصغرى هي الوحيدة التي كانت تحضر لي بين وقت وآخر وجبة طعام، مكونة من رغيف خبز جاف وحبة بندورة، دون أن يعلم بها والدي.. صباح اليوم الرابع تماثلتُ للشفاء.. فجأة اقتحم والدي غرفتي قائلاً «أنا بتعب من شان تاكلوا وإنت نايم.. قوم انصرف ابحث لك عن عمل».

كرامته لم تسمح له بالقول «عد إلى العمل معي».. وبدوري خرجتُ وابتعدت عن ناظريه وهو يلاحقني بكلماته القاسية.

تلك الأيام سُدَّت كل طرق العمل في وجهي، وكنت مزمعـًا على مغادرة الأردن بعد أن غامرت بالسفر إلى السعودية، وعدت منها بعد

أكثر من شهر بخفي حنين.. قادتني أفكاري بالسفر إلى لبنان ومتابعة دراستي في الجامعة.. ولضيق حالتي المادية، وجدت نفسي ذات صباح أتوجه إلى بنك الدم، بعد أن سمعت أنهم ينقدون من يتبرع بدمه.. ثلاثة دنانير كانت المحصلة.. أودعتها في جيبي وعدت إلى سقيفتي، وفي صباح اليوم التالي، حملت بعض الملابس وتوجهت إلى محطة القطار في ماركا، سافرتُ إلى دمشق، ومن هناك تابعت مسيرتي إلى بيروت، مزمعاً أن أشق طريق حياتي من جديد.

***

في بيروت أحسستُ بجسدي كأرض يباب، وأن مستقبلي مات قبل أن يولد، وأنا أبحث عن عمل وسط بوادر حرب أهلية، واعتداء إسرائيلي متكرر على جنوب لبنان.. شعرتُ أني سمكة صغيرة خرجت من مياهها إلى اللهاث والاختناق والموت، وأن حياتي أرض جرداء تحلم بغيمة.. وفي قرارة نفسي تساءلت ماذا أفعل بعد هذا الضياع! هل هذه هي الحياة التي خُلقتُ من أجلها، أم أن هناك درباً آخر يجب أن أسلكه حتى أصل إلى حياة أخرى أفضل؟!.

بيروت كانت تضيق وتتخذ شكل ذراع يتمدَّد إلى عنقي ويخنقني، أقنعتُ نفسي أنه ليس من الممكن الجري دائماً.. يجب التوقف ومواجهة الذات، مهما ركض الإنسان وابتعد سيبقى داخل جلده، ولن يتخلى عن ذاته.. ففي لحظة الانهيار، وعندما يعود المرء لا يملك

شيئًا، يكتشف أنه أصبح كمن ينزلق على بحيرة من الزيت، وأنه أصبح حرّاً تمامـًا.. قادتني أفكاري كي أنسى هزائمي وأتجدد مع الحياة، وحين تصالحت مع نفسي شعرتُ أني تصالحت مع الحياة أيضـًا.. وعلى ضوء ذبالة شمعة اشتعلت في أعماقي، اتخذتُ قراراً بمواصلة دراستي الجامعية والبدء من جديد.

في البداية تقلَّبتُ في أعمال كثيرة لسد حاجتي وتغطية الأقساط الجامعية، لكن مأساة العمل تكرَّرت بطريقة أقسى مما كانت عليه في عمان.. شعرتُ أنَّ للفقر ألوانـًا مثل شهقات الموت، ولحزنه أبجديات جديدة تطغى على برد الشتاء القارس.

ذات يوم ماطر، وبينما كنت أبحث عن عمل في سوق الخضار قرب ساحة الشهداء، رحت أتخبط في شوارع بيروت المليئة ببرك المياه الضحلة، سارحـًا بأفكاري، دون أن أتنبه لتلك السيارة التي مرت مسرعة، وقذفت بكل قاذورات الشارع على ثيابي.

انزويت جانبـًا، ورحت أنظف ما علق بملابسي من أوحال، مرت دقائق وأنا ألعن حظي العاثر.. قطع حبل استرسالي صوت قريب ينادي «يا حمَّال، أنت يا حمَّال».. نظرتُ باتجاه الصوت، أضاف الرجل «تعال»، نظرتُ حولي، لم أجد أحداً غيري على الرصيف.. غامت الدنيا في عيني، شعرتُ بدوار بحر يلف رأسي، تساءلت في قرار نفسي «ألهذه الدرجة أصبحت حالتي مزرية حتى اعتقد هذا الرجل أني حمّال؟!».. أنقذني الرجل من متاهات أفكاري وأكَّد أنني المطلوب،

تابع آمراً «تعال أسرع».. كالمشدود بحبل تقدمت نحوه. قال الرجل: «كم تريد على حمل هذا الصندوق إلى سيارتي المتوقفة قرب رصيف الشارع؟».

تسمَّرت في مكاني، فكَّرت لحظة قبل أن أجيب، تحطمت كل الكلمات وأنا أتضور جوعاً وأحلم بثمن العشاء، ولا أعرف كيف قلت خمس ليرات!.

حملت الصندوق وتبعت الرجل مثل ظله إلى سيارة قريبة، كنت عاجزاً عن التفكير تماماً، وفي صندوق السيارة الخلفي وضعت الصندوق، قذف الرجل بيدي المبلغ دون أن نتبادل أي كلمة.

في الليل عاودني مشوار القلق، لم يطل بي التفكير، استقر رأيي على متابعة المشوار.. عند الفجر سابقت الباعة باتجاه سوق الخضار، وكاد ينقضي النهار دون أن أسمع تلك الكلمة التي وصمني بها ذلك الرجل نهار أمس «حمَّال».

عند المساء انتابني شعور بأن كل من في السوق يعرف حكايتي، انزويت جانباً ألملم أشلائي، وأحدث نفسي «أريد أن أعيش، أن أخرج من الدائرة المظلمة التي تغلِّف حياتي بالألغاز والحجرات المظلمة.. أريد أن أنعم بالحياة وأشعر بها كما يشعر بها غيري، بصراحة أريد أن أعيش الحياة كما يعيشها الناس».. ورحت أنتظر الأمل من سوق الخضار على الأرصفة وعلى قارعات الطرق.

أنقذني من متاهتي أحد الحمالين، رجل يناهز الستين من عمره، محدودب الظهر بملابس بالية، تعارفنا، جلسنا على قارعة الطريق أمام مخزن جانبي، ورحنا نتحدث عن متاعب الحياة.. قال الرجل إنه نزح عن الجنوب بسبب الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة عليه ليسد رمق أحفاده الجياع، بعد أن سقطت قذيفة على بيته، أودت بحياة ابنه خليل وزوجته، الوالدين لثلاثة أطفال أكبرهم في السابعة من عمره.

قطع حديثنا أصوات طلقات نارية.. لذنا بالفرار، وانقضت ثلاثة أيام قبل أن نلتقي ثانية في نفس المكان.. كانت الإذاعة قد دعت الناس للعودة صباح ذلك اليوم إلى ممارسة أعمالهم اليومية، موضحة لهم الطرق السالكة والآمنة.. شاهدته جالسًا قرب أحد المحلات يذرف الدموع.. قال إن حفيدته الصغيرة توفيت ليلة البارحة، لأنه لم يستطع عرضها على طبيب بسبب الاشتباكات التي كانت تدور قرب بيته.. وأنه أودعها الثرى في الليل أثناء استراحة المتقاتلين.. وأضاف: «لم يعد لنا حياة في بيروت، وإذا كان لا بد من الموت، فالموت في الجنوب أشرف من الموت بالرصاص الطائش بين المتحاربين في بيروت».. ولم تمضِ ساعة زمن حتى طلب أحد المتسوقين منه أن ينقل عدة صناديق من الخضار إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث أوقف سيارته.. أجال أبو خليل بناظريه بيني وبين الصناديق وقال: «إنها رزقة العيال».

حمل ثلاثة صناديق على ظهره، بينما حملت صندوقين بين

ذراعي، وقبل أن نجتاز الشارع دوَّى انفجار عنيف في نهاية الشارع، تبعه زخات متقطعة من الرصاص.. اندفع الناس يهرولون ويتراكضون.. أسرع أبو خليل يجتاز الشارع، فجأة علا نفير حافلة مسرعة تقترب منه، صرختُ أحذِّره، لكن القدر سبق الحذر، تطايرت الصناديق، قُذفت وسط الشارع، تبعثرت محتوياتها، ووقع أبو خليل فاقد الوعي بين عجلات الحافلة التي توقفت وسط الشارع.

توالت الطلقات، هرول الناس في كل اتجاه، وضعت الصندوقين على الرصيف وأسرعتُ نحوه، صرختُ عليه، لم يبد أية حركة، كان ممدداً، وجهه يلامس العجلة الأمامية، ويده مسحوقة تحت نفس العجلة والدماء تنزف منها.. نظرت إلى السائق، شاهدته متسمرّاً خلف مقعد القيادة وكأنه فقد وعيه هو الآخر.. بدا وجهه شاحباً باصفرار الموتى، أسرع أحد المارة وقال له: الرجل بخير، عد إلى الوراء قليلاً..

تحرك السائق على مقعده وحاول استعادة قواه العقلية والجسدية، انطلقت زخات جديدة من الرصاص باتجاه المتجمهرين، سقط جريح، تعثرت امرأة وسقطت أرضًا، ركض الجميع في كل الاتجاهات طالبين النجاة بأرواحهم، وتحركت الحافلة ببطء شديد..

لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، أغمضتُ عينيَّ، أذكر أني سمعت صراخًا، وصوت يقول للسائق «توقف، توقف».. لكن الحافلة لم

تتوقف، وبدلاً من أن تعود إلى الوراء، تقدمت ببطء شديد إلى الأمام، ثم انطلقت بأقصى سرعة.

حين فتحت عينيَّ، شعرتُ أني محطم، وكأني نمت أسبوعـًا على كومة من المسامير الحادة، وقبل أن أرفع رأسي شعرت بوخز حربة بندقية تمتد إلى صدري، وصوت يقول «أعطني هويتك».

نظرت إلى أبي خليل، كانت جثته مغطاة بكيس من الخيش.. أحسستُ بسفينتي تغرق، وأيقنت أن موجة القتل باتت على الهوية في لبنان.. أمرني المقاتل بالوقوف قرب الحائط أمام حملة السلاح الملثمين، غشيت عيناي، ولم يعد غير مشهد حطام الحياة يخترق ذاكرتي، وفي أعماقي كانت جمجمة صلبة تُسحق تحت عجلات القدر، وهي تحلم بالعودة إلى الجنوب.

***

(١٢)

قادتني ظروف العمل بعد ذلك اليوم لرفع مواد بناء إلى سطح بناية مكونة من ستة طوابق.. ما زلت أذكر ذلك اليوم جيداً.. كانت الساعة الواحدة ظهراً والعمال يستعدون للتوقف عن العمل لتناول طعام الغداء.. فجأة هوى أحد العمال الوافدين من الطابق الثالث على كومة الرمل الناعمة الموجودة أسفل البناية، وقد دُفن حتى وسطه.. ركض العمال وتجمعوا حوله، فتح العامل عينيه وقام ينفض الغبار عن وجهه، بعد دقائق حمل كيس الرمل على ظهره ثانية، وعاود الصعود الى سطح البناية.

تلك اللحظة، كنت نازلاً عن سطح البناية عندما التقيته في نفس المكان الذي سقط منه، قلت له «الحمد لله على سلامتك، كيف وقعت يا رجل!». تنهّد العامل وقال «وقفتُ أستريح هنا، ولا أدري ما حصل لي بعد ذلك».. كان يتحدث ويحاول أن يضع الكيس على بسطة نافذة الدرج ويصف ما حدث له تماماً... فجأة وقبل أن يتم كلامه، اختلَّ توازنه وسقط ثانية إلى نفس الموقع.. وعندما نظرتُ من الأعلى، شاهدت العمال يتراكضون نحوه من جديد، ويحملونه بعد أن دُقَّ عنقه ومات.

بعد ذلك اليوم لم أعد للعمل في البناية، كما أني لم أقبض أجرة

يومي، ولسنوات طويلة ظلَّت الحادثة ماثلة أمام ناظري، متمنياً في قرار نفسي لو لم ألْتقِ بالعامل ذلك اليوم ولم أوقفه تلك اللحظة!

انقضت أيام ثلاثة وأنا سجين غرفتي، وقريبي الذي يقاسمني المبيت في الغرفة منذ قدومه من عمان قبل أكثر من شهر، لمواصلة دراسته الجامعية، يدفعني للعمل والحياة ثانية، فهو معروف بحسن خلقه وأخلاقه وتشيُّعه للدين، إنسان مستقيم عابد ومتديِّن، ومنذ أعوام طويلة - كما أعرف عنه - لم يقطع فرضاً ولم يترك سنَّة في صلاته مهما كانت الظروف، وعندما يحين موعد الصلاة كان يُسرع لأقرب مسجد حتى لا تفوته صلاة الجماعة.. تلك الليلة ذكَّرني أن الأعمار بيد الله، وأني لم أكن السبب في موت العامل، ونصحني أن أغوص في صفحات الكتب، وأسبح في المحاضرات الجامعية قبل أن يدفعني تيار الضياع وأغرق ندماً في متاهات الحياة.

قريبي كان على قناعة تامة أن تيار الثورة القادم سيجتاح المنطقة بأكملها، لكنه لم يكن يأبه كثيراً للسياسة، ولا يهتم بما يحدث خارج محيط كتبه الجامعية، شديد الحرص على مصالحه الشخصية، ودائماً يحمل ما يملك من نقود في جيب خاص تحت إبطه الأيسر، صنعه خصيصاً لهذه الغاية.. وعندما كنت أطلب منه بعض النقود لحاجة ماسة، يحلف الأيمان الغليظة أنه لا يملك شيئاً؛ مما يثير دهشتي واستغرابي ويدفعني للصمت، وأنا أرى تحوله المفاجئ في بيروت.. ولم يكن يأكل في أي مطعم، كان يشتري حاجياته القليلة ويطبخها في

البيت، فأشاركه في الطعام بحجة أن الأغراض ملكي، فيتقبَّل الأمور على مضض.

رفيق غرفتي كان يجلس في الغرفة ويقضي الساعات الطوال يتصفَّح كتب التاريخ، ويقول «إن العرب لم يقرؤوا التاريخ ولم يفهموه جيداً».. وعندما يجمعنا الليل، يحتضن كل منا كتابه ويعيش عالمه الخاص.. نتحدث بصمت، ويتأفف كل منا للآخر.

ذات ليلة تأخر قريبي عن البيت بلا سبب، تلك الليلة طغى غيابه على كل الأحداث، وحين لم يظهر في الصباح أيضاً، اندفعتُ إلى باحة الجامعة وقاعاتها أبحث عنه، لكني لم أجده.. عند المساء تواردت المعلومات أنه محتجز لدى أحد فصائل المنظمات، وعرفتُ أنه اعتقل في أحد بيوت الدعارة قرب ساحة الشهداء مع شخص آخر، متهم بالتجسس لصالح فئات معادية لذلك الفصيل.. وحين قابلته بدا خائفاً ومرعوباً، واعترف بوجوده قرب ذلك المكان، لكنه أنكر معرفته بالمتهم الآخر، وقال إنه «مظلوم» ولم يفعل شيئاً يستحق عليه الحجز وهذه المعاملة والمبيت في زنزانة انفرادية وكل هذا التحقيق.. وطلب مني أن أحفظ سرَّه وأنّ ما قيل عنه باطلاً.. وأضاف أنه لا يعرف كيف دفعه الشيطان للمرور قرب ذلك المكان حيث ألقي القبض عليه، ولا يعرف بحكاية المتهم الآخر إلا أثناء التحقيق معه.

في سواد ذاكرتي، احتفظت بسر قريبي وتظاهرت بتصديقه.. مما

دفعني للتوسط له والإفراج عنه، رغم اعتراف فتاة الليل أثناء التحقيق معها، أنها شاهدته يتردَّد على المكان أكثر من مرة.. وفي البيت واجهته بحقيقة الفتاة التي اعترفت بمعرفته حق المعرفة، كما اعترف بعض الشهود بوجوده هناك، ومع أنه دافع عن نفسه وأنكر فعلته، إلا أنه اعترف أخيراً، وبرَّر فعلته بأنه حاول أن يمارس حقَّه في الحياة كأي شاب وحيد ومخذول في مدينة تدفع المرء بجمالها إلى الخطيئة.. لكن ما آلمني كثيراً أنه كذب، وتخفَّى بفعلته خلف عبادته، وأخذ يلعن الشيطان، وكأن الشيطان هو الذي دفعه لمثل هذا العمل!

في الأيام الثلاثة التالية اعتزلني وغرق في القراءة الصامتة، كان يُقلِّب الصفحات ويعود ليفتح كتاباً بعينه، ويغيب لساعات وهو يتمعَّن إحدى صفحاته.. وهذا ما أثار انتباهي عندما غافلته أثناء إعداده للقهوة، وألقيتُ نظرة على ما كان يتصفَّح.. وكم كانت دهشتي عندما شاهدتُ صورة فاضحة لفتاة عارية يخفيها بين صفحات الكتاب!، وعندما شاهدني أمعن في الصورة، أنكر معرفته بها وثار، وتساءل: «كيف تحتفظ بمثل هذه الصور الخليعة في بيتك؟!». وتمتم «أستغفر الله العظيم، اللهم إنَّا نتوب إليك فاغفر لنا».

ليلتها لم ينم في الغرفة.. افتعل مشاجرة كلامية معي، لملم حاجياته وكتبه في حقيبة، وغادر الغرفة دون وداع.

ذات يوم وأثناء عودتي إلى البيت، توقفت عند أحد باعة الخضار المتجولين لشراء بعض الأغراض، وكثيراً ما كنت ألتقيه في محيط الجامعة.. «يوسف» شاب فلسطيني في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، يعمل بائعًا متجولًا للخضار على عربة بثلاثة دواليب يدفعها أمامه.. دار بيننا حديث طويل عن العمل والمعاناة والكفاح المسلح والمخيمات الفلسطينية المقهورة، وعن حاجتي للعمل، واستعدادي لجرِّ عربة الخضار بدل دفعها أمامي ليتسنَّى لي دفع أقساط الجامعة.. أبدى استعداداً لمساعدتي، وفي صباح اليوم التالي اندفعتُ بعربة خضار جديدة إلى مخيم البرج بعد أن ملأ يوسف العربتين بالبطيخ.. وقبيل الظهيرة عدنا فرحين بما كسبنا ذلك النهار.

توالت الأيام، وتنوعت البضاعة من بطيخ إلى شمام إلى بندورة إلى غير ذلك مما يحتاجه المخيم، والنسوة يُقبلن بفرح ويشترين مني، وما إن أبيع ما في عربتي حتى يأتيني يوسف ويعطيني ما تبقى لديه من خضار أو فواكه، ويطلب مني الانتقال إلى زاوية أخرى.. وقد عرفت فيما بعد أن يوسف سرَّب لزبائنه معلومات تفيد أني رجل عصامي، أعمل لتغطية تكاليف دراستي الجامعية؛ فيتعاطفون معي ويشترون حاجاتهم مني، بينما يأتيني بعد ساعات قليلة، ويعطيني ما في عربته ليسهل بيعه.

تكرَّرت الأيام وتكرر العمل بهذه الطريقة، وحين لا نجد خضاراً،

كنا نملأ العربتين بالبيض ونتجول بين البنايات العالية في أحياء بيروت، ويوسف ينادي بأعلى صوته «بيض بصفارين، بيضاتنا كبار»، وبعض النسوة ممَّن يسكنَّ في الطوابق العليا يطلبن طبقاً أو طبقين، فيحمل الأطباق ويسرع إلى الأعلى، بينما أنتظره بالساعات أحياناً أحرس له عربته، وعندما يعود، تبدو عليه علامات الإجهاد والتعب، ويطلب مني أن آخذ دوري لأكتشف التعب الذي يلاقيه مع النساء في الطوابق العليا.

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء عندما قررنا ذات يوم العودة من العمل، وما زال لدينا بعض الأطباق من البيض، في الطريق سألته عن سبب تأخره في الزواج، قال إنه يقيت أسرته المكونة من والديه وأخواته الأربع، وأضاف أنه عزف عن فكرة الزواج بعد أن عرف حظه السيئ بعد مقابلته لفتاة اعتقد أنها فتاة أحلامه.. وعندما طلبتُ منه إيضاح الأمر، تنهد وأخذ يسرد حكايته، قائلاً بأن هذا القلب، ابن الكلب، الذي يخفق بالحياة «وربت على صدره» اكتشف منذ مدة أن حياته تنضح بالفشل.. أضاف بأنه قبل أكثر من عام كان يعمل في بيع الخضار في السوق المركزي قرب ساحة البرج.. قاده سوء طالعه إلى ساحة رياض الصلح ليشتري علبة دخان.. كانت المحال التجارية مغلقة، وكان بأمسِّ الحاجة إلى سيجارة.. شاهد فتاة بعمر الزهور تجلس على مدخل بناية تبيع الدخان والعلكة على بسطة صغيرة.. توقَّف عندها، فجأة انطلقت زخَّة رصاص، أسرع إلى

الداخل واحتمى قرب مدخل بناية، بينما بقيت الفتاة مكانها لم تحرك ساكناً ولم تأبه للرصاص، أخذتْ تراقب حركته المفاجئة وتبتسم، ولم يبد عليها أي أثر للخوف، وعندما طلب منها الاختباء، ضحكتْ وقالت إنها محصَّنة ضد الرصاص وتتحدَّاه أن يقترب منها.. بعد أن هدأ إطلاق النار قالت إنها تعوَّدت على تساقط الرصاص بعد أن أصيب بيتهم قبل أكثر من عام بقذيفة أودت بحياة والديها، وأنها تأتي كل يوم إلى هذا المكان تبيع العلكة والدخان لتعيل إخوتها الصغار.

أمامها، تلك اللحظة، تضاءل يوسف وصغر كثيراً «كما قال»، وقرر أن يزورها يومياً ليبتاع الدخان منها مهما كانت الظروف، وهذا ما شجَّعه في الأيام التالية للتَّودد لها والتقرب منها، وعندما حاول أن يعطيها مبلغاً زائداً عن ثمن العلبة، ردَّته بإباء وقالت إنها لا تتسوَّل، لكنها تكسب قوتها بعرق جبينها.

تلك اللحظة، «أضاف يوسف» بأن «ابن الكلب» هذا الذي يدق في صدره رفَّ بجناحيه، وحاول أن يحتضنها ويضمها بين الآهات والضلوع، لكن تلك لم تكن سوى رغبة مريض في ميت.. ومع ذلك لم يتردد حين أبدى لها رغبته في الزواج منها، ابتسمتْ وقالت «أنت تمزح».. لكنه أكَّد لها أنه جاد في كلامه، فقالت بمرح يخفي تحت قشوره حسرة إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً في الحياة، ولا تعرف غير بيع العلكة والدخان.

قال لها بأنه يريدها ربة بيت فقط، فأجابت أنها لا تستطيع الطبخ ولا الغسيل أيضـاً.. وعندما سألها عما تتقن عمله في البيت، ابتسمت وقالت: «أعرف فقط النوم على السرير، فإذا وافقت على شروطي فأنا جاهزة».. أخبرها أنه لا يريد غير ذلك، وأسرع إلى البيت في محاولة لترتيب أوضاعه والخروج من نفقه المظلم.

يومئذٍ اعتقد أنه انتصر على اليأس والموت وتعاسة الحياة، لكن لحظة الفرح لم تدم، فقد تفاقمت الأزمة واشتد القتال.. دارت معارك جانبية وطاحنة في السوق التجاري وساحة الشهداء وساحة رياض الصلح بين المتقاتلين، ولم يستطع الوصول إلى مكانها إلا بعد خمسة أيام.. كانت البنايات قد تهدَّمت وحجارتها أصبحت أرصفة.. ممراتها الخلفية صارت أزقة تقود إلى الجحيم والموت.. أبنية المكاتب، دور السينما، المراكز الثقافية، الدكاكين الصغيرة والأسواق التجارية كانت كلها منسوفة ومحروقة.. كانت الدماء وآثار الجثث الممزقَّة تُلوِّن الجدران والساحات العامة، ولم يعد لتلك الفتاة التي لا يعرف لها اسمـاً أو عنوانـاً أي أثر أو وجود.

ثلاثة أشهر مرَّت مثل ثلاثة قرون «أضاف» قبل أن يشاهدها ثانية تجلس قرب مقهى مقابل جامعة بيروت العربية.. لم يصدِّق عينيه، واندفع يمدُّ يده لها مصافحـاً.. رفعتْ بصرها نحوه وبدتْ كأنها نسيته تمامـاً، ثم ابتسمت ومدَّت يدها، لكنها لم تتحرك من مكانها، وبقيت محافظة على جلستها السابقة تُغطِّي ساقيها بقطعة قماش بيضاء.. قال

لها بأنه قلق عليها.. فقالت دون أن تنظر إلى وجهه «عُمْر الشقي بقي».. وعندما ذكَّرها بما اتفقا عليه سابقـًا، قالت إنها نسيت الحكاية، واعتقدتْ أنه كان يمازحها ويحاول تفريج كربها، وحين جدَّد رغبته بها، ظهرتْ مسحة من الحزن على وجهها وقالت «أنا لا أنفعك، اذهب وابحث عن غيري»، وتشاغلتْ بترتيب علب الدخان على بسطتها الصغيرة.

أضاف يوسف "لم أنم تلك الليلة، بقيت طيلة الوقت أفكِّر بها، في الصباح أسرعتُ إلى مكانها، لكنها لم تكن قد وصلت بعد.. اتخذتُ مقعداً جانبيـًا على المقهى القريب وجلستُ أنتظر قدومها.. بعد أكثر من ساعة توقفتْ سيارة أجرة صغيرة، وترجَّل منها ولدان لا يتجاوز أكبرهما العاشرة من العمر.. فتحا صندوق السيارة الخلفي وحملا بسطة الدخان ووضعاها في المكان المعد لها، ثم عادا وفتحا باب السيارة الجانبي حيث تجلس الفتاة، وساعداها على النزول، ثم حملاها بين أيديهما وأجلساها على المقعد خلف بسطة الدخان الصغيرة.. عدَّلتْ الفتاة من جلستها وغطَّتْ ساقيها بقطعة القماش البيضاء، وتشاغلتْ بترتيب علب الدخان على البسطة، بينما غادرت السيارة بالولدين.

عيناي لم تُصدِّق ما رأت، بقيتُ لدقائق مذهولاً!.. حملتُ نفسي واقتربت منها، قالت: لمحتك على المقهى ترقبني، هذه حقيقتي التي

غابت عنك.

سألتها «منذ متى؟». قالت «منذ أن سقطتْ إحدى القذائف علينا، مات والداي وأُصبتُ أنا بشظية، وفي المستشفى عرفتُ أني سأعاني عجزاً مدى الحياة».

عيناي لفَّهما غبش العالم، ضباب، دخان، غازات حارقة اجتاحتني مثل كتل الجحيم.. قذائف من كل الأنواع مزَّقتني.. تعرَّقتُ وانعقد لساني، وانسحبتُ من أمامها ألعن نفسي".

آهات مخنوقة طفحت تلك اللحظة في صدر يوسف وعلى وجهه، صمت لحظة.. أشعل سيجارة ونفث دخانها بخط مستقيم وأخذ يهذي بكلمات غير مفهومة، قال إن الحياة لم تعد تهمه بقدر ما يهمه أن ينسى سوء طالعه وحظه في الحياة، وتمنى لو يفقد ذاكرته لينسى بائعة الدخان وهي تتحدَّى الرصاص، وتتمنى الموت للخلاص من الحياة..

قطع حديث يوسف وحبل أفكاره صوت زخة من الرصاص انطلقت فجأة من مكان قريب، تلاها طلقات نارية متقطعة.. اندفعت عربة يوسف وارتطمت بعربتي وانقلبت وسط الشارع، صرخ يوسف وسقط وسط الشارع بلا حراك، اندفعتُ واختبأت قرب أحد الجدران، دوَّت طلقة ثانية وسقط أحد المارة وارتطم رأسه بحجارة الرصيف، ركض المارة في كل الاتجاهات وهم يصرخون «قناص.. احذروا القناص، إنه فوق العمارة، لا إنه في أول الشارع» لا يعرف أحد

من أين يأتي الرصاص من الشرق أم من الغرب!.. الرصاص ينطلق من كل الاتجاهات.. النوافذ المطلة على الشوارع تُغلق، الأنوار تُطفأ.. نساء وأطفال يركضون إلى الأزقة، يتزحلقون في أطباق البيض المحطمة، رجال بأسلحة متنوعة يتربصون ويطلقون نيرانهم، وشارع الموت يخلو إلا من عربتين مقلوبتين وسطه، وجثتين لم يستطع أحد الاقتراب منهما إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات، بعد أن تم القضاء على القناص «كما قيل».

يوسف كان جثة هامدة.. تعاون المقاتلون وحملوه في العربة التي كان يدفعها أمامه قبل ساعات قليلة، ونقلوه إلى بيت ذويه.. وحتى ساعات الصباح ظلَّ حملة السلاح يجيئون ويروحون، والنساء يبكين ويتألمن ويذرفن الدموع.. وعند الظهيرة شُيِّع الجثمان إلى مثواه الأخير وسط عاصفة من الحزن والتهديد والوعيد للقتلة.. بينما عدت حزيناً وحيداً أجر أذيال الخيبة إلى البيت.

***

(١٤)

دائماً ذاكرتي تفتقد اللحظات السعيدة، لم تعد تحتفظ إلا بلحظات الحزن والقهر والموت.. حياتي لم تكن مستقرة في بيروت.. تقلبتُ في

أكثر من عمل، ولم أنقد لتيار واحد في الحياة، إذ كثيراً ما كنت أشعر أني لم أخلق لمثل هذا العمل، فأسارع بتركه وأبحث عن مجال عمل آخر، حتى كدت أنسى الهدف الذي أعيش من أجله وأتمناه في هذه الحياة!.

في غرفتي الجديدة التي انتقلتُ إليها بعد لقائي بفردوس، والتي باتت مقرّاً لآمالي وآلامي في بيروت، شعرت بخيبات الأمل تطارد أحلامي.. تنقَّلتُ من عمل إلى آخر بعد أن فقدت صديق عربتي يوسف.. بعد ذلك اليوم عملتُ في ميناء بيروت في منطقة «البور» حيث كنت مع الحمالين أنقل أكياس الطحين أو الحبوب أو الإسمنت من المستودعات إلى العربات، وبالتالي عملت بائعًا للكعك، كنت أحمل فرش الخشب المليء بالكعك على رأسي وأدور في شوارع بيروت، إلى أن تعرفت على عامل دهان عملت معه لعدة أشهر، انتقلتُ بعدها للعمل نقاشـاً في دق حجارة البيوت.. كان عملي يتطلب التنقل من ورشة إلى أخرى، طفت خلالها كل مدن لبنان، لكني توقفت ذات يوم فجأة عن العمل وقررت أن لا أعود إليه، لأنه أنهك جسدي وأبعدني عن حضور المحاضرات في الجامعة.. كنت أتمنى أن أجد عملاً لا ينهك الجسد.. في الليل راحت ذاكرتي ترسم صوراً أحلتها على لوح خشبي إلى لوحة.. يدان مقيدتان بأصفاد.. شعرتُ أنها لوحة تستحق المشاهدة، عرضتها أثناء معرض لرسام موهوب في الجامعة، فنالت إعجاب الكثير من زوار المعرض.. منذ صغري وأنا أهوى الرسم والتصوير، أجل الرسم والتصوير، عششت الفكرة في رأسي.. وجدت نفسي أندفع وأشتري بعض أدوات الرسم لأرسم على الحائط في الغرفة غابة من الأشجار على سفوح جبال شاهقة

تكسوها الثلوج.. رسمتُ بعد ذلك لوحتين على القماش، اللوحة الأولى كانت بالألوان الزيتية، صقر يحلق في السماء وامرأة شبه عارية تتعلق في عنقه وتعانق معه السحاب.. أما اللوحة الثانية فكانت بالفحم الحجري، رجل يتأبط امرأة بثياب شفافة ويحاول الإقلاع بها نحو الفضاء.. وما زلت أحتفظ بهاتين اللوحتين رغم مرور عشرات الأعوام.

صباح أحد الأيام، وبعد أكثر من أسبوع وأنا ألازم البيت، حصلت على كاميرا من أحد أستوديوهات التصوير بعد أن رهنت له جواز سفري، ورحت أعمل مصوراً متجولاً في شارع الزيتون وشارع الحمراء وقرب الروشة.. وفي مناسبات الأفراح والحفلات الغنائية، كثيراً ما التقطت صوراً للمعجبين والمعجبات بالمطربين والمطربات، أمثال عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وصباح ووديع الصافي وغيرهم، أثناء حفلاتهم في بيسين عاليه.. وقبل أن ألتحق بالمقاتلين عملتُ في محل لصنع الحلويات قرب ساحة الشهداء.. كان عملي يبدأ بعد منتصف الليل ويستمر حتى الظهيرة، وعند المساء كثيراً ما كنت ألتقي بزملاء العمل على الشاطئ، بعد حضوري محاضرة أو محاضرتين بعد الظهر في الجامعة.. انتهى بي المطاف بالعمل مدرّساً للصفوف الابتدائية في مدرسة مختلطة في منطقة صبرا.

***

لا أعرف لماذا أحتفظ بتلك المقاطع الموجعة من حياتي! لكني أشعر أنها محملة بِطاقة إيجابية محرضة على التفاؤل والأمل بمواصلة

الحياة.. الحاضر يدفعني للحياة ومواصلة المشوار.. هذا ما كنت أفكر فيه تلك اللحظة، وفردوس تقفز بمرح وخصلات من الشعر تتدلَّى فوق جبينها وهي تدلف البيت عائدة من المدرسة، وتقف قرب النافذة.. ابتسامتها وصفاء وجهها أعادا إلى نفسي الهدوء، شعرتُ أني أراها للمرة الأولى.. أحسستُ أن قُربها تعويذة تحمي صحراء عمري من الجفاف، إنها مرفأي وموَّالي وحريتي، شعرت أني مقيَّد بسلاسل شعرها وأهداب عينيها.. خاصة بعد أن اختفى غريمي «فايز» من حياتي منذ أن التقيته آخر مرة، وعرفتُ أنه تعاقد مع إحدى الدول الخليجية، وغادر بيروت دون أن يراه أحد.

تلك الليلة جافاني النوم.. استلقيتُ على السرير، تراءى لي وجه فردوس وغمرني بهالة من ورود الدنيا وزهورها البرية، قمت وأدرت مفتاح المسجل وعاودت الاستلقاء، انطلق صوت أم كلثوم يشدو بصوت حزين «ياليّ رضاك أوهام، والسهد فيك أحلام».. شعرت أني أطفو فوق سحابة بيضاء.. ثمَّة طلقات نارية دوَّت واخترقت سمعي، طغت على الأغنية وترددت في البعيد البعيد.. حاولت بكل جهدي اقتناص لحظة فرح أملأ بها أجواء غرفتي، استعدتُ وجه فردوس وغرقت فيه.. سافرتُ مع الأغنية وولجت عالم ألف ليلة وليلة، وعدت بفردوس على حصان أبيض مُجنَّح من وسط الظلام.. وعلى حين غرَّة انهالت على ذاكرتي مجموعة من الأسئلة عن نهاية هذه العلاقة وسط التيه والحرب، وحين لم أجد جوابًا أقنع به نفسي، تجاهلت بقية الأسئلة وتركت نفسي تغرق في بحر هواها.

في الصباح بحت لزملائي عما كابدته طيلة الليل، وعن رغبتي

الاقتران بفردوس، فقال أحدهم ساخراً: «لا تورِّط نفسك وتتزوَّج، كلهنَّ بنات آوي».. وقال آخر: «إنت مش قادر تصرف على نفسك، كيف بدك تصرف عليها!».. ومع ذلك وقفوا جانبي.. لكن والدها الذي كان يعرفني حق المعرفة، تردَّد وقال إنه فوجئ بهذا الطلب، وطلب مني أن أمهله حتى يستشير أقاربه.

أيام قليلة مرَّت، قام الأصدقاء خلالها بجمع أكثر من ألف ليرة لبنانية ممَّن يعرفونهم ومن جيوبهم الخاصة.. وكنت أدَّخر مبلغاً من أعمالي الحرة يعادل نصف ما جمعوه، قدَّمته كله مهراً لفردوس قبل أن تتم خِطبتي عليها.. اقتصر حفل الخِطبة على الأصدقاء وعدد قليل من أقاربها، على أن لا يتم عقد القران والزفاف إلا بعد أن أتخرج في الجامعة وأجد عملاً مناسباً، وأفتح لها بيتاً «تتستّت فيه» كما قالت والدتها.

***

(١٥)

صار الأمل سيد الموقف، تغيَّرت ألوان الحياة وصارت بألوان قوس قزح، علاقتي بفردوس قويت وتوطَّدت، ورحت أقضي معظم ساعات فراغي في بيتها.. وكثيراً ما كنت أختلس عيون الرقباء وألوذ إلى سطح بيتها الملاصق لمأوى العجزة من جهته الخلفية، تتبعني

فردوس بعد دقائق تحمل معها فنجاني قهوة أو شاياً ومناقيش زعتر.. نتيه في الصمت قبل أن تلحق بها والدتها متذرِّعة بنشر الغسيل.. والممرضون والمرضى في المستشفى يرقبوننا باستمرار، يُلوِّحون بأيديهم لنا، رغم قربنا من العنابر وغرف المستشفى الذي يعالج بعض المتخلفين عقليّاً.. وما زلت أذكر كيف تجرأ أحد الممرضين ذات ظهيرة وألقى علينا رغيفاً ملفوفاً بقطعة ورق بيضاء من الساحة الخلفية العريضة، وعندما شاهده أحد المرضى، ألقى نحونا بصحن الطعام الذي أمامه، وبعد لحظات تطايرت صحون بقية المرضى الكرتونية بما فيها من طعام، وتساقطت حولنا على سطح البيت، وكأنها مظلات تتساقط من السماء.. وفي الليل كثيراً ما كنت أشاهد المرضى يتبخترون شبه عراة في غرفهم المضيئة وعنابرهم المفتوحة بعضها على بعض.. بعضهم يُربط بسريره، وآخر يقف على مقعد قرب السرير، يتحدث ويُحرِّك يديه، وكأنه يلقي خطبة عصماء، ويزعم أنه نابليون أو هتلر.

***

الخِطبة أصبحت حقيقة، والحب أصبح واقعاً تحت وهج الشمس، فما الحياة غير ابتسامة وأمل، قلت لها ذات مساء بأن تتذكر دائماً بأن سعادتنا في تفاهمنا، كما قلت لها صراحة عن مدى غيرتي عليها، ذكَّرتها بمحاسنها وأني أطفأت جمرات النار في قلبي من أجلها، سعيد لأن القدر أوجدها في طريقي، سعيد برفقتها.. كنت أتحدث وأناملي تعبث بجدائل الحرير في ثنايا شعرها كفراشة تحط على زهرة يانعة.. رأسها الصغير كان يدغدغ أناملي وأنا مغمور بالسعادة.. مثل

زهرة الصباح كانت في عمري، كنز يضاهي كنوز سليمان في نظري.

ذات صباح وأنا في طريقي إلى الجامعة سمعتُ أصوات القذائف تتهادى عن بعد، وطلقات القناصين تشل حركة الشوارع وتحيل الأحياء البشرية المتحركة إلى جثث يصعب الاقتراب منها.. تنبهت إلى القناص الذي يشل حركة الشارع ثانية عندما دوت طلقة قربي وسقط جريح.. عرجتُ إلى طريق جانبي متخطياً منطقة الموت، ووصلتُ الجامعة بصعوبة.

في الجامعة جلست على مقعد في الباحة الخارجية أراجع أوراقي، وأبحث عن نفسي.. تراءت لي لوحتي المفقودة، بدت ملامح وجهها تطغى على حسناوات المدينة.. قمت وتمشيت خارج الجامعة متجاهلاً دوي القصف البعيد، وكأن شيئاً لا يعنيني.

دقائق النهار مرت بطيئة وثقيلة، وأنا أعاني في أعماقي من أثر نزيف حاد.. سفينتي تحطمت وأنا غريق لا أجيد السباحة وسط تيار عالي الأمواج.. أشعر وصرخة هوجاء تجتاح كياني، بأن لا مجال لي بالصمود في هذه المدينة أكثر مما احتملت.. جرحي بدا كبيراً، وحكايتي مع فردوس بدت أكبر مما يتصوره العقل.

الامتحانات تأجلت مرات كثيرة بسبب قصف المنطقة وتأجج الحرب الأهلية، وعامي الدراسي بدا كألف عام.. شارع الجامعة اقتلع كل شيء من الذاكرة، فقدتُ كل أمل يربطني بطريق معبد نحو الصمود أكثر، وضالتي بدت كنداء ملائكي رقراق ينساب مع نبع مياه

صافٍ، وسط عالم ضبابي في فصل خريفي.. كانت الوحيدة التي تبعث بصيص أمل في حياتي، وتدفعني لاستمرارية الصمود.

الثورة الفلسطينية في المخيمات وفي جنوب لبنان أصبحت طوفانـًا، بركانـًا يحرق المناضل قبل المقاتل المأجور.. الكل يتآمر على المقاتلين، إسرائيل تدفعهم نحو الشمال، والكتائب تترصد لهم في بيروت.. كنت أحدث نفسي وأتمشى على مهل.. صورة فردوس قفزت ثانية إلى مخيلتي وقطعت حبل أفكاري المسترسل مع الثورة.. شعرت أن قلبي يتسارع في دقاته وأنا ألهث، حياتي بدت حلقات متسلسلة من المفقودات، ومجهولة الهوية.. صورتها لم تفارقني وأنا أندفع مع زملاء لي للتدريب على السلاح والدفاع عن الثورة، بعد أن تأجلت الامتحانات مرات عديدة.. فردوس، تلك الفتاة التي تحنطت في مؤخرة رأسي، وأخذت تطاردني بين فترة وأخرى، كانت ملاذي الأخير، حلمي المبتور، ملاكي الذي أحببتُ كل عضو فيه بطريقة تقترب نوعـًا ما من العبادة الصوفية.. فرغم محاولاتي اليائسة لنسيان صفحة وجهها أثناء التدريب، إلا أنها دائمـًا كانت تتراءى لي عن بعد كلوحة فنان أسطورية، يجسّد جمال الخلق على صفحات الكتب وبين السطور.

تغيير طفيف بدأ يعلن عن وجوده في حياتي مع فردوس، بعد أن عاد قريبها من سفره، والتحقتُ أنا برجال المقاومة.. اعتقدتُ أنها أمسكتْ بطرف الخيط وتأكدت من حصولها على زوج المستقبل، بعد أن غبت عن البيت لمدة تزيد عن الشهرين، فبدأت تغيِّر لونها.. شعرتُ أنها

بدأت تتعمد جرحي أثناء زيارتي لبيتها، وهي تحدثني عن قريبها الذي كان جاهزاً للزواج منذ عودته من سفره.. في قرار نفسي كنت أشعر أنها تذكي نار الغيرة في قلبي، لكني أقنعتُ نفسي أن هذا التغيير سببه الحقيقي لتزيلني من طريقها، وتفسح المجال لقريبها بأن يتقدم لها، بعد أن أيقنتْ طوال العامين الماضيين من الفقر الذي ستعيشه في المستقبل معي.. أحسستُ أنها تزيل أولى العقبات من طريق حياتها، وتُسرِّع عقرب الزمن لوضع نهاية لعلاقتنا التي باتت على شفير هاوية، ولا أدري لمَ شعرتُ تلك اللحظة أنها لن تكون لي، ولو أفنيت حياتي بحبها!..

قالت لي تلك الليلة «ليس لعلاقتنا نتيجة»، لم تجرؤ وتقل «حبنا»، شعرت أنها لم تقتنع بحبي، كانت رغبة بالزواج من جانبها وحبّاً من طرفي، لكني تعاميت ورفضت أن أسمع المنطق في كلامها.. كنت مرغماً ولم أقوَ على سماع الحقيقة.. تلك الليلة استمطرتُ دموعاً على أيامي التي ضاعت هباءً منثوراً، ومع ذلك تشبثت بالأمل وتناسيت الواقع.. كنت أرى النهاية تزحف نحو علاقتنا وأتجاهل، أخلط بين السراب والواقع، الواقع يدفعني إلى فسخ الخطبة وكلمة وداع.

طيلة الليل، بقيت أتقلب على الفراش وطائر الفراق يحوم حولي.. شعرت أن فراقها قهْر يسافر في عروقي كموال يسكنه وجع الشوق.. تمرَّدت دمعة في مقلتي وحوَّلت غبش عيني إلى غيوم مليئة

بمطر مالح، غيلان مخرت في شراييني تلك الليلة وحرقت جسدي.. صباح اليوم التالي كنت مزمعــًا على الرحيل من منطقة صبرا، فوجئت بها تقف عند الباب بوجه مبتسم، وتغلق طريق خروجي من الغرفة، خِلت أن نجمة الصبح عادت لينفلق الفجر ويشق النور طريقه إلى قلبي، لم تقل الكثير مع ابتساماتها التي غرست الأمل في قلبي، قبل أن تودع قصاصة ورقية في يدي، وتدلف بيتها على عجل.

في الغرفة رحت أقرأ رسالتها: «حبيبي، كم كنت غبية إذ صددت طريق حبك الذي بت أسيرة له! لا أعرف كيف أبرهن لك عن مقدار هذا الحب، أنا أحبك أحبك، أنت الوحيد المتربع على عرش قلبي، أنت حبيبي الذي أدعو وأبتهل لربي أن يحفظه ويديمه لي».

توقفتُ عن القراءة، أغمضت عينيَّ وهمست «سامحك الله يا حبيبتي».. وفي قرار نفسي تساءلت: ألا تعرف فردوس أن قلبي يتسع لكل آهاتها! أنا إنسان عشق الأحلام والأوهام في دياجير الليل وفي ضوء النهار، أحببتها فأحببت الحياة أكثر، هي من غنت لها أم كلثوم «ياللي رضاك أوهام والسهد فيك أحلام».. إنها أحلامي، تمنيتُ أن تكون أمامي لترى هذا العابد المحب الذي يحافظ على حبه بقدر ما يحافظ على نفسه، ويتمنى لها السعادة السرمدية.

كدت أطير فرحــًا، أعادت بكلماتها الروح لجسدي.. قبل عامين لم أكن أؤمن بالحب، كانت أي فتاة في رأيي مجرد أنثى في طريق عابرة، أما اليوم وبعد أن تحول الجماد في أعماقي إلى عاطفة، فأشعر أني وجدت نفسي وولدت من جديد.. ها نحن نعيش عامنا الثالث بعد

لقائنا الأول، ثلاثة أعوام مرت وكأنها يوم واحد، تطول السعادة فيه حتى أشعر أن لا نهاية له!

تابعت القراءة «ومع أني أدعو الله أن يديم هذا الحب، إلا أن لي كلمة عتاب.. فلم أعرف منك سوى الكبرياء والقوة، تعاملني كأنك أستاذ وأنا فتاة جاهلة، دفعتني للخوف منك ومن المجتمع ومن مستقبلي، حتى بت لا أعرف كيف أتصرف، ولا كيف أعيش.. هل أنا عدوتك! أظن أني حبيبتك.. لهذا سأكتب لمن يهمني أمره، أنت لست إنساناً عاديّاً في حياتي، أنت الإنسان الذي أحببته من كل قلبي.. تقول إني فتاة ناقصة وقليلة عقل، فشكراً على هذا الشعور نحوي، لكني أؤكد لك أني كتلة من العواطف والمشاعر، ولست حقيرة أو أنانية كما تعتقد، أنا فتاة محافظة.. أما من ناحية المادة، فسأذكرك بأن خِطبتنا تمت رغماً عن الجميع، لكن والدي لن يوافق أن أتزوج بلا حفلة زفاف، فهذا واجبك، ولا حق لك به على عائلتي.. هذه التقاليد والعادات.. والدتي تعرف أنك إنسان فقير منذ البداية، كما تعرف أيضاً أنه لا يحق لها أن تبيع ابنتها من أجل المال، أنت تعرف أنه لم يبقَ أمامك سوى عام واحد للتخرج في الجامعة، وعليك أن تسعى وتدرس الموضوع جيداً قبل حفل الزفاف، أنت من قلت لوالدي إنك ستدفع المصاريف وتجهز البيت، أم أنك تريد من والدتي أن تدفع عنك كل شيء وتجهز لنا بيتاً، وتقول لك تفضل؟!.. لو كنت أحاسب أحداً فلن أحاسب غير الرجل الذي اعتمدت عليه وسلمته قلبي ومستقبلي، أما أنا فعلى استعداد أن أعيش معك على حصيرة، على أن

أخرج من بيت أهلي بشرف مرفوعة الرأس، أنا لا أسألك عن العمل من أجل هدية.. أنا أحثك على العمل من أجل كتب الجامعة والأقساط الجامعية حتى تتمكن من التخرج، أنا اخترتك فقيراً وليس غنيّـًا، فالغنى غنى النفس والروح، وأنت أعز من روحي.. أنت غني بعقلك وقلبك ورجولتك وأخلاقك، ونادراً ما تجد فتاة على سطح الأرض رجلاً بمثل هذه الصفات.. دعنا نَعِش بقلب واحد ونحو هدف واحد.. أما من حيث من تغار منه، فقد وعدتك أن لا أتحدث معه، وما زلت عند وعدي، أنا أعرفه قبل أن تدخل حياتي، ولم يتبادر إلى ذهني أن أحبه يومـًا ما، بل أحببتك أنت فقط.. أما إذا كنت مصرّاً على كلمة وداع، فلن أنسى يوم لقائنا الأول، ولن أنسى التجربة القاسية التي مررت بها.. سامحني يا رب، لقد سلمتك أمري، ولم أكن أعرف أن الإنسان يخدع ويخون إلى هذا الحد.. صحيح أن فترة جافة مرت بيننا، لكن هذا الجفاف لم أعتقد أنه ألهمك كلمة الوداع والرحيل.. أترحل لتبحث عن حياة بلا روح، وبلا أمل.. أتتركني للضياع والهلاك والأحزان والدموع بعد أن سرى حبك في دمي.. أتتركني للعيون الغادرة والألسن التي لطالما احتميت منها وراء قلبك الكبير وحبك العظيم؟! لا أعرف كيف سيأتي الغد وأنا وحيدة.. كيف ستعيش الزهور بلا ماء يرويها!.. لن أطيل، فدموعي وحدها ستكمل الحكاية إذا رحلت».

بعد أن قرأت رسالتها التي غرستها بين جوانحي وهربتْ من نظراتي.. شعرتُ أن كلماتها أضاءت ظلمات قلبي، وتفتحت عيناي

على الجوانب المظلمة في حياتي.. لم أكن أعرف وجهة نظرها وما يختلج في صدرها.. لكنها عادت إليَّ بعد نأي، وزرعتْ الأمل في قلبي من جديد.. ربيع تجدد، ومطر تناثر كاللؤلؤ، دعوة لنسيان الماضي وتجدد مع الحياة.

***

(١٦)

أصوات القذائف لم تهدأ يوماً في بيروت، وطلقات القناصين تشل حركة الشوارع وتحيل الأحياء البشرية المتحركة إلى جثث يصعب الاقتراب منها.. زخات من الرصاص تُبحر وتستقر في عباب الجماجم.. العالم أصبح صغيراً وجحيماً، الجدران ترنحت وأصبحت أرصفة وممرات، الأحياء الهادئة والمغلقة أصبحت جبهات مفتوحة ومتداخلة لقتال ملعون، والفجر بدا بعيداً بعيداً.. أحسستُ بشيء ما يتمزق في أعماقي، وبدت الثورة التي انتميتُ إليها نقمة في حياتي.. ملعونة هذه الحرب التي أجبرتني على الإبحار في خضمها حتى أصبحتُ قرصاناً!.. الثورة علمتني كيف أرفع سلاحي في وجه من أحب وأقتله إن كان خصماً للثورة!.. أقهقه عالياً، أمشي في جنازته، ثم أعود إلى البيت وأتقبل التعازي نيابة عن ذويه.. ملعونة هذه الحرب التي أصبحت هوَساً ولعنة!

«حياة صعبة تعلمت منها الكثير.. تعلمت من المجتمع كيف أجتاز الحياة في الأوقات الصعبة.. ومن العمل والشوارع تعلمت كيفية الصمود في وجه العواصف.. ومن الجامعة تعلمت كيف ألج المستقبل باحترام.. فردوس أعادت لي الثقة بنفسي ودفعتني للهدوء والاستقرار وأمدتني بالحياة.. أما الثورة فقد علمتني أن الموت في سبيل الوطن حياة».

كنت أحدث نفسي وأقبع خلف متراس أدافع عن مخيم شاتيلا من

غزو محتمل من قوات الكتائب عليه، فجأة انقلب المتراس الذي أحتمي خلفه رأساً على عقب، عندما سقطت قربه قذيفة بعيدة المدى.. وجدت نفسي أطير في الهواء وأرتطم في كيس رملي يبعد عدة أمتار.

كنت أطلق النار وأركض بكل الاتجاهات، أفر من الموت إلى الموت وحملة السلاح يتقدمون ويطلقون النار، الطلقات تلاحقني وأنا أواجه الموت وأدافع عن المخيم، أعرف أني لن أموت بسهولة وبيدي طلقة واحدة، لكن الرشاش أصبح قطعة حديد تافهة بعد أن فرغت منه الذخيرة، أصبحت عاجزاً تماماً عن الحركة.. كانت الدنيا تظلم رويداً رويداً في عيني، وزخات الرصاص تتساقط عند قدمي.. أصوات تقترب، مقاتلون يتقدمون، وفجأة انهالت أكعاب بنادق على جسدي غيَّبتني عن الوجود.

حين صحوت، وجدت نفسي في غرفة مظلمة بين ثلاثة أشخاص يتأوهون ويئنون.. سألت أين أنا؟ لم يجبني أحد.. الغرفة باردة ومعتمة، والهدوء يعم المكان.. سألت ثانية حين لم أسمع أصوات الطلقات إذا كان القتال قد توقف؟ فقال أحدهم: كيف نعرف ونحن في قبو مظلم تحت الأرض منذ سبعة أيام؟!.

لذت بالصمت، مرت بذاكرتي عشرات الأسئلة.. قطع آخر حبل أفكاري وقال: جاؤوا بك مساء البارحة.. ماذا فعلت لهم!؟.

سألت: من الذين جاءوا بي؟ أنا لا أعرف شيئاَ!.

فُتح الباب فجأة.. دخل أحدهم يحمل مصباحـًا.. كان يرتدي زي المقاتلين.. توقف قرب الباب، تبعه آخر طويل بأكتاف عريضة.. استطعت أن أتبين ملامحه على ضوء المصباح.. وجهه يميل إلى السمرة وشارباه غليظان.. بدا وجهه مألوفـًا لي.. صرخ فجأة: قف..

تنفيذاً لأوامره وأنا أحاول الوقوف.. تقدم مني ببطء.. فجأة لوَّح بساقه وقذف بها في بطني، ثم انهال على رأسي وباقي أجزاء جسدي بضربات فجائية عنيفة وقوية، لم أستطع خلالها الدفاع عن نفسي، ولم يعطني فرصة التساؤل عن السبب.. سمعته يطلب حبلاً وأنا أتكور في الزاوية المعتمة، أتلوى من شدة الألم الذي أصابني في وجهي وبطني.. شعرت أن نزيفـًا حادّاً يقطع أوصالي، والدماء تسيل من أنفي.. دخل آخر وفي يده مجموعة من الأسلاك النحاسية المجدولة.. تناولها ذو الشاربين ونظر نحوي قائلاً: الآن أخبرني، لمصلحة من تقاتل وتتجسّس؟.

مفاجأة السؤال كانت ألعن وأشد من وقع الضربات.. نظرت إلى السجناء الثلاثة، حاولت الاستفسار، أضاف: أنا أسألك أنت يا ابن الـ...، لماذا لا تجيب؟.

كنت مشدوهـًا، ماذا يقول! لا أعرف إذا كان يقصدني بالذات.. لم أفهم شيئـًا.. لوح بما في يده وضربني بمجموعة الأسلاك على رأسي.. شعرت بألم حاد، سالت الدماء على وجهي، قلت: لا أعرف ماذا أجيب!.

كان يتكلم بغضب شديد وينهال ضربـًا على كل ما تطاله يداه من

السجناء أيضـًا: يا كلاب، كلكم ستموتون يا جواسيس.. بيديه كان يضرب، بقدميه، عض أحدهم من أذنه وقطع جزءاً منها.. تطايرت أسنان آخر على أرضية الغرفة، فتحت ثغرة في وجنته وبدأ الدم يتدفق كينبوع.

تكوّمنا فوق بعضنا البعض لا نلوي على شيء.. خرج وصفق الباب خلفه، وقبل أن يتفوه أحدنا بكلمة، سمعته يأمر الحارس بأن يقيدنا ثانية.

مثل جيف متقيحة كنا نحن الأربعة.. قيد أيدينا إلى الخلف بأسلاك رفيعة حادة، ثم قيد ساقي بحبل طويل ربطه في سقف الغرفة، وبدأ يسحب من الطرف الآخر، وأنا أنسحب على الأرض وعلى وجهي، وحين ارتفعت ساقاي كادتا تلامسان السقف، والألم يمزقني من كل جانب.. ربط الحبل وتأكد من عقدته، ثم غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه، بعد أن تركني معلقًا في السقف كذبيحة.

تلك الليلة توقف الزمن.. دقائق الليل بدت ساعات طويلة وقاتلة.. الدم لم يعد يتدفق في شراييني، تصلب في عينيَّ وفي وجهي.. بدت مشنقتي مقلوبة، الناس يُشنقون من رقابهم وأنا أشنق من قدميَّ، وتمنيت الموت أكثر من مرة.

بعد أكثر من ثلاث ساعات فُتح الباب ثانية، شاهدت أقدامـًا كثيرة تلج الغرفة وتخرج منها، لكني لم أستطع رؤية الوجوه.. تبينت أنها أحذية مقاتلين.. فجأة ارتطم رأسي بالأرض ووقعت ممدداً بين

أرجلهم.. ساعدني أحدهم على الجلوس.. ساقاي كانتا في خدر شديد، ولم أعد أحس بهما، شعرت أنهما قطعتان من اللحم والعظم ملاصقتان لجسدي لا حراك فيهما.. تقدم أحدهم مني وقال: نحن نعرف أنك من المقاتلين الشرفاء، لكن ما الذي غيَّرك؟

لم أعرف عما يتحدث.. أضاف: من الذي دفعك لتطلق النار على أبناء جلدتك؟!

هززت رأسي بالنفي، قلت بصعوبة: لا أعرف شيئًا مما تقول.

- لا تكذب، ولا تتجاهل.. سأعيدك إلى المشنقة حتى تموت أو تعترف..

أقسمت له أني لا أعرف شيئًا مما يقول، كل ما أعرفه أني كنت خلف المتراس أدافع عن المخيم، ثم اندفعت ألاحق المهاجمين أثناء تراجعهم..

قطع استرسالي: أنت لم تلاحق المهاجمين، كاذب.. أنت لاحقت المدافعين وبدأت تطلق النار عليهم.. أصبتَ ثلاثة منهم قبل أن تفرغ منك الذخيرة.

- هذا ليس صحيحًا، فأنا لم أجن بعد، أنا مقاتل شريف.. اسألوا عني القيادة، أبو طوق وأبو طعان يعرفاني جيداً.. أنا مع الثوار.

لم يصدق، قيَّد معصميَّ ثانية إلى الخلف، وخرجوا كلهم.. تنحنح أحد السجناء وقال: إذا كان كلام الضابط صحيحًا، فهذا يعني أنك خائن فعلاً، وتستحق الموت.. وعلق آخر: إنهم يُلفِّقون التُّهم تلفيقًا.. من يريدون الخلاص منه يتهمونه بالتآمر عليهم والتعامل مع

العدو..

ثرثرنا طيلة الوقت.. ثلاثتهم رووا حكاياتهم بالتفصيل الممل. قال أحدهم: الثورة لم تعد ثورة.. أصبحت مصلحة، منافع متبادلة.. صمت لحظة، وحين لم يسمع تعليقاً تابع وهو يئن ويتألم: أنا من جنوب لبنان، أملك قطعة أرض مشتركة مع أخي الذي التحق بالمقاتلين.. بقيت أفلح الأرض وأزرعها.. لكن أخي الذي أصبح برتبة ملازم مع الفدائيين، جاءني يوماً وطالبني بالأرض كلها ليبيعها، متذرعاً بالاعتداءات المتكررة عليها من اليهود.. حاولت أن أقنعه بأني سأتشرد مع عيالي وأولادي بدون الأرض، لكني فوجئت قبل أكثر من شهر باعتقالي بتهمة الجاسوسية.. هم لا يعلمون حكايتي مع أخي، لكني واثق أنه وشى بي ليأخذ الأرض.. ماذا أقول؟!.. هل أتهم أخي أيضاً؟!.. إنهم يصدقونه لأنه في صفوفهم ولا يصدقوني.. الجرح في الكف، ويعلم الله أني بريء من هذه التهمة كبراءة الذئب من دم يوسف.

رفيق زنزانتي الآخر كان يناهز الخمسين من عمره.. عيناه صغيرتان.. لحيته بيضاء طويلة.. ثيابه بالية.. يرتدي جاكيتاً أسود اللون ممزقاً عند الصدر والذراعين، وبنطالاً مائلاً إلى السواد، ممزقاً أيضاً عند إحدى الركبتين، نظر إلى السقف، وأجال ببصره فينا واحداً بعد الآخر، وكأنه يرانا للمرة الأولى، قال: أنا لا دخل لي بالمقاتلين.. لا معهم ولا ضدهم.. أترزق من عملي، لأطعم أولادي الخمسة..

قادتني قدماي قبل مدة إلى هذا المخيم، أبيع حجباً ومسابح وآيات قرآنية.. كنت ماراً قرب القيادة ولا أعرف عنها شيئاً عندما أوقفني أحد المقاتلين، وسألني عما يكون في الشنطة التي أحملها.. قلت له بأني أبيع آيات قرآنية.. لم يصدق، وطلب مني أن أفتحها.. تجمع ثلاثة مقاتلين حولي وشهروا أسلحتهم في وجهي.. تناول أحدهم حجاباً وفتحه.. لم يعرف المكتوب بداخله، قلت له هذا حجاب.. ضربني بكعب بندقيته واقتادني إلى غرفة جانبية بعد أن أخذ مني الشنطة والحجب والمسابح.. ثم عادوا يسألوني لمن أعمل، ولحساب من أتجسّس؟.. استجوبوني وانهالوا عليَّ بالضرب.. مزقوا جسدي وملابسي وهم يطالبوني بحل طلاسم الحجاب معتقدين أني أتجسس وأراقب أعضاء القيادة.. لم يصدقوني، ورموا بي في هذا القبو حتى أعترف أو أموت كما يقولون.

أما السجين الثالث فقال إن جريمته أنه من فصيل آخر، ومتهم بإطلاق النار على أحد القادة، ومع أنه أنكر ما نُسب إليه من إطلاق النار، إلا أنهم لم يصدقوه، وحين ألقوا به في الزنزانة، عرُّوه من ملابسه وطرحوه على الأرض المبللة بالماء البارد، ثم وضعوا سلكاً كهربائياً بالماء، حتى يعترف أو يموت كما قالوا له..

«اخرسوا، لا أريد أن أسمع صوتاً».. هدر صوت أحدهم من خلف الباب، وقطع استرسال السجين.

ران الصمت بيننا، ولم يكمل السجين الثالث حكايته تلك اللحظة.. اتخذتُ زاوية معتمة، وألقيت بثقل جسدي على الأرض

الصلبة، ورحت أنظر إلى السقف، وأتخيل نفسي كيف كنت مشنوقًا بطريقة مقلوبة!..

عندما قدمت إلى بيروت لألتحق بالجامعة، لم أكن أتصور أن كل هذا سيحدث معي.. كان أملي كبيراً كي أحصل على الشهادة الجامعية، وأعود إلى الوطن الذي عشت وترعرعت في أحضانه، أخدمه وأخدم نفسي وعائلتي.. والدي لم يتوقف يوماً عن دفعي لمتابعة الدراسة وتحصيل العلم، فمنذ أن ألقوا به عند حافة نهر الأردن الشرقية عام النكبة، وأمروه أن يسلك الطريق إلى الشرق، وهو يناضل بكل ما يملك حتى يعود إلى وطنه.. ورغم قسوة الحياة، لم يتخلَّ والدي عن الدفاع عن مبادئه.. كان يدفع أبناءه دفعاً للتعليم ونيل الشهادة الجامعية، ودائماً يقول بأننا لن نستطيع الصمود وإعادة شبر من أرض فلسطين إذا تخلينا عن العلم.. فالجهل سبب كل المصائب التي حلت بأمتنا.. طلب مني أن أدرس الهندسة أو الحقوق، لكن في أعماقي كنت أتوق للأدب.. وحين التحقت بالجامعة اكتشفت أني لا أرضاً قطعت، ولا ظهراً أبقيت.

حين آمنت بالثورة، والتحقت بصفوف المقاتلين هروباً من العذاب الذي يطاردني مع أحلامي، زجوا بي في السجن.. ضيَّعوني من جديد، كما ضيعوا كل أمل لي في المستقبل.

قطع حبل استرسالي وأوقف شريط المد في ذاكرتي صرير الباب يُفتح.. وقف مقاتلان قربه، تقدم أحدهما وفك وثاقي، أمرني

بالوقوف، ثم دفعني إلى الخارج، قادني عبر ممرات وسراديب مظلمة إلى نفق ضيق طويل، ثم أمرني بالتوقف.. فُتح باب علوي في سقف النفق، وإذا بي تحت أشعة الشمس مباشرة.

قدرت أن الساعة هي الواحدة ظهراً، لم أستطع أن أفتح عينيّ في النور، دفعني إلى الخارج دفعًا.. فجأة وجدت نفسي أمام مئات المقاتلين الواقفين في صفوف متوازية، دفعني ثانية أمامهم وطاف بي بين الطابور كله، وهم ينظرون إلى وجهي ولا أعرف لماذا!.. بعضهم يبصق على وجهي، وبعضهم يبصق على ملابسي.. أحدهم يركلني بقدمه وآخر يصفعني بيده على وجهي.. كانت الثواني تمر كالساعات.. وعندما وقفت أمامهم صرخوا صرخة واحدة.. «عاشت الثورة، الموت للخونة والجواسيس».

لكزني أحدهم بحربة سلاحه في ظهري فجأة، وأمرني بالتقدم إلى ضابط الصف الذي أوصى بإيداعي في زنزانة منفردة، ريثما يأتيه الأمر بإعدامي.

كالأمواج المتلاطمة في بحر عاصف مخرت الأفكار في رأسي، بعد أن زجوني في زنزانة منفردة تحت الأرض.. جردوني من ساعتي اليدوية وبطاقتي الشخصية منذ لحظة وصولي.. أنا الآن صفر، وصمة عار أبدية، جاسوس محكوم عليه بالإعدام، صفر، لا شيء في نظر العالم والثورة.

أيام ثلاثة انقضت دون أن أشاهد أحداً غير الذي كان يأتيني بالطعام.. استسلمت للأمر الواقع، شعرت في قرار نفسي أني أغسل

أخطائي.. بل وأقنعت نفسي أن لعنة تطاردني إلى الأبد!.

في هجيع الليل عادت الذاكرة وافترشت لعنات قديمة في حياتي، لم تكن المرة الأولى التي أسجن فيها، فما زلت أذكر يوم أن قُبض عليَّ مع رفاق آخرين وأودعت سجن المحطة، بعد مظاهرة في عمان، كان ذلك أيام دراستي في الصفوف الثانوية العامة في كلية الشريعة، كنا نطالب بالوحدة مع مصر وسوريا.. في السجن تم التحقيق معي بتهمة الانتماء إلى حزب ممنوع، وألصقت بي تهمة توزيع مناشير لذلك الحزب، بعد أن وُجد بعض منها بين صفحات أحد كتبي.. عانيت ما عانيت من ضرب وإهانة.. ومع ذلك كان مسموحـاً لنا بالدخول إلى مكتبة السجن والاطلاع على ما فيها من كتب، نقرأ ونتسامر ونتناقش فيما وصلت إليه الأمور.. ومع أننا كنا سجناء إلا أننا كنا نشعر بالحرية أثناء تجمعنا والتنفيس عما في صدورنا.. بعد أكثر من شهر وبعد التعهد بالإقلاع عن ممارسة السياسة، والتبرؤ من الحزب، تم الإفراج عني مع بعض الرفاق، لكن قراراً صدر بفصلي من الكلية، مما سبب لي معاناة كبيرة وتقديم الثانوية العامة دراسة خاصة.

وإن كنت أنسى فلن أنسى أيام امتحانات الثانوية العامة، تلك الأيام كنت أدرس خلالها تحت أعمدة الكهرباء في الشارع القريب من غرفتي لانقطاع الكهرباء عن البيت لعدم تسديد الفواتير، وحين رأيت اسمي في إحدى الصحف التي أعلنت أسماء الناجحين كدت أطير فرحـاً، لكن فرحي لم يدم سوى دقائق معدودة حين وجدت نفسي لا

أملك قرشاً في جيبي.. تلك اللحظة قفز أخي الكبير الذي كان يعمل في السعودية في ذاكرتي، وكنت أسمع عن فرص العمل خاصة وأني أتقنت عمل الدهان والطراشة والنقر في الحجارة لعمارة البيوت.. حصلت على جواز سفر ولم أوفق في الحصول على تأشيرة دخول إلى السعودية.. ومع ذلك قررت السفر لعلي أجد فرصة عمل هناك، لكن حظي السيئ أوقعني بما لم أكن أتوقعه.. فرغم أن أحد المهربين نجح في خطته واجتاز بي الحدود حتى وصلت أخي في مدينة تبوك، إلا أني لم أستطع الهروب عن أعين الباحثين عن العمال الأجانب.. فألقوا القبض عليَّ بعد أسبوعين بتهمة العمالة غير الشرعية، وأودعوني السجن.. وكاد أخي أن يُطرد من عمله لاتهامه بالتستر على تهريبي عبر الحدود، وإيوائه أجنبياً غير مصرح له بالإقامة.. لكنه أنكر معرفته بالأمر فعاد إلى عمله.. بعد أكثر من شهر قادوني مكتوف اليدين إلى الحدود الأردنية.

تلك الأيام أمضيتُ في السجن عدة أسابيع بين المهربين وتجار الحشيش.. أحدهم كان محكوماً عليه بالإعدام.. صباح ذات يوم وعلى باب السجن شاهدت جمعاً غفيراً يحتشد، وأفراد الحرس الوطني يقفون حائلاً بينهم وبين بوابة السجن، والرجل المحكوم معصوب العينين مقيد اليدين إلى الخلف.. وقف أحد الحراس وراح يقرأ قرار الحكم، وتلاه شيخ أخذ يقرأ آيات قرآنية على مسامع الجميع.. فجأة ظهر رجل مربوع الجسم، مفتول العضلات، بشرته سمراء وبيده سيف، وزبد أبيض يتراشق من فمه، تقدم ودار دورتين

حول المحكوم، وكأنه صياد يختال حول فريسته، وفجأة هوى بسيفه على رقبة المحكوم.. لم أرَ غير دم يتناثر ورأس يسقط بعيدًا عن جثة صاحبه.. وحتى اليوم يتراءى لي ذلك المشهد في أنصاف الليالي.. وحين قيدوني وأودعوني شاحنة أقلتني إلى الحدود الأردنية، حمدت الله أني خرجت سالماً من ذلك السجن وتلك المحنة.

في سجني الجديد الذي لا أعرف له سبباً، فتحوا تحقيقاً معي قبل تنفيذ حكم الإعدام، جاءني ممثل منظمة التحرير مع مجموعة من الضباط، وتعرَّف عليَّ أحدهم، قال إنه يعرفني حق المعرفة، وإني لم أكن يوماً أعمل إلا لصالح الثورة.. أخبرتهم بما حدث، واعترفت لهم بكل ما أتذكره.. في اليوم التالي استدعوا المقاتلين المصابين ليدلوا بشهاداتهم.. كانت معظم أقوالهم لصالحي، مقرين بأن الطلقات التي أصابتهم كانت من مسافات بعيدة، مما دفع المحققين بالحكم ببراءتي وإطلاق سراحي، وإعادة كل أغراضي الشخصية.. وقد عرفتُ أني كنت نزيل زنزانة في سجن وسط مخيم تل الزعتر بين أيدي المدافعين عنه.. قلت للضابط أثناء مصافحتي له قبل أن أخرج: «لن أحمل سلاحاً بعد اليوم».. ابتسم وقال: لا أعتقد أنك جاد في أقوالك.. قلت إنها الحقيقة، وخرجت.. لكنة استوقفني عند الباب وقال: أنا أعتبرك في إجازة عارضة، وعليك إثبات وجودك عندنا بعد أسبوع من هذا اليوم.

***

(١٧)

لم أعد أخاف الموت.. أصبحت أخاف الحياة في مدينة الفوضى والموت والدمار، بعد أن نعتوني بالجاسوسية، واتهموني جزافًا بأني أعمل مع الأعداء.. رهبة الموت استبدلت بشعور من الكراهية والحقد.. أصبح للدم صوت شلال في أعماقي.. الأشياء من حولي بدت تقترب وتبتعد، تختلط وتتفارق، تدور وتلف، بدت الألوان غامقة بلون قاتم، وفقدت الإحساس بالأشياء.

كنت بحاجة إلى كل تكنولوجيا العالم حتى أفهم ما يدور حولي.. مسحوق حتى العظم والنخاع، أهوي في بئر من الأوجاع بلا قرار وبلا نهاية نحو القيعان المظلمة.. وفرسان السلاح يتبارزون ويموتون من أجل متراس افتقدوه قبل لحظات، ثم عادوا إليه مهللين محتفلين بالنصر.

رائحة الدم كانت تفوح في الطرقات، والموت يقبع خلف الأبواب، ينتظر الرصاص الطائش ليدخل معه.. مات الحوار، ونطق الرصاص.. حدود المخيمات صارت أبعد من حدود الوطن، وفردوس أصبحت حدوداً لوطنيتي.. أنا الصحراء وهي المطر المنتظر، وموسيقى الموت الجنائزية تلاحقني عبر فوهات الرشاشات وأسطوانات المدافع.

أعداء الثورة باتوا يخافون حتى من صور الشهداء المعلقة على

الجدران.. هدموا المنازل، اقتلعوا الشعب من أرضه، لكنهم لم يستطيعوا قلع الجذور.. باطن الأرض يمخر بجثث آلاف الشهداء، يتحدى الموت، ويعلن عن سنابل جديدة وولادة جديدة.

الحرب الأهلية تتفاقم.. الثورة تدافع عن نفسها، الأبطال يموتون غرباء على أرض غريبة، بيروت تأكل أبناءها، وأنا أحمل غربتي وألاحق ظلي، هذا ما كنت أحدث به نفسي، وأعلن أن الموت أصبح حياة في هذه المدينة العربية الغريبة!.

***

أخي عبد الله، الذي ولد بعد عام النكبة في مخيم الكرامة ويصغرني بعامين، جاءني ذات مساء قادماً من عمان ليبدد وحدتي.. كان قد التحق بالثورة وقاتل في الأغوار منذ زمن، ووصل بيروت بعد خروجي من السجن مع رفاق له ليواصلوا نضالهم في جنوب لبنان.. دفعني لحمل السلاح ثانية حتى تندمل الجروح ونبدد اليأس.. حاولت إقناعه بأن الثورة باتت على مفترق طرق، لم يقتنع وقال: «المهم أنك نجوت من الموت، واستعدتَ كرامتك».. لم أقتنع، كما لم أستطع إقناعه.. وحين أصر على الرحيل إلى جنوب لبنان بعد أن طالعتنا الأخبار عن اعتداء عليه، قلت له إنه يسعى لحتفه.. فقال: إذا كان الوطن سيعود بموته، فليمت نصف الشعب الفلسطيني أيضاً.. ليمت ثلثاه ويعود الثلث الأخير فقط.. وأضاف «قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم».

تلك الليلة شعرت أن أخي رغم صلابته، يخفي دموعاً حارة في

مقلتيه، ومع ذلك آثرتُ وإياه الصمت المعبر، كان صمتً عميقًا حارقًا، شعرتُ من خلاله أن جوارحي تكاد تقطر لهيبًا وشوقًا.. شعرتُ برغبة شديدة في أن أضم أخي إلى صدري، أحضنه.. وعندما حاولت، أبعدتُ فكرة الموت عنه، أجل، فكرة الموت هي التي سيطرت على نفسي تلك الليلة، فلماذا الموت بالذات؟ لا أعرف!.

كنت أعرف أن أخي سيرحل، سيغادرني مع موكب الرجال.. ومع ذلك تركته يستريح في ليلته، حاولت أن أقنعه بالبقاء عندي.. كان متردّداً في البداية، أستلقى على فراشه وأخذ ينظر إلى السقف، ويفكر.. كنت أرقبه بصمت رهيب، والدمع يتحجر في عينيَّ حين أفكر أنني لن أراه بعد اليوم.

كان أخي يتقلب في فراشه، يحاول أن يتحدث معي بصمت، يحاول أن يمد يده نحوي ليحول الصمت إلى حركة، فيعجز.. كان يعيش لحظات رهيبة، وهو يتقلب على بطنه وعلى ظهره محملقًا بسلاحه المسند على الجدار..

لم أعد أطيق الصمت.. أريد أن أتحدث، لكني أصمت..

كنت أراه بصمت المقهور يتقلب في فراشه.. ذلك المساء رأيت وجه الثوار في ملامح أخي، كان غاضبًا.. كانت تقطيبة كبيرة تملأ وجهه الذي ما كان لي في يوم من الأيام إلا باسمًا.. حزنه كان كبيراً.. كان الحزن يحتقن تحت جلده مثل دمعة في عين سجين.. أحسستُ حقّـًا أنه سجين رغم أن الشارع الذي سرنا فيه ذلك اليوم كان طويلاً

وفسيحاً.. وإلا فماذا يعني جلوسه، فوقوفه، فخروجه، ثم مجيئه.. ثم تقلبه في فراشه بصمت الغريق!.

في الشارع كان الآخرون يتحدثون ويثرثرون.. وكان أخي يحمل هموم شعبه في جبينه، وفي العروق الحمراء وسط عينيه..

كيف يحزن الرجال ويغضبون في آن واحد!.

أخي عبد الله كان حزيناً وغاضباً.. ورغم ذلك كله.. ألم يكن ذلك الذي يطل من عينيه هو مضاء سيف عربي للغاية!.. أليس من ألم المخاض يولد العطاء!.

كان يعاني.. يتقلب كما لو أن خنجراً أغمد في صدره حتى النهاية.. كان رفاق السلاح الذين رافقوه في الأغوار، وفي جرش، وعجلون يتوهجون في نبض عروقه، وينغلون مثل كريات الدم في الأوردة..

يتذكر من يعرفهم واحداً واحداً..

يتذكر ابتساماتهم في ليالي السهر بالقاعدة..

يتذكر الشاي الساخن الذي يرتشفونه، وعيونهم لا تبتعد عن الحدود..

يتذكر فرحتهم عندما ينسف اللغم سيارة إسرائيلية..

يتذكر صوت أقدامهم، وهم يعبرون المخاضة..

يتذكر لهاثهم وهم يعودون من الأرض المحتلة بعد عملية ناجحة..

يتذكر جنازات أحبهم إليه، حين تعبر شوارع المدينة تطرزها من

الجانبين زغاريد الأمهات..

يتذكرهم واحداً واحداً.. ويقرأ في الصحف أخبار قهرهم وتشردهم.. يسمع في الإذاعة أخبار صمودهم.. مَن منهم لا يزال يقاتل، ومَن منهم قضى نحبه.. فتجرفه رغبة حارة في البكاء، لكنه يمنع نفسه، ويجاهد كي لا تنبجس دموعه.

كنت أرقب حركات أخي وأحدث نفسي كمن يخاطبه.. أليس من العيب يا أخي أن تدمع عيناك في الوقت الذي يموت فيه الرجال واقفين؟!.. أعرف أنك تود بكل نبضة في عروقك، لو كنت الآن بينهم.. ستصمد، ستصنع معهم سدّاً.. وإذا كان لا بد من الموت، فليكن ذلك معهم، بينهم، فيهم.

قال لي بعض الرفاق «إنك كنت يائساً».. لم أصدق ما قالوه..

صحيح أن سخطي على الذين خذلوني كان يؤلمني، ويملؤني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.. لكني لم أكن يائساً..

قال بعضهم.. «لقد فكّرتَ بالتخلي عن انتمائك العربي تحت تأثير الانفعال».. هذا صحيح، لكني أعرف تماماً أن العروبة هي الهواء الذي أتنفسه، والنبضات التي تخفق في فؤادي..

لقد ذبحوني يا أخي، علقوني في الكلاليب، وأخذوا يسلخون جلدي.. وبعد ذلك فصلوا لحمي عن عظمي، انتزعوا فروة رأسي.. ورغم ذلك كله لم أمت..

وكذلك أنت يا أخي.. بإرادتك الفولاذية، وإيمانك العميق بالنصر والحرية، كنت تواجه شراسة المعتدين، وبطش القوات الغازية.. ورغم ذلك كله لم تمت.. كم أنت خارق، وظل الكبرياء جزءاً من أنفاسك وصمودك يا أخي!..

أخيراً تمدد أخي.. حاول أن ينام.. لكنه لم ينم، راح يفكر بالشباب واحداً واحداً من جديد ويتساءل: كيف يثأر لهم!..

كيف يحافظ ويرعى القضية التي استشهدوا من أجلها!..
كيف يجتاز المرحلة، وكيف تستمر الثورة!..

يشعر أنه مسؤول عن أمانة كبيرة حمَّله إياها الشهداء والأرامل والأيتام، الشباب والثوار وأبناء الشعب.. و «مَن أمّنك على أمانة لا تخنه ولا تخنها».. إنه مسؤول، ويجب أن يجد الحل من خلال الذبح والموت والتشريد..

فجأة ارتسمت على جبينه تقطيبة، وشعر أنه وجد الحل..

تغيَّرت ملامح وجه أخي فجأة.. شعر أنه وجد شيئًا، وأن لديه حلًّا، وأن هناك ما يمكن أن يطرحه.. لا يأس، لا تفريط بالقضية، ولا انحراف عن مسارها الصحيح.. عليه أن يستمر في النضال، يناضل من أجل أن يكون النضال شريفًا ونقيًا.. يناضل من أجل وقف الهزائم.. من أجل برنامج عمل علمي يناسب المرحلة.. من أجل ترسيخ الديمقراطية، وروح العمل الاجتماعي.. يناضل من أجل أن تسود الروح الأخوية البناءة.. فجأة هبَّ من فراشه واقفًا.. شعر أنه يجب أن

يظل مستيقظاً وممتلئاً باليقظة.. حمل سلاحه، ودعاني ثانية لأحمل سلاحي وألتحق بقمة المجد.

***

حين أصر أخي على الرحيل تلك الليلة.. أعطاني كل ما يملك من وجع الكلمات الحزينة..

حين حمل سلاحه ليمضي إلى خطوط النار في جنوب لبنان، حاملاً في قلبه ذكريات أرضه وشعبه، أصبحت ذكرياته، على عذوبتها وحنينها، قنابل في جعبته، رصاصاً في بندقيته، وحمماً في نفسه.

حين أمعن في السفر بعيداً مع الرجال.. كانت الأرض تنتظره على الضفة الأخرى من الحدود، يسكنها وجع العيون المسهدة.. مشرعة الأبواب، تتلوى في انتظار الغائبين الذين ارتحلوا تحت وهج الظهيرة، وأمطار النار التي يسكنها النابالم.

كان يرغب في أن يمرِّغ وجهه بنداوة عشب أرضه البعيدة.. ويصرخ: «أيتها الريح، ازرعيني شجرة في تراب بلادي.. بللي أوراقي بالمطر، وليغسلني الغمام»..

تلك الليلة خلته يرتحل مع وجع المواسم، وأغاني الحصاد الذابلة.. وكان لا بد أن أحمل السلاح وأرافق أخي إلى الجنوب.

***

في جنوب لبنان كانت الحياة تتأصل وتمتد لأجيال قادمة.. كان الشهداء يكتبون التاريخ الحقيقي بدمائهم، عشرات القتلى والجرحى، الدماء نهر بنزيف دائم، والموت حدقات لعيون واسعة تراقب الأحياء، القذائف لم تستطع وقف الزاحفين نحو أرض الجنوب، والأجساد تتحدى الرصاص، في محاولة للعودة إلى الوطن الذي يئن تحت وقع سياط المحتلين.. وأخي يتمرد على الزمان والمكان، يتطاول إلى السماء، المأساة تتكرر، الشهداء يتساقطون، الفناء يلاحق الشعب المشرد، وأسطورة الموت تعزف ألحاناً جنائزية في أجساد المقاتلين، وتبعث في أرواحهم الأمل والنور.

مع أخي شعرت أني ولدت من جديد.. كنت أطلق الرصاص ولا أرى غير صناديق فولاذية متحركة، قذائف تسقط من السماء، تحفر الأرض وتحيل البيوت إلى العدم.. قهر المقاتلون جيش الاحتلال بصمودهم، وبدوري كنت أتحداهم بموتي، وأخي عبد الله يتربص لدبابة تتقدم نحونا وتطلق النار باتجاهنا.. قطع أخي شريط صمودي فجأة وأعلن عن نيته بتدمير الدبابة، وطلب مني أن أحمي ظهره.. تلاشى كل شيء أمامي.. نسيت كل شيء عداه.. القذائف غطت المكان فجأة، بدأت تتساقط علينا مثل حبات البرَد، والخندق الذي نتمترس بداخله عرضة لقصف مركز من الطائرات الإسرائيلية.. حاولتُ أن أمنع أخي من التقدم، قال وهو يبتعد: «من هنا سننطلق لنحرر الوطن.. إذا بقيت تحلم سيحصدونك ويقيمون إلى الأبد على

أرضك».. صرختُ عليه في محاولة أخيرة لمنعه من التقدم نحو هدفه، لكنه لم يسمع، كان يتعانق مع الدبابة وينفجر كالبركان.

تعالت صرخات في الجو وخُنقت فجأة، انقلب الخندق رأساً على عقب، امتلأ بالأتربة والغبار.. تلاشى أخي عبد الله.. احترقت الدبابة في ثوانٍ وتحولت إلى كومة من الحديد الصدئ.. كالمعتوه وجدت نفسي أركض إلى الزوايا الخلفية المعتمة وأنا أصرخ، أنبح مثل كلب مسعور، أبحث عن بقايا أخي.. سقطتُ، ارتجفت، شعرتُ أن دمائي توقفت في عروقي وجفت في الأوردة.

كالمارد كان أخي يقف أمامي ويملأ جبهة القتال، يتمرد على سلاحه، لكن الدبابة الملعونة قذفت بجثته إلى عنان السماء، تلاشى ولم يعد له أثر على الأرض، كنت ألاحقه، أرتفع معه، أحميه من الموت.. يومها صحوتُ على موت الحبيب.. أصبتُ بالذعر والخرس وأحد المقاتلين يضمد ذراعي.. أذكر أني كنت أصرخ وأنادي على أخي عبد الله.. كانت أصوات كثيرة حولي.. مقاتلون يحملون السلاح.. جثث كثيرة، والمقاتل يهزني ويطلب مني الهدوء قائلاً بأن الثوار صمدوا، وردوا الأعداء على أعقابهم.

استشهاد أخي كان أكبر مصيبة في حياتي.. أخي كان الجندي المجهول.. سيِّد الآلام ولد في مخيم، كان يفر من منفى إلى منفى حتى استقر في منفاه الأخير، والثوار ينشدون بالأخضر كفناه، بالأحمر كفناه.. حفروا حفرة كبيرة، في مقبرة الشهداء في الضاحية الجنوبية من

بيروت، دفنوا فيها عشرات الشهداء معه، ثم وضعوا لوحة رخامية على القبر، وقالوا إنه قبر «الجندي المجهول».

***

(١٨)

وسط أجواء الحرب الأهلية في لبنان اختلطت الأمور في مذراة ذاكرتي، شعرت أن الموت أرحم من فراق فردوس بعد استشهاد

أخي.. لشهرين متتاليين لـم أدخل بيتها ولـم أكحل عيني برؤيتها.. مشـغولاً بتقـديم امتحانـات الجامعـة كنـت، وكانـت أحـداث لبنـان المتتالية قد أخذت مني كل ما كان ضرورياً أن أفرح به قبل لحظات الزواج.. أتجاهل كل الأحداث وأحلم بغرفة أضيق من زنزانة وأكبر من الكرة الأرضية تضمّ روحينا فقط.. ومع أن فردوس تصغرني بخمسة أعوام، إلا أنها فهمتْ موقفي، وقفتْ بجانبي وأمدَّتني بالحياة والصمود الذي خذلني بعد استشهاد أخي.. وعندما كنت أتركها، كانت دموعها تلاحقني، أشعر أني مسؤول عنها وعن المشردين، ولا يهمني إن مت دفاعاً عنهم، ومع ذلك أنسحب من أمامها لأقف صامداً مع المقاتلين.

***

في زيارتي الأخيرة لبيت أبي سعيد، بعد أن تخرجت في الجامعة بنجاح، جلستْ فردوس أمامي تبكي، تنساب الدموع من عينيها وتجري على وجنتيها حارقة كالحديد المصهور، بدا وجهها الرقيق مرهقاً، وصار النور الخافت الذي يطل من عينيها يُلقي على وجهها غبشاً قاتماً، شعرتُ أن عينيها راكدتان فوق بحيرة من القهر والهزيمة، استسلمتْ لخيبة الأمل ونظرت إليَّ كشبح بلا ملامح، أحسستُ بصداع عنيف يمخر رأسي، أعادت خصلة الشعر النافرة إلى موضعها، لمست جبينها بأصابعها، على الجبين ظهر غضب ساطع

مشحون بما تحمل بيروت من أحزان، شعرتُ أننا مثل قطبين متنافرين، كلما اقتربنا تباعدنا، وحال القدر دون لقائنا، صوتها في أعماقي أحدث صراخًا مكتومًا كعظام تتهشَّم، وهمستْ على صدري «ليتني أموت وينتهي كل شيء».

في عينيها رأيت الدموع، وحاولت أن أرى فيهما الحل أيضًا، وكلانا يبحث عن الحرية، لمحتُ حزنها المتدفق، حضنتُ يديها وراقبت عينيها والدموع تقفز منهما بحرارة، صار بكاؤها نشيجًا هستيريًا ردَّده هدير القصف ورعب المكان، أشعرتني أني الوحيد القادر على احتواء أشلائها وخيبتها، وفي أعماقي اجتاحتني رغبة لأضمها وآخذ وجهها بين يدي، وأغني لها «يا حبيبي كل شيء بقضاء، ما بأيدينا خُلقنا ضعفاء».

كان الوقت صباحًا والساعة تشير إلى التاسعة، وكان عليَّ الرحيل عن بيروت بعد أن وجدت عملاً في دولة خليجية.. ما زلت أذكر تلك الجلسة، وأرقب برُعْبٍ قاتل دقات الساعة التي سأودِّع فيها الحبيبة التي ستكون زوجتي في المستقبل.. دار نقاش داخل بيتها عن الموت والحياة، الاستشهاد والرحيل، الفراق والغربة والنفي.. كانت تتألم وتتقوقع، تحضن وجهها براحتيها.. سألتها وكأني أهبط من السماء وأعود من الموت «رغم كل الظروف، هل توافقين على الزواج وترحلين معي؟».. لم تُفكِّر كثيراً وقالت «نعم».

ومع أني لا أريدها أن توافق، فقد وافقتْ.. فراشة ليلية حاولت

الفرار من اللهب فالتجأت إليه.. «لكن القدر شاء».. ولم يُبْد والدها أية معارضة لرغبتها، قال «ابنتي فردوس زوجتك على شريعة الله وسُنَّة رسوله، وهي ليست أفضل من غيرها.. في رحيلها معك ربما يُكتب لها عُمْر جديد وتسعد بحياتها.. أما نحن في بيروت فالله أعلم بحالنا، وما سيحدث لنا في غمار هذه الحرب اللعينة».. ومسح دمعة نفرت من عينيه فجأة.. ورغم لحظة الفرح التي اجتاحت كياني، إلا أني أحسست بغباش العالم يهبط إلى عيني، وأن ضباباً يحيط بهما ويمنعهما من الرؤية جيداً، ومع ذلك أسرعت إلى السفارة وطلبت تأشيرة سفر لفردوس بعد أن أبرزت لهم عقد الزواج.. وفي مساء اليوم التالي أقيمت حفلة عائلية لم يحضرها سوى الأقرباء إعلاناً بزواجي من فردوس، وفي الصباح وقبل أن نغادر بيروت، احتضنت فردوس والدها، وذرفت الدموع بغزارة على صدر والدتها التي كانت تنتظر مولوداً جديداً، وكادت فردوس أن تتراجع عن قرارها، لولا أني استعجلتها قاصدين الطائرة التي ستقلنا إلى خارج لبنان، وسط دعوات المكلومين والدموع.

ما زلت أذكر كيف اقترنتُ بفردوس بلا أفراح ولا زفَّة ولا زغاريد، وكيف رحلتْ معي كطيْف بين القهر والدموع!، وما زلت أعجب لنفسي كيف استطعتُ أن أخفي في مساماتي كل هذه العذابات الكثيرة، وأرحل وسط طلقات الرصاص والقصف، وأصدقائي من المقاتلين يرافقوني إلى المطار ويمشون معي، يتحركون على جنباتي، يحملون

السلاح وينتظرون المجهول.

***

(١٩)

تتجدد خلايا الذاكرة، وترسم صوراً من خلال ظلال العمر في حاسة الزمن.. صور متحركة دائمـًا، ومشاهد لا تُنسى.. في الذاكرة كاميرا تدور، دائمـًا تلتقط وتسجل.. وفي لحظات تالية، بعد وقت يقصر أو يطول، تعود الذاكرة من جديد وتفرغ ما في جعبتها من صور وأحداث على صفحات.. أتعبتني هذه الذاكرة كثيراً ودفعتني للانزواء مع أوراقي، أقلقتْ راحتي، وأجبرتني على تسطير ما تكابده أعماقي من صراع، والصور تتدفَّق وتتلاحق كشريط أو فيلم سينمائي.. فرغم كل الظروف التي مررت بها في حياتي في عمان وبيروت، والأعمال التي أخذت جهداً كبيراً من فكري ووقتي، إلا أني لم أتخلَّ عن القراءة كلما سنحت لي الظروف.. أزعم أني كنت قارئـًا من الدرجة الأولى.. كنت بكل طاقاتي أحاول أن أجد وقتـًا للقراءة والكتابة.. كنت آمل الكثير، لكن الظروف لم تسعفني أبداً للتفرغ لهوايتي الأولى.. ومع ذلك، لم أترك مكتبة في عمان أو في بيروت إلا واطلعت على محتوياتها، ولم أترك كتابـًا وقع بين يدي إلا وقرأت صفحاته بتمعن.

بداياتي كانت حكايات قديمة، حكايات والدي والأقارب في عهد الطفولة.. أذكر سهراتهم الليلية بعد صلاة العشاء.. وأكبرهم في السن يلف سجائره الهيشي ويسرد حكاياته التي لم تنقطع يومـًا، وتدوم حتى بعد منتصف الليل، والكل صامتون يتلهفون لنهاية الحكاية التي

تتوارد وتطول مثل حكايات وقصص ألف ليلة وليلة.. أما أنا فلم أكن أسمع الحكاية.. كنت أراها بعينيَّ، أسرح بعالمها وذاكرتي تطارد أبطالها، والكاميرا في رأسي تدور وتسجِّل.. أنفعل وأشارك في الحدث، وأتدخل أحياناً في مجريات أبطالها.. كنت أرى في أعماقي صوراً وأسجِّل أحداثاً، وأحرك الجماد.. تتحرك الكاميرا، فأقبض على جبل شاهق بيدي، أو أطير بلا أجنحة.. وتكبر النملة في مخيلتي حتى أراها بحجم الفيل.

مرَّت تلك الفترة الطفولية بخيرها وشرها، وفي عمان من أوائل خمسينيات القرن الماضي صحوت على شيخ الجامع الأعرج والخيمة التي كانت تجمعني مع فريق من الأولاد، في أول الطريق إلى جبل نزال، لنتعلم قراءة القرآن والحساب من خلال جدول الضرب.. ضرْبٌ وعصا طويلة يزيد طولها عن المترين ما زالت ذاكرتي تراها بيد الشيخ ذي اللحية البيضاء، ونحن نفترش حصيرة بالية تحت أشعة الشمس أمام الخيمة، بينما يجلس الشيخ تحت ظلال الخيمة يضرب بعصاه كل من يخطئ، وتصل إلى من يفترشون الرمل في المجالس الخلفية.. وما زلت أذكر كيف كان يمد كل من يخطئ بالفلقة حتى تحمر قدماه ولا يعود الطفل يستطيع الوقوف عليهما.

في المرحلة الابتدائية انتقلت إلى مدارس الوكالة في جبل النظيف.. تلك الأيام كنت أرتدي ثوباً أبيض، أما حقيبة الكتب فكانت مصنوعة من كيس طحين فارغ، لها حبل أعلقه في كتفي ورقبتي لتتدلى على

جانبي الآخر.. الدوام كان على فترتين، وكنت أقضي وقت الاستراحة فيما بين الفترتين في مقبرة جبل النظيف القريبة من المدرسة، كما كان عليَّ أن أذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام قبل طلوع الشمس وأعود بعد العصر، ليتسنى لي الوصول إلى البيت في جبل نزال قبل مغيب الشمس.. وما زلت أذكر مدرس التربية الرياضية الذي أوصى بدخولي في فرقة الكشافة.. كنت مبهوراً بذلك اللباس ورابطة العنق الصفراء، وتلك الرحلة الأولى في حياتي مع طلبة الكشافة إلى أريحا وجبل المقطم، وفرحة والدي مساء ذلك اليوم وهو يتناول البرتقال الذي حصلت عليه من بيارات أريحا، بعد عودتي من الرحلة.

في الصفوف الإعدادية، أذكر أني بدأت أتعامل مع الكتب في وقت مبكر، ربما كان في سن الثالثة عشرة مع أصدقاء الدراسة، كان والدي يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويحثني كما يحث إخواني على قراءته وحفظ سوره وتفهم معنى آياته، وفي وقت فراغه مع كبار السن حيث يجمعهم الليل والسهر، كان يسرد قصص أبو زيد الهلالي، والملاحم التي انتشرت في كتب التاريخ العربي، وما يدور على ألسنتهم من حكايات ألف ليلة وليلة، وكأنه واقع يؤمنون به وبكل كلمة مطبوعة!.. في مكتبة المدرسة استوقفني كتاب «كليلة ودمنة» فقرأته أكثر من مرة، انعكست هذه القراءة فيما بعد لمحاولات التقليد في كتابة ما يدور في ذهني كنوادر، وبعد أن حفظت المعلقات السبع غيباً ومعظم الشعر الجاهلي عن ظهر قلب، رحت أقرض ما يتراءى لي أنه شعر، أكتبه

مقلداً، إلى أن خلصت لكتابة النثر بعد أن شعرت بميلي الأدبي نحو القصة والرواية، خاصة ما كنت أطالعه في سلسلة «روايات الجيب» والمجلات القديمة، مثل الطريق والوقت والمختار والكتب المترجمة، وكل ما تطاله يدي من كتب علم النفس، أو يقع عليه ناظري من كتب ومجلات، حيث كنت أشتريها بما يفيض عن حاجتي من قروش، أثناء عملي بعد انتهاء الدوام المدرسي.

في تلك المرحلة، كنت أمارس قراءة الكتب الأدبية كمجرد هواية، بمعنى أن أترك نفسي على سجيتها، أقرأ عندما أجد كتاباً ممتعاً يشدني إلى قراءته، إلى أن وجدت نفسي منقاداً لكتابنا العرب المعاصرين أمثال طه حسين، العقاد، ميخائيل نعيمة، توفيق الحكيم، إبراهيم المازني، سلامة موسى، جبران خليل جبران، المنفلوطي، فقرأت كل ما استطعت الحصول عليه من كتبهم.. حيث كنت أستعير مثل هذه الكتب من مكتبة أمانة العاصمة.. تحوَّلت قراءاتي فيما بعد لتأخذ منحى معينًا في الصفوف الثانوية بعد أن أعدت قراءة قصص ألف ليلة وليلة.. فلم أعد أقرأ غير القصص والروايات، كما لم أعد أهتم بالمؤلف أو عنوان القصة أو الرواية.. فقط هو الحدث الذي يشدني، كنت أتابع الحكاية حتى الصفحة الأخيرة.. وكانت النتيجة أن بدأت أدوِّن كل ما علق في ذاكرتي من ملاحظات.. كتبت قصاصات على شكل خواطر، أو صدى انفعال عانيته أثناء تعاملي مع الآخرين.

الأمور كانت تلتبس عليَّ.. يشدني النص وأنسى اسم المؤلف،

وهذا ما سبب لي إرباكاً كثيراً حين فشلت أحياناً كثيرة بربط اسم المؤلف بمؤلفاته.. تلك الفترة كانت كتاباتي الأولى.. كتابات احتفظت بذلك الطابع التجريبي المنفرد.. كتابات بشكل سيرة ذاتية.. مجلة الحائط المدرسية التي كانت تصدرها كلية الشريعة في عمان، كانت أولى المجلات التي نشرتُ فيها انفعالاتي، أثناء دراستي في الصفوف الثانوية.. بدت تلك الانفعالات كشظايا تحرق جسدي، ولا أهدأ إلا عندما أتناول قلمي وأكتب ما يدور بخلدي.. كتبت الكثير الكثير، ونشرت القليل في مجلات أسبوعية أو شهرية.

وإن كانت ذاكرتي تتخطى الكثير من الأحداث، إلا أن حدثاً واحداً لن أنساه في حياتي وأنا أتابع دراستي في الصفوف الثانوية في كلية الشريعة.. كان الفصل شتاءً، وكنت أنتعل حذاءً قديماً لا نعل له، أما الجوارب فكانت عبارة عن قطعتي قماش ألفهما تحت أكياس من البلاستيك حول قدميَّ كي لا تتسرب مياه الشتاء إليهما، وأنا أقطع المسافة من جبل نزال مكان إقامتي إلى الكلية في جبل اللويبدة سيراً على الأقدام.. يومها كانت رائحة قدميَّ عفنة، فتساءل مدرس اللغة العربية الذي كان يعطينا دروساً في الفلسفة وعلم النفس أيضاً عن مصدر الرائحة، فلم يجبه أحد من الطلاب، لكنني شعرتُ بنظراتهم تتجه نحوي فتحرجني، فقمت وخرجت من الفصل.. في اليوم التالي أبدى الأستاذ أسفه لإحراجي، وراح يعاملني معاملة الوالد لولده بعد أن عرف ظروفي المادية.. وحين أعلنت الكلية عن رحلة إلى وادي

السير مع بداية فصل الربيع، تخليتُ عن الرحلة لظروفي المادية، لكني فوجئت بالأستاذ يدفع تكاليف الرحلة ومصاريفها، ويزف لي الخبر على أني من طلابه النجباء الذين يفتخر بهم ويرعاهم.

تلك الأيام كانت المظاهرات تعم أرجاء عمان مطالبة بالوحدة.. وكنت ممن شغلتهم أفكارهم بالهمِّ الفلسطيني والعربي، شأن الكثير من الطلاب والمدرسين والسياسيين، مما سبب لي معاناة كبيرة وفصلي من الكلية، وكان ذلك سبباً في تقديمي امتحانات الثانوية العامة كدراسة خاصة، على أن أجتاز خلالها فصلين معـاً ليتسنى لي النجاح.

***

في بيروت، بعد أن غادرتُ عمان، شعرتُ بالانفتاح على عالم جديد من الحرية والحكايات في مقهى قديم قرب ساحة رياض الصلح.. الراوي أو «الحكواتي» كما يسمونه هناك كان يجلس على مقعد فوق منضدة، يحكي قصص الزير سالم وعنتر بن شداد وتغريبة بني هلال وغيرها.. ورواد المقهى يجلسون حوله يرقبون حركاته.. يستمعون وينفعلون ويدخنون النارجيلة ويصفِّقون.. يقرأ الحكواتي وينفعل ويمثل لهم الحكاية.. وقليلاً ما كانت تفوتني تلك السهرات المغرية الجذابة.. تلك الفترة كنت أقرأ الحياة وأنا أتنقل من عمل إلى آخر، وأقيم في فندق شعبي قريب من ساحة رياض الصلح.. كانت

أجرة السرير نصف ليرة لبنانية، وكنا ستة أشخاص نتقاسم الغرفة، نلعب الورق عن سجائر، وفي أواخر الليل أقرأ لهم من المجلات والكتب التي كان بعضهم يحتفظ بها تحت طيات فراشه.

في المرحلة الجامعية، اتسعت اهتماماتي الأدبية مع البحث عن عمل أقيت به نفسي، ويزيد عن أقساط الجامعة، انتقلت إلى عالم أرحب وأوسع، وتعرفت على الكثير من الأدباء ومن أساتذة الجامعة، فبدأت أجرب إمكاناتي التعبيرية، حاولت كتابة الشعر الموزون المقفى والقصة القصيرة، كما كتبت مسودة لأولى رواياتي عن سيرة أخي الذي استشهد في جنوب لبنان، وعن الهم الذي كنت أعيشه، حيث لم تكن لي خبرة كافية بالحياة.

خلال دراستي الجامعية تعرَّفت على صاحب دار نشر في بيروت، كما تعرفت على الكثير من الأدباء في بيروت عندما كنت ألتقيهم في مكتبة دار النشر.. وفي مؤسسة صامد التي كنت أزورها بين وقت وآخر، كثيراً ما كنت ألتقي بالكتاب الفلسطينيين.. كنت أقرأ كل ما كان صاحب دار النشر ينوي طبعه من مخطوطات.. وجدت نفسي في أوقات فراغي أغرق في هذا الهمِّ من جديد، وأطالع الكتب الجديدة.. قرأت الكثير من الروايات المترجمة لكتاب كبار أمثال تولستوي ودوستيوفسكي وهمنجواي وأليكس هاليني وتشي جيفارا وفيكتور هيجو ومكسيم جوركي، وغيرهم من الكتاب الأجانب، كما قرأت

روايات لكبار الكتاب العرب أمثال نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وحنا مينا وغيرهم.. وخلال تلك الفترة وأنا أعيش سنوات عجافاً، وأرى الأجيال تضيع في المنافي وهي تحلم بالعودة، بقيتُ بذاكرتي وبقلمي أطارد أهلي وشتاتهم وفقرهم ورحيلهم القسري عن فلسطين.. وهاجس الموت يفاجئني ويأتيني طاغياً وأنا عاجز عن مقاومته.. أشعر أن مَدَّه متغلغل في أعماقي.. وأخي الشهيد يتلبسني بثيابه البيضاء، يطاردني في الحلم، في النوم واليقظة.. مما دفعني لكتابة رواية ثانية، قرأها أستاذ الدراسات العليا في جامعة بيروت العربية والجامعة اليسوعية، قبل طباعتها، فأثنى عليها وكتب مقدِّمة لها نشرت على صفحاتها الأولى في منتصف السبعينيات من القرن الماضي.

ربما كنت مصمماً على أن أكون كاتباً، لكني كنت متسرعاً في نفس الوقت.. وهذا ما قتل امتيازي ودفعني إلى المقاعد الخلفية لفترة تزيد عن عشرة أعوام أثناء غربتي، وانشغالي بعملي بعد زواجي من فردوس ورحيلي عن بيروت.. وما زلت أذكر يوم أن زرت دار النشر التي نشرت روايتيَّ، خلال إجازتي، فوجدتها أثراً بعد عين.. كانت النيران قد أتت على كل محتوياتها إثر حريق في المبنى.. وعندما سألت عن صاحبها قيل لي إنه غادر لبنان إلى إيران قبل أكثر من عام بعد أن فقد كل شيء.. وبعد ثلاثة أعوام قابلت أحد الأصدقاء ممن كانوا يعملون في مجلة العربي، فقال لي إنه شاهد الروايتين معروضتين على الأرصفة في شوارع الكويت، مع روايات أخرى صادرة عن نفس

الدار.. تلك الأيام عجبت من صديقي الذي كان في عمان أثناء الصفوف الإعدادية والثانوية ناسكـًا متعبِّداً لا يترك فرضـًا من الصلاة، كيف حوَّلته الأيام في دمشق أثناء دراسته في الجامعة، وفي الكويت أثناء عمله وتجواله في بلاد الله الواسعة، كيف حولته السنوات الى رجل آخر يعيش على ضفاف النهر من الجهة الأخرى.. انخرط في أحد الأحزاب ومارس حقَّه في الحياة بعد أن ملك حريته في غربته، وهو يعيش مع زملاء على درجة كبيرة من الوعي والفكر المتقدم، يناضلون في سبيل قضيتهم الفلسطينية، ويمارسون حقهم الطبيعي في الحياة.. يومها قال لي متهكمًا: لمن تكتب! ومَن يقرأ هذه الأيام!، وأضاف أنه قرأ يومـًا مقولة تقول بأن «الأدباء والكتاب يكتبون لتغيير العالم، فانتهوا ليجدوا العالم هو الذي يغيرهم، إنهم أبطال السير الشعبية، لهم هدف واضح محدد يحلمون بتحقيقه، وانتهوا كأبطال الإغريقية، كل منهم نفسه منقسمة على نفسه، اختلط الخير بالشر والليل بالنهار، هجروا قيم الثورة إلى قيم الثروة، وكأن كل ما كتبوه باطل وقبض الريح، الأدباء والكتاب يكتبون لمجتمع انفصل فيه الرأس عن الجسد، وما زالوا يحلمون، يعيشون في مجتمع لا يقرأ، وإن قرأ لا يفهم!».

***

(٢٠)

سنوات عشر مرت خلال عملي في أحدى الدول الخليجية بحلوها ومرها، تنقلت فيها خلال غربتي رغماً عني من مدرسة إلى أخرى، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، بسبب العمل الخارجي الذي كان محظوراً على المدرسين أن يمارسوه، أثناء تعاقدهم مع وزارة التربية والتعليم.

في الغربة تبعثرت ذاكرتي، اتخذت مسارات متعددة في الزمان والمكان.. بدت ذاكرتي مشلولة، وحياتي بدأت وانتهت بخانة الصفر.. غربتي خرَّبتني من الداخل.. هشَّمت حنين العودة إلى الوطن وكسرت أحلام المستقبل، رمل وسراب وصحراء، رمال ملأت عينيَّ وخنقت أنفاسي.

بعد ثلاثة أعوام وأنا سجين غربتي في القرى النائية، داهمتني أفكار غريبة، رحت أستعرض شريط حياتي.. دارت أحزان الغربة وركنت في مؤخرة رأسي.. الغربة علمتني كيف أحزن وأتوجَّع، حطَّمت معنوياتي وآلمتني بضربات جنونية غير متوقعة.. سراب ووجع جواني لا يطاق.

الغربة أفقدتني أحلى أيام حياتي.. سنوات عجاف طويلة مرَّت وأنا أختزن الهموم، أستنطق الصحراء والرمال.. أعماقي تصرخ، تداخلت الرياح والرمال والعواصف في مجال الرؤية.. اختفى كل شيء، ولم يبقَ غير شجر الأثل والصحراء والفراغ.. الفراغ ولَّد في نفسي عقمًا،

والغرباء انكسرت أعمارهم وتقلصت أحلامهم، دخلت أرواحهم في التيه، بعد أن فقدوا أي معنى للحياة.

منذ بداية عملي وجدت نفسي في قرية نائية مع اثنين من زملائي في مدرسة ابتدائية وسط الصحراء.. القرية التي يطلقون عليها اسم «ديرة» مكونة من عدة بيوت طينية وبيوت من الشعر متناثرة على مد النظر، ولا يزيد عدد سكانها عن مائتي شخص، يتزعمهم أحد الأمراء، وزوجته الأميرة «مزيونة».. كما يوجد في الديرة بستان من النخيل والفواكه ونبع ماء لا ينضب يملكه الأمير، وهناك مدرسة للبنات فيها معلمتان فقط، هما «جميلة» و«رحمة» مع والديهما المحرمين، ومجموعة من الخدم الخصيان يترأسهم أحد اليمنيين ويلقبونه بـ «الأقرع».

أبناء الديرة وبناتها يعدون أنفسهم من الأمراء أيضـًا، وهم كما يقولون إخوة في الرضاعة من حليب النيدو وحليب بقرة الأميرة المزيونة.. بدا ذلك واضحـًا من خلال ما كنت أراه وهم يسلمون على بعضهم البعض في المناسبات والأعياد.. الرجال يسلمون على بعضهم بملامسة الأنوف وتقبيلها، أما النساء فيلبسن براقع على وجوههن ولا يظهر من المرأة غير العينين، وعندما كان الرجل يسلم عليها، ترفع البرقع عن وجهها، ويتصافحان بتقبيل الوجوه، مدعين أنهم إخوة في الرضاعة!.

أيام طويلة انقضت وأنا أتابع عملي، ورجال الديرة يتابعون أعمالهم خارجها، ولا يعودون إليها سوى مرة أو مرتين في الشهر.. كنت أشعر بالفراغ وأنا أجلس ساعات طويلة لا عمل لي غير اللعب بورق الشدة مع المعلمين والأقرع.. الفراغ دفعني للعمل مع الأقرع، حتى أصبحتُ أقوم مقامه بتشغيل ماتور الكهرباء، وتصليح ماكينات الحياكة، كما أداوي جروح أبناء القرية.. فصاروا يدعونني بالدكتور أو المهندس بدل الأستاذ.

حوادث كثيرة شاهدتها خلال عملي تلك السنوات الثلاث وما زلت أذكرها عن كثب..

ذات ليلة قال الأمير لرجاله بأن يستعدوا لفرح قادم إلى الديرة.. وأخبرهم أن أحد أمراء الخليج سيحل ضيفاً على الديرة، ويرغب بالزواج من إحدى بناتها.. وأسرَّ لي الأقرع بعد انفضاض الجلسة بأن الكثير من أمراء الخليج يأتون للديرة في مواسم القنيص والصيد.. ومن عادات وتقاليد أهل الديرة، أن يُقدِّموا للأمير الضيف إحدى أجمل فتيات الديرة ليتزوجها.. فبنات الديرة مزيونات ومن أجمل بنات البادية.

صباح اليوم التالي سرت شائعة في الديرة تقول بأن الأمير الضيف رجل مزواج، تجاوز الستين من عمره، وله أكثر من عشرين ولداً.. وهواياته المفضلة «الزواج والقنيص».. ومنذ الصباح أيضاً راحت الصبايا يتبخترن في الطرقات الترابية، وهن يتمايلن بقدودهن الرقيقة،

ويـتجهن نحـو مخـيم الأمـيـر ورجالــه، وقـد خلعـن بـراقعهن عــن وجوههن، تبرَّجن ولبسن كل ما بحوزتهن من جواهر وحلي وثياب بدوية فضفاضة، الثوب مزموم عند الخصر ثم يأخذ بالاتساع عند الردفين، وينداح على الساقين، فلا يُرى من حركة الفتاة وهي تتبختر بمشيتها غير فستانها الواسع الذي يتهادى بهدوء، وكأن تيار هواء نـاعم يدفعه إلى الأمام ويُحرِّكه.

ما إن اختار الأمير إحدى الفتيات الصغيرات، والتي لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة، حتى بدأت الأفراح استعداداً ليوم الفرح الكبير.. أهازيج وأغانٍ لم تنقطع لأيام ثلاثة، الرجال يهزجون ويدقون الطبول ويقيمون السامر، والنساء يرقصن بعد أن يخلعن نعالهن ويتحررن من براقعهن، يتمايلن ويُؤرجحن شعورهن الطويلة يميناً وشمالاً وبشكل دائري.. أعناقهن تتلوى من طرف لآخر بحركة منتظمة مع صوت الطبول، في محاولة لتغطية ملامح الوجوه بالشعر الطويل.. ينظرن إلى الرجال بعيون نصف مفتوحة، وبتغامزن تحت النور الذي يطل من المصابيح الكهربائية المعلقة بحبال طويلة بين بيوت الشعر والبيوت الطينية.. وحين تتوقف الطبول فجأة، تتطاير الغُتر عن رؤوس الرجال، ويُلقى بها على رؤوس النساء، وهن يتابعن الرقص على صدى إيقاع الصوت دون إدراك منهن بتوقف الطبول.. وكثيراً منهن كن يرسمن ابتسامات صغيرة على شفاههن، وعيونهن مغلقة نصف إغلاقة، وكأنهن ينبعثن من حلم بديع.

الأقرع كان حاضراً تلك الليلة، قال لي خلال سهرتنا بعد منتصف الليل: إن العروس أخذت تصرخ في وجه عريسها «ما أبغاك»، وأضاف بأن الأمير لم يبال بصراخها.. تقدَّم نحوها.. صرخت ثانية، دفعته دون أن تنظر إلى وجهه.. تراجع إلى الوراء وكاد يسقط على الأرض، عاد واستجمع قواه وهجم عليها بكل قوته.. وقعت على الأرض.. صرخت، تعالت أصوات النساء في الخارج بالغناء وطغى على صراخ العروس.. اندفعت العروس نحو الباب، دفعنها النساء ثانية إلى الداخل.. كان العريس يقف خلفها مباشرة، تقابلا وجهاً لوجه، دفعته ثانية بيديها، أمسكها من وسطها وضمها إليه وأزاح البرقع عن وجهها، ضربته بكلتا يديها على صدره.. صرخت من جديد، صوت الدفوف والطبول والزغاريد في الخارج طغى على صراخها.. الحلق الذهبي الطويل والعقد الرشراش والحزام الذهبي كانت عقبة في طريق مقاومتها للعريس، حاولت أن تخلع كل ما يُقيِّدها لتتحرر من قبضته.. صرخت في وجهه «ما أبغاك، ما أبغاك»، ضاع صوتها ولم يسمعها غيره.. تردَّد صدى الصراخ وعاد إلى أذنيها فقط.. رائحة العطر كانت تعبق في بيت الشعر وتثير المكامن الحسية في الأمير، دفعها نحو السرير.. قاومت وصرخت من جديد.. وقعت على البساط المفروش على الأرض الرملية العذراء، ألقى بثقله عليها.. خبرته الطويلة مع النساء على مدار عشرات السنين جعلته يعرف كيف يتعامل مع كل امرأة على حدة.. يعرف تماماً عادات أهل البادية.. لكنه وهو الأمير الذي يشتهي الفتيات الصغيرات لم يستطع مقاومة رغبته، ولم يتوقف عند حدٍّ معين.. قاومته بكل قوتها وهي الصغيرة التي لا تقوى على

شيء.. ركلته برجليها، ألقى بثقله بين ساقيها، بدأت المقاومة تخف تحت ثقله، استسلمت لقدرها وقوته.. أدارت وجهها جانباً وراحت تذرف دموعاً حارة.. اختنقت صرخاتها البرية والوحشية في أعماقها، وهي تئن تحت وطأته قبل أن تهدأ حشرجتها، والأمير لا يبالي، يلهث ويخور ويتمرغ فوق جسدها الصغير.

كانت تحملق في الظلمة، وتحتمي بالحلق الذهبي والحزام وعقد الرشراش.. بغريزتها عرفت أن الفريسة وقعت في المصيدة التي لا انفكاك منها، ولا مجال للهرب.. شعرت أنه مستعد أن يُضحي بحياته من أجل هذه الليلة، فاستسلمت لقدرها وخنقت الصرخة الأخيرة في أعماقها، فاسحة المجال لأنفاسه اللاهثة المتلاحقة أن تصل إلى أسماع النساء في الخارج.

***

تلك الأيام شعرتُ أني أعيش في العصر الجاهلي، على كوكب آخر غير كوكب الأرض وأنا أستمع لما يقوله الأقرع بعد انتهاء مراسم الفرح، حيث أضاف أنه «من عادات وتقاليد أهل الديرة، أن يُقدِّموا للأمير الضيف إحدى فتيات الديرة ليتزوجها.. وعندما يغادر الديرة بعد أسبوع يتركها حتى تلد، فإن أنجبت في عامها الأول فإنه يهبها قصراً ومالاً وذهباً، وتبقى حليلته كلما عاد إلى الديرة، وإذا لم تُنجب خلال عام، يطلقها ويعطيها مبلغاً من المال، وراتباً شهريّاً مدى العمر بشرط ألا تتزوج مرة ثانية.. فإن تزوجت خسرت راتبها الشهري

الكبير».

ومن عادات الزواج في الديرة، كما قال الأقرع أيضـًا، أن تهرب العروس من زوجها في الليلة الأولى، ترفض عريسها حتى لو كانت تتمناه وترغب به قبل الزواج، وتصرخ «ما أبغاه»، فيفسح العريس لها بالهروب بعد أن يزيل البرقع عن وجهها عنوة ويتأمله، وهذا المسموح به فقط تلك الليلة.. أما الليلة الثانية، وبعد إعادتها إليه ثانية، فيبقيها عنده ثلاثة أيام، ثم ينتقل معها إلى حوش والدها، بعد أن يقيم له بيتـًا طينيًّا أو بيتـًا من الشعر.. والمطلقة أكثر من مرة مهرها أغلى من العذراء، لأنها ذات خبرة بالزواج ومحايلة الزوج.. وعلَّق في نهاية حديثه: «قاتلهن الله، يتمنَّعن وهن الراغبات!».

***

في تلك القرية، كثيراً ما كانت المعلمة «جميلة» السورية الأصل والمنبت والمنشأ والتربية والتعليم، كثيراً ما كانت تقضي وقت فراغها في البيت عند زوجتي.. خاصة عندما كان يتركها والدها الذي تجاوز الخمسين من عمره، وحيدة تحت رعاية زوجتي، ويذهب إلى العاصمة بحجة العمل.

جميلة بدت في القرية معزولة ومهملة، حياتها راكدة.. ليست ذات الجمال الذي يتهافت عليه الرجال، لكنها جذابة.. قامتها متوسطة، ووجهها أبيض مستدير.. غير أن حب الشباب الذي يطفح عليه بين وقت وآخر، كان يدفعها للخجل وعدم مخالطة النساء كثيراً.. أما شعرها الأشقر الطويل، فكانت تسرِّحه على كتفيها وعلى ظهرها، ليخفي كل العيوب الأخرى التي تخجل منها.

في دمشق كانت والدتها تقوم بمهنة «تحفيف العرائس»، كما قالت، فقد كانت تزيل الشعر الخفيف عن جسد العروس وعن الأماكن الحساسة قبل ليلة الدخلة.. أما والدها فهو الذي يُحضِّر لوالدتها مادة الشمع التي تحفف بها العروس، وجميلة تساعد والدتها في عملها.

بعد أن أنهت دراستها الثانوية بنجاح، تعاقدت للعمل مدرِّسة في هذه القرية.. الأمر الذي دفعها للانزواء وعدم مخالطة الآخرين، بسبب التغيير المفاجئ الذي طرأ على حياتها فجأة.. من جنة الشام إلى جحيم الصحراء والغربة.

في القرية راح والدها يدفعها للعمل الذي تعلَّمته من والدتها، إضافة إلى عملها في التدريس، لكنها كانت ترفض.. وكان جُل أمله أن يعيش مع ابنته في مدينة لتختلط بالنساء وتقوم بمهنة إضافية، لكن وجوده في قرية لا يوجد فيها غير عدد قليل من النساء دفعه للتذمر.. فكان ساخطًا على وضعه، ودائمًا يلعن حظه التعس الذي رماه في صحراء عطشى كما يقول.. وهذا ما دفعه لترك ابنته عند زوجتي، ومغادرة القرية بين فترة وأخرى بحجة العمل في العاصمة.

جميلة لم تألف حياة البادية والبدويات، عكس المعلمة الثانية «رحمة» التي أحبت البادية وحياة البداوة.. لهذا التجأت جميلة إلى بيوت الوافدين وزوجاتهم، ومع ذلك كانت تشعر بالغربة والغيرة والحسد، وهي ترى بنات الديرة يُخشخشن بأساور الذهب في أيديهن، ويلبسن العقود والأحزمة الذهبية، بينما والدها ينتظر راتبها بفارغ الصبر نهاية كل شهر، ليأخذه منها ويصرف معظمه على حاجياته.

في قرارة نفسها كانت جميلة تتألم بيأس وصمت.. تكتم غيظها وتحاول أن تبدو الأفضل وتتمسك بالعفاف.. فلم تكن تأمن لأحد في القرية غيري، لكن الأمن تحوَّل إلى إعجاب، ثم حب من طرف واحد.. وكثيراً ما كنت أنهرها عن تصرفاتها ونظراتها التي تستفز زوجتي، لكنها تأخذ الأمر على شكل دعابة، وتتمادى في التقرب من زوجتي لتكسب ثقتها.

فيما بعد راحت تنتهز فرصة غياب زوجتي عن البيت، وتأتي عندما

أكون وحيداً بحجة السؤال عنها.. ذات مرة وقفت عند الباب مسبلة العينين، تنظر إلى وجهي بخجل وكأنها تنتظر أن أدعوها إلى الداخل، لكني تجاهلت نظراتها واعتذرت.. قالت إنها تشعر بالوحدة ولا ملجأ لها غير فردوس، كنت أشعر أنها تلاحقني بنظراتها وهي تسهر في البيت عند زوجتي، ومع ذلك كنت أتجاهل وجودها، كنت أريدها صديقة فقط، لكنها كانت ترغب أن تستمتع بهذه الصداقة إلى أبعد حدود.

الجو كان حاراً، ساكناً ومتناعساً عندما دلفت جميلة ذات ظهيرة في الغرفة الجانبية من بيتي، حيث كنت أتمدد لقيلولة.. ألقت بعباءتها جانباً، وجلست على مقعد قريب دون أن تتفوه بكلمة.. قلت إن فردوس معزومة على الغداء عند جارتها، إذا أرادت اللحاق بها.

قالت بدلال إنها تعرف ذلك، وقد ملت من المدارس وجدران البيوت، ثم راحت تدندن بأغنية عبد الحليم حافظ «بحلم بيك أنا بحلم بيك».. لم أعر لها انتباهاً، فقالت بلا مقدمات: «أنا لا أفهم مدى مراوغتك، لماذا لا تعترف وتبادلني نفس الشعور الذي أكنه لك؟». وفي نفس اللحظة، خلعت المنديل الذي ترتديه على رأسها، وحلَّت شعرها الأشقر الغجري الطويل الذي يصل حتى ركبتيها، وجلست ترقبني مباشرة وتعض على شفتها السفلى.. قلت «أرجوك يا جميلة، إنسي ما قلتيه وخلينا أصدقاء، وبلاش فضائح في الديرة».

تغيَّرت ملامح وجهها، فجأة أخفت وجهها براحتيها وراحت

تجهش بالبكاء.. أضفت: «أنت فتاة متعلمة، وغداً تجدين من يحبك ويتزوجك».

رفعت رأسها ونظرت إلى وجهي مباشرة وقالت والدموع تملأ عينيها: «أنا لا أريد غيرك».

- أرجوك يا جميلة، أنا رجل متزوج وقانع بزوجتي.. إنها صديقتك.
- أنا لا أكرهها، لكني أحسدها عليك.. ألم تشعر أني أحبك طيلة الوقت.

جميلة كانت مصممة أن تخون الصداقة وتغرق في بحر الحب، وعندما لم أستجب لندائها، رفعت رأسها وقالت: أعرف أنك تحبني أيضـًا، لكنك تخاف من زوجتك.

لا أدري كيف واتتني الجرأة وطلبتُ منها الانصراف قبل عودة زوجتي.. وحين ذرفت دموعها ثانية قلت أجاملها: لا أقصد إهانتك.. فأنت جميلة وجذابة، لكني لا أنوي الزواج مرة ثانية.

فجأة قفزتْ أنوثة المرأة من داخلها، بعد أن شعرت بكبريائها يتهشم أمام صلابتي.. شعرتُ أنها فتاة ساذجة وغبية أيضـًا.. حاولت إقناعها بأنها اختارت أن تحب الرجل الخطأ في حياتها.. لكنها لم تقتنع.. وقفت وتقدمت نحوي حتى لامس جسدها جسدي.. وضعت ذراعيها حول رقبتي ورفعت قامتها قليلاً حتى لامست شفتاها شفتي، ولا أدري كيف اختلطت الأفكار بالحواس.. تجمدَّت عروقي

وتصلَّبت في مكاني، وأنا أحاول إبعادها والإفلات من بين يديها.. أحسستُ بها تغيب عن الوعي.. كانت تشعر بالرغبة تلد في أعماقها.. بدا ذلك واضحاً على وجهها وهي تستسلم للنشوة.. صرختها تحولت إلى أنين أخرس، فقدتْ الإحساس بكل شيء عدا الرغبة الملحَّة، وظلت حوالي نصف دقيقة متحجرة في مكانها، ميتة وممزَّقة، مُنتشية ومسحوقة.. وفعلاً هوت على البساط المجعّد بلا حركة.

كنت أنظر إليها وأرى بوضوح تلك الغيبوبة التي تسبق شهقات الروح، وعيناها نصف مغمضتين، تُحملق في السقف.. انحنيتُ وحاولت أن أعيدها لوعيها قبل أن تأتي زوجتي وتراها على هذه الحالة.. فتحتْ عينيها ونظرتْ إلى وجهي بفرح.. عاد لعينيها بريقهما الأنثوي.. وقفتْ، قلت: «إنتي مجنونة، شو بتسوّي بنفسك!..».

قاطعتني، وضعتْ راحة يدها على فمي وطلبتْ مني بهمس أن أسكت.. وراحت تجذبني نحوها.. تمنَّعت ثانية، شعرتُ بقوة يديها وهي تشدني من شعري، تُقبل كل جزء من وجهي، وبصعوبة استطعت أن أوقفها عما تفعل.. قلت وأنا أبتعد عنها: متى ستكبرين! أنا أحس بوجودك وأتجاوب معك، لكن إلى حدّ..

أغمضت عينيها وقالت: بإمكانك أن تتابع قيلولتك، لقد اكتفيت منك الآن.. وأنا معك لن أكون كبيرة أبداً.

قلت: أنا لا أفهم معنى هذه التصرفات.. فقالت إنها نسيت فعلاً

وجودها في بيت صديقتها.. ألقت بعباءتها على جسدها، وخرجت وهي في كامل فرحها وسعادتها.

بعد أن غادرتْ البيت، أقنعتُ نفسي بأنها لحظة طيش عابرة ومرت بسلام.. فتاة مجنونة تسعى للفضيحة وتبحث عن زوج بأية طريقة.

***

كثيراً ما قلت لها «لِنبقَ أصدقاء، فلعل هذه الصداقة تُمكِّننا من استمرارية الحياة في الغربة».

جميلة كانت ترفض سماع العقل، رفضتني كصديق، وأرادت أن أكون حبيبًا.. قالت غير آبهة لمشاعر زوجتي بأنها تحبني، واعترفت أنها تصرفت في البداية كامرأة ضائعة، مراهقة مع أنها لم تعد كذلك.. وأكدت أني السبب المباشر في عودة دمها للجريان في عروقها من جديد.. وأضافت: اعتبرني عشيقة، خليلة، مجنونة إن شئت، لكني لن أتخلى عنك، ولا أطلب منك سوى أن تبقى كما أنت.

شفتاها وهي تتحدث كانتا ترتجفان وتفتران عن ظل ابتسامة حزينة، ووجنتاها تنضحان باحمرار النضرة والخجل.. قلت لها:

- لا أعرف كيف تسمحين لنفسك بهذه الحماقة! إن أمرك غريب، لقد خيَّبتِ أملي فيك..

قاطعتني: أنت لا تعرف شعور المرأة التي تحب، ثم تُفاجأ بأن الحبيب تخلَّى أو ينوي التخلي عنها.. الموت عليها أهون من الحياة.

- أنتِ مجنونة ومستهترة، ولا فائدة ترجى مني، أو من هذا الحب الذي أخذتِ تبني عليه آمالاً وأحلاماً.. فقالت إنها مستعدة أن تعيش معي ولو في بيت من القصب وسعف النخيل في وسط الصحراء.

جميلة مجنونة حقّاً.. قرَّرتُ مقاطعتها، وطلبت من زوجتي أن تطردها من البيت، لكني لم أقل لها ما حدث بيننا.. فوجئت فردوس بكلماتي، نظرت إلى وجهي بدهشة واستغراب وقالت إنها لم ترَ منها ما يسيء إليها، وأضافت «أنت شكاك، وتشك في كل النساء».. وهذا ما دفعني لمواجهة جميلة في اليوم التالي، والطلب منها عدم المجيء إلى البيت.

كطفل مذعور وقفت قرب حائط المدرسة تبكي بمرارة وألم، بدت مثل ورقة خريفية صفراء.. قالت بلوعة المكلوم ونبرات صوتها ترتجف: «كنت أتمنى أن تكون زوجي، لكن يظهر أني أحرث في الصخر، ومع ذلك لن أقطع الرجاء منك».. بدا الحزن واضحاً على ملامح وجهها، شعرتُ أنها تحبني فعلاً.. لكني حزمت أمري وتركتها على قارعة الطريق تتخبَّط بمصيرها وحيدة.. اختفيت عن وجهها، وتهرَّبت منها.. وبدورها لم تعد تأتي إلى البيت.

***

بعد أكثر من شهر قابلت والدها الذي عاد من المدينة، وقبل أن

يُسلِّم بدأ يعاتبني.. قال إن ابنته مريضة منذ مدة، ولا أحد يسأل عنها.. فاجأني بالخبر.. قلت أنا لا عِلم لي بذلك، فلم يصدقني وعلَّق: «كنت أعتقد أن الغريب للغريب قريب».. ودعاني إلى بيته لرؤيتها..

ممددة على السرير شبه نائمة كانت جميلة.. ما إن شاهدتني حتى أخذت تتوجع وتبكي، وتختلس النظرات نحوي بعينين نصف مغمضتين.. قالت إن بطنها يؤلمها، وتشعر بتمزُّق في أمعائها، كما تشعر بدوار في رأسها ولا تقوى على الوقوف.. قلت ربما حالة برد شديدة، فبرد الصحراء يلسع ويقرص دون أن يشعر به المرء.. وعندما قام والدها يعد الشاي، تأوَّهت وقالت: كم أنت قاسٍ وظالم!..

قلت لها أن تنسى ما يدور بخلدها، وتخبرني عما يؤلمها، قالت بعد تردد: «أشعر بقيء وغثيان، إنها فعلتك الخبيثة، ولا أعرف ماذا أفعل!».

كنت على يقين أني لم أخطئ معها.. أضافت: أحلم بالعيش معك في صحراء واسعة ليس لها حدود، صحراء لا أحد فيها سوانا، لا ظل ولا سراب، حتى يستطيع كل منا النظر إلى الآخر بصفاء مطلق.

- المرض جعلك شاعرة. قلت.
- الحب جعلني شاعرة بعد أن عثرت على حبي الشارد بين جنباتك..
- أنتِ مجنونة فعلاً.. قاطعتها.
- تصرفاتك هي التي دفعتني للجنون، جعلتَ مني تافهة أيضًا،

لكني سأعمل كل ما يرضيك، خاصة وأنا أشعر أني استطعت النيل منك.

- لن تنالي مني أبداً، وأنت تعرفين ذلك.
- كيف لا! «قالت بحزم وهي تشير إلى بطنها»، وهل هذا ابن حرام؟!.. إنه الشاهد الوحيد على ما دار بيننا تلك الظهيرة.
- أنتِ مجنونة، والله أنت مجنونة. قلت ذلك ووقفت متأهباً للخروج.
- لا يهمني أن أموت بعد الذي حصل. قالت ببرود أعصاب.

تخيَّلتها كمارد مجنون انطلق من قمقمه، وينوي تدمير نفسه مع الآخرين.. هذه المرأة مجنونة حقّاً ولا يمكن ترويضها بسهولة..

دلف والدها يحمل إبريق الشاي.. عادت لتأوهاتها وتوجُّعها.. استأذنتُ للخروج.. قال «اقعد نشرب الشاي».. اعتذرت وقلت بأني سأجلب لها دواء من المستوصف.. وغادرت المنزل.

في الطريق أصبت بغثيان، ولم أعد راغباً برؤية أحد.. بلَّلني عرق غزير كما لو كنت في حمام من البخار.. تمنيتُ أن أفقد ذاكرتي أو تنشق الأرض وتبتلعني لأنسى ما سمعت، وأنسى كل ما كان يدور داخل مؤخرة رأسي.

«ماذا فعلت هذه المجنونة بنفسها!.. وهل حقّاً مارست الخطيئة، أم أنها كاذبة، وتتوَّهم أشياء تتمناها ولا تعرف عواقبها؟!.. لكنها

أكدت لي، والمرأة تعرف نفسها أحيانـاً أكثر من طبيب.. ماذا لو كانت حاملاً فعلاً، أي مصير وأي عار سيلحق بها!.. ماذا لو ألصقت التهمة بي، وأنا بريء منها براءة الذئب من دم يوسف؟!.. الحكم الإسلامي هنا لا يعرف أنني بريء طالما وهي تعترف بلسانها.. الرجم، آه، سأموت رجمـاً بالحجارة دون أن أقترف ذنبـاً.. وستنال عقابها أيضـاً.. مجنونة جميلة ورب الكعبة.. إنها غبية ولا تعرف قوانين هذا البلد الذي يُطبِّق شريعة الإسلام!.. تعتقد أنها لو باحت لوالدها بما في نفسها، سيهددني إن لم أتزوجها، أو يبلغ الشرطة ويرغمني على ذلك كما في بعض البلدان العربية.. ولا تعرف أن مثل هذه الأمور سيودي بها وبي إلى التهلكة».. هذا ما كنت أحدث به نفسي وأنا في الطريق إلى المستوصف، وأتمنى لو أبكي وتسيل دموعي، فقد يزيل البكاء بعض همي وكربي، ويُطهرني مما أعاني من أفكار.. أحسستُ أني أعيش مأساة حقيقية دون أن يكون لي ضلع فيها.

كنت مشوش الأفكار، قادتني فكرة جنونية وسوَّلت لي نفسي أن أعطي جميلة سمـاً ليقتل ما في بطنها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث.. أسرعتُ إلى المستوصف وطلبت من الممرض الوحيد في القرية أن يعطيني مادة قاتلة للجرذان، وعدت أدراجي أخف الخطى إليها.. كان والدها نائمـاً في الغرفة الخارجية وجميلة تتأوّه.. ملأتُ كأسـاً من الماء ووضعت فيه كمية قليلة من السم، وحين ناولتها الكأس قالت بهمس: "لو كان سمّـاً سأشربه من يدك".

تظاهرتُ بعدم السماع، استرختْ على السرير وقبل أن تتجرع ما في الكأس، راحت تتقلب تحت الحرام، تتأوه وتقول: ارحمني يا رب من هذا العذاب، وحنِّن قلب من أعشق عليَّ.

كانت تحاول أن تُسمعني أنينها وتوجّعاتها.. ومع ذلك استأذنت وخرجت بعد أن طمأنت والدها أنها ستخلد للنوم.

أنينها كان يخفت تدريجياً وأنا أغادر البيت دون أن أنظر إلى الوراء.. وكلماتها تلاحقني: آه يا قلبي الضعيف.. الحزن منك وفيك، فماذا أفعل لك!

***

لأسبوع كامل بقيت منزوياً وحدي في البيت.. آويت إلى ظلام أفكاري، تعللت بالمرض، واستسلمت للعبة القدر.. في وحدتي كنت أرتعد.. اجتاحتني أفكار سوداء ومخاوف.. ضاقت بي الحياة على سعتها، غصتُ في المجهول، مستقبلي وعملي، سُمعتي بين الناس، وعما تخبئ الأيام القادمة من شرور.. وخرجت بنتيجة مفادها أني إنسان معطوب، وغير قادر على استمرارية الحياة.

جميلة أثارت في نفسي كل مشاعر الانكسار.. فما قيمة المال الذي أجمعه عندما أخسر شرفي، وأموت رجماً بالحجارة كالشيطان بسمعة

سيئة وشرف مطعون!

بعد أكثر من عشرة أيام قمت بزيارة إلى بيتها أستوضح الأمور وأتحرى أخبارها.. والدها لم يكن في البيت.. كانت أفضل حالاً، لكنها بدت شاحبة وهزيلة.. لاذت بالصمت والغموض ولم تقل شيئاً عن الموضوع.. وعندما سألتها عما حدث معها، قالت إنها لا تهرب من مواجهة، ولا تغوص في المجهول، وقرارها واضح وصريح «الاستمرار في الحب حتى النهاية».. وأضافت: سأخبرك الحقيقة لأني أحبك فقط.. أحياناً تتأخر العادة الشهرية عند النساء، مما يُسبب للمرأة آلاماً حادة ومغصاً شديداً.. لكن دواءك الذي لم أتناوله أشعرني أنك مهتم بي، ساعدني على تخطي المشكلة، واستعادة نشاطي.

لا أعرف كيف غابت عني هذه الفكرة!.. وعندما سألتها عما قالته ذلك اليوم، وكيف اتهمت نفسها.. ابتسمت ونظرت في وجهي قائلة: أحببتُ أن أختبر مشاعرك تجاهي.. كنت أمزح معك..

- مزحة سخيفة جداً، سمجة وثقيلة أيضاً.. لو تعرفين ما سبَّبته لي من إزعاج وقلق.

لم تبالِ بما قلته، اقتربتْ مني.. تراجعتُ إلى الوراء، قالت: آسفة يا حبيبي.. وفجأة طوَّقتني بذراعيها وحاولت تقبيلي.. تمنَّعتُ وتوجهت نحو الباب.. أضافت: لو فتحت الباب وخرجت، سأصرخ وألم عليك أهل الديرة.

توقفتُ، تحجَّرت وتسمَّرت في مكاني.. فأضافت: لماذا تُعقِّد الأمور؟ الأمور بسيطة أكثر مما تتصور.. لماذا لا تعيش الحياة؟!.

جميلة لم تيأس ولم تعدم المحاولة، ولا أدري إذا كانت قد أحسَّت بحيرتي معها وضياعنا في الصحراء!.. ومع ذلك خرجتُ وهي تشيِّعني بنظراتها.

***

أفكاري مشتتة.. عادت ذاكرتي إلى الوراء ورحت أرتب أوضاعي من البداية حتى نهايتي المتأخرة..

بعد ثلاثة أعوام من وصولي تلك القرية، جاءني أمر بالنقل إلى منطقة أخرى نائية.. لكن الأمير رفض نقلي وأصر على بقائي سجيناً في ديرته.. حياتي في تلك القرية كانت مجرَّد رحلة من اللهاث.. أحلام غيبوبة.. لم يعد في الذاكرة غير صور مشوشة وباهتة.. زنزانة الروح، الغربة، الكفن، الصحراء، وديرة الأمراء والعبيد.. كل شيء بات وشماً في الذاكرة.. الحياة في القرية صارت فعلاً ماضياً.

أدمنتُ على خسارة العمر والروح، وأنستُ إلى انتصاراتي الوهمية في الصحراء.. وجدتُ نفسي أعيش بين أناس أكاذيبهم مُصدَّقة، وصدق الوافدين الأجانب عندهم أكاذيب.. كنت مُخرَّباً ذاتيّاً ولم أستطع الانفكاك عنهم.

كان عليَّ أن أتخذ قراراً.. خامرتني فكرة الاستقالة، بحت بما في نفسي لمن أستأجر بيته منذ سنوات عدة بأني سأستقيل.. لم يفكِّر، وقال على الفور بأن «الديرة مفتوحة للأجانب، وبيتي سيجد من يقيم فيه ولن يبقى فارغـاً»..

اعتقدتُ أن السنوات الثلاث التي عشتها في القرية ستشفع لي عند الفراق.. لكنه لم يبالِ كغيره من أبناء الديرة.. الأمير هو الوحيد الذي وقف في طريقي وقال «يا أستاذ، أنت تعرف كل أسرار الديرة، وهذا غير مسموح به للأجنبي.. وطالما عرفت، فأنت واحد منَّا.. تبقى مدرّس بزور «أولاد» الديرة ولا نتركك تغادر ديرتنا.. أنت أكلت من مالنا ومن حلالنا، وما عاد لك من هذا الراح مرواح».

كلماته أثارت في نفسي الفضول.. البقاء يعني الانتماء للصحراء، الموت غريباً، يعني أن أستبدل الوطن والبيوت الحجرية ببيوت زجاجية وسط الصحراء.. الأمير قالها صراحة.. إما حياة الصحراء أو الرحيل بلا عودة والموت.. أمران أحلاهما مرّ.. وكان عليَّ أن أختار.

زوجتي فردوس كانت نائمة تتقلَّب في فراشها على جمر.. وكان عليَّ أن أتخذ قراراً تلك الليلة.. هزمتني الصحراء وبتُّ إنساناً مشوَّش

التفكير.. الكي آخر العلاج، والبتر آخر الحلول.. وعليَّ أن أتقبَّل هزيمتي بروح مرحة.. الثروة والصحراء أم متاهة الوطن.

فردوس التي كانت ذات يوم تمتلك وجهـًا آسراً، وشعراً كالليل، وعينين عسليتين واسعتين، بشرة خمرية يشوبها حمرة عفوية وملامح تُفصح عن توقُّد في العاطفة وثقة بالنفس.. أمست امرأة من الماضي.. اختزنت الحزن في أعماقها مثل طوفان مدمر، ودائمـًا كانت تخبئ في جوانيتها جمراً تحت الرماد.. كثيراً ما كانت تدخل إلى بيت الخلاء وتبكي بكاء مرّاً.. تقول «ضيَّعتني في الصحراء كما ضيَّعت عمرك بلا فائدة».. ومع أنها كانت تخفي دموعها بين الحين والآخر عندما أفاجئها أو أختلس النظرات إليها.. إلا أني كنت أستطيع أن أرى من وراء راحتيها تلك الأحزان المتدفقة تغزو وجهها الشاحب، كنت أعرف أنها طيبة القلب وتحمل أحزانها على صفحة وجهها.

فردوس كانت جرحـًا نازفـًا في حياتي، طيراً من طيور الجنة التي تغرِّد في الأفق بفرح، وتموت بصمت على الأرض بعد أن أَلِفت الحزن والوحدة معي.. انحنت قامتها وذبلت، تتحدث في الليل بصمت عن الماضي ومع الأشياء.. صارت امرأة من الماضي بعد أن عجزت عن التفاعل مع الحاضر.. كثيراً ما سمعتها تتحدث مع السماء والقمر والأغنام والرمل والصحراء، ولم يعد لها أمل في الحياة غير الرحيل عن الديرة، والعودة إلى ديارها.

فاجأتني ذات ليلة بأنها تعرف أدق التفاصيل عن تصرفاتي مع أهل القرية، رغم أنها لم تغادر حوش الدار.. تعرف قصتي مع جميلة، كما تعرف كل ما يدور في القرية.. القرية في نظرها حوش كبير يحتوي على غُرف كثيرة مفتوحة من الداخل بعضها على بعض.. بكت وهي تضيف أن حياتها أصابها الصدأ في الصحراء، وأصبحت كالطائر الذي مرَّت على رقبته مدية قاطعة، فراح يرفرف من حرارة الروح، ويحاول التشبُّث بما بقي له من أنفاس معدودة.. قالت وقالت.. وقالت إنها تخمَّرت في الغربة، وتعفَّنت في هذه الديرة.

فردوس كانت معبأة بمرارتي الحزن والخيبة، وهي تُخبئ في أعماقها كل آهاتها.. صوتها أصبح نايا حزينا مشحونا بالآهات المكبوتة والتوجّعات الحزينة.. سنوات ثلاث من الصمت والفراغ والخيبة مرت عليها، خنقت روحها بيديها وهي تبحث عن بصيص أمل يعيد لها الحياة.

فردوس التي كانت ذات يوم من صاحبات الوجوه المعبِّرة والجسد الرشيق المتناسق.. أمست اليوم منطوية على نفسها شاحبة الوجه ثقيلة الحركة، وما عاد ينطق منها غير الأوجاع والآلام وغربة النفس والروح.

كالفراشة التي تحوم حول النور حتى تحترق، كانت تدور في أرجاء البيت.. تتداعى الصور أمام عينيها، وتعترف صراحة أن سنوات الغربة قتلت البراءة في نفسها.

كثيراً ما كانت تذكِّرني بالوطن والأهل قبل أن تستسلم لرقادها الخفيف.. أغمضتُ عينيَّ على هالة وجهها الذي بدأ يمتلئ بالتجاعيد، شعرتُ أن ثور الآلام ينطحني بقرنيه، ظللتُ أتكوَّر على نفسي بجانبها، وأتذكَّر كل شيء.. رؤى في آماد بعيدة.. صحراء، نباح كلاب، عويل، عواء ذئاب، وجع، قهر، المجهول الذي يطاردني، اللعنات، الضياع، الذباب، العقارب والكلاب المسعورة.

***

كثيراً ما تساءلت عن اللحظة التي أستطيع فيها الرحيل.. لكني وجدت نفسي أغوص في الرمال رويداً رويداً.. في الصحراء فقدتُ بوصلة السلامة، وتعقَّدتْ مشاعري.. مثل قارب تائه في البحر كنت.. استسلمتُ للموج والتيارات وأنا أنتظر شاطئ الصدفة.. تعودتُ رؤية طيور الصحراء السوداء، كما تعودت رؤية حيواناتها الزاحفة، من الغربان ونعيق البوم في الصباحات الحزينة، حتى الخنافس والعقارب السوداء.. تفاصيل صغيرة وبرقيات خافتة موشَّحة بالسواد في مملكة الغربة التي أعيشها.. في الصحراء تنعدم الرؤيا الحقيقية، فكما يرى المرء السراب ماء، يُرى طائر البوم أكثر جمالًا من الطاووس، ويُرى الغراب أبهى وأجمل من طيور الحمام.

أخيراً وجدت الحل واتخذت القرار.. دائماً تأتي الحلول متأخرة.. تحايلتُ على الأمير وقلت له إني قدّمتُ استقالتي ولن أعود بعد هذا

العام.. وحين انتهت إجازتي الصيفية التي قضيتها في لبنان، عدت إلى مكان عملي الجديد في المنطقة المنقول إليها .

***

(٢٢)

في مكان عملي الجديد شعرت وزوجتي بالاطمئنان والراحة، رغم أني كنت أقيم في المدينة وأعمل في قرية نائية، تبعد عن مكان إقامتي أكثر من عشرة كيلو مترات.. وفي وقت فراغي من الدوام كنت أعمل في تبليط البيوت والأسواق حتى أنصاف الليالي، مما دفع الوزارة إلى نقلي مرات عديدة من مكان إلى آخر في العام الواحد.

تلك السنوات كان أشد ما يؤسفني أن أرى طلاباً كسولين في الصفوف التي أدلفها، وأشدَّ ما كان يزعجني أن لا ينتبه أحد الطلاب إلى الشرح، أو لا يقوم بواجباته المدرسية.. ومع أني لم ألجأ يوماً إلى معاقبة الطلاب جسدياً، إلا أنهم كانوا يضطروني لتأنيب بعضهم أمام زملائهم الآخرين..

أذكر تلك الأيام جيداً، وأذكر أن مدرِّس مادة الرياضيات للصفوف الابتدائية كان غائباً ذلك اليوم، وكان عليَّ أن أحل محله.. شعرت أن أحد تلاميذ الفصل لم يفهم شيئًا مما أقوله أو أعيده على مسامعهم.. كانوا يعيشون لحظة خوف، وكأن على رؤوسهم الطير، ولم أكن أعلم أنَّ حضوري يخيفهم ويربكهم إلى هذا الحد.. جلت بنظري في وجوههم.. بدت صفراء شاحبة.. واحد فقط من بينهم لم يكترث لي، راح يهمس في أذن زميله على المقعد.. تمشَّيت حتى وقفت جانبه.. طلبت منه الوقوف.. لم يأبه لأوامري، ظل يثرثر بكلمات بدوية لم

أفهم منها كلمة واحدة.. تهامس الطلاب وتضاحكوا.. جلت بنظراتي في وجوههم ثانية، فعادوا لهدوئهم ولم ينبس أحدهم ببنت شفة.

ثانية طلبت من الطالب الامتثال لأوامري والوقوف.. لم يأبه الطالب.. شعرت أنه يستفزِّني ويثير غضبي.. سألته عما قاله حتى أضحك طلاب الفصل جميعهم، لم يجب.. اجتاحت كياني ثورة عارمة، ولا أعرف كيف انفعلتُ وصفعت الطالب على وجهه صفعة قوية وقاسية!.. ترنَّح الطالب وكاد يسقط أرضـًا، ومع ذلك لم يجب.. لطمته ثانية.. فجأة شحب وجه الطالب وتغير لونه، انتفخت أوداجه، وبدأ يبكي بكل أحاسيسه ويصرخ بأعلى صوته.

طلبتُ منه الصمت، لم يستمع.. تعالت صرخات الاحتجاج من طلاب الفصل.. كبحتُ جماحهم وخنقت أصواتهم بنظراتي.. تلاشى صوت الطالب أيضـًا.. اختنق في حنجرته.. عاد هدوء الصحراء إلى الفصل.. تهالكتُ على المقعد وشعرت بالندم.. تساءلت في قرار نفسي «ألم تكن هناك وسيلة أخرى أعالج بها الموقف؟!».

خرجت عن موضوع الدرس، أخذت أضاحك الطلاب وأسرِّي عنهم، وفي الواقع كنت بكل جهدي أحاول أن لا يتسرَّب الخبر خارج الفصل.. مازحت بعضهم، وحاولت أن أعيد شرح الدرس.. انتقيت أحدهم وطلبت منه أن يحل مسألة كنت قد توقَّفت عندها سابقـًا.. لم يعرف.. أوقفته جانبـًا وشرعت بحل السؤال أمام الطلاب.. سألتهم إذا كانوا قد فهموا الشرح، علت أصوات بعضهم بالإيجاب.. ولشعوري بالذنب تجاه الطالب الذي صفعته، طلبت منه أن يعيد حل

المسألة على السبورة من جديد.. كان الطالب مرعوباً، وقف يرتجف، طمأنته وابتسمت له، حملق الطالب في السبورة.. تناول الطبشورة وحاول أن يكتب.. رسمت يده خطًّا مائلاً طويلاً.. ارتبك ونظر نحوي بخوف، تماسك واستند على الجدار.. سألته عما به؟.. أجاب أنه يحاول أن يتذكَّر.. نظر نحوي ثانية.. اتَّسعت حدقتا عينيه.. جحظت عيناه وكادتا تقفزان من محجريهما، فجأة تطوَّح جسده وسقط على الأرض محملقاً في فضاء الفصل بلا حراك.

أسرعتُ نحوه، صرخ أحد الطلاب، تسمَّر بعض الطلاب في مقاعدهم وهرول الباقون خارج الفصل.. عمَّت الفوضى المكان.. شعرت أن الصراخ يأتي من كل طلاب المدرسة لا من فصل واحد.. لم أعد أفهم شيئاً!.. صوت واحد كان يصرخ في أعماقي «أنت السبب، ضربته وقمعت حريته، خنقته، منعته من البكاء والتعبير عما يجيش في صدره».

متاهة من الكوابيس غزت أفكاري تلك اللحظة.. شريط مصوَّر وملتبس أفقدني وظيفتي، قادني إلى السجن وضيَّع مستقبلي!.. علامات الاستفهام تداخلت وتزاحمت في ذاكرتي وأنا أحاول أن أعيد الطالب إلى وعيه.. وكما تنتشر النار في الهشيم انتشر الخبر في المدرسة.. اندفع مدير المدرسة والمدرسون داخل الفصل، صرخ أحدهم «مات الطالب».. فقدتُ النطق والسمع.. سارع أحد المدرسين وبلَّل وجه الطالب بالماء.. مرَّت الثواني كالساعات..

تحرَّك الطالب وصحا من غيبوبته.. وعلَّل أحد المدرسين أن هذه الظاهرة ناتجة عن سوء التغذية، وعدم اهتمام الأهالي بأبنائهم.. ومع ذلك ظل شيء ما يهزني من أعماقي، يتهمني ويلقي عليَّ اللوم.. ومع أن المدير تغاضى عما سمع من الطلاب، إلا أني سمعت من أحد المدرسين يعلِّق ساخراً «كان الله في عون الأستاذ إذا عرف أهل الطالب ما حدث معه».

بعد دقائق عاد الطالب إلى مقعده.. فوجئت بالطالب الذي كان يجلس بجانبه قد انتقى مقعداً آخر وجلس عليه، سألته عما دفعه لهذا التصرف، أجاب الطالب إنه يخاف من الموت، ويخاف أن يموت الطالب على مقعده.. نظرت إلى الطالب، شاهدته في سبات نوم عميق.. أيقظته، وبودي لو أغادر الفصل ولا أعود إليه ثانية، لكني وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام هذا الطالب الذي أثقل كاهلي وحدد مستقبلي.. طلبت منه أن يحمل حقيبته ويغادر الفصل إلى بيته، كما طلبت من أحد الطلاب أن يرافقه، ويخبر أهله بأنه وقع في الفصل، وعليهم أن يعرضوه على طبيب.. وأخذت أنتظر أوبة الطالب المرافق بفارغ الصبر.

قرع الجرس معلناً انتهاء الحصة السادسة وانتهاء الدوام المدرسي، ولم يظهر الطالب المرافق بعد.. كنت أرقب باب المدرسة الخارجي وأنتظر هجوم أهل الطالب بعصيهم على المدرسة.. أحداث مماثلة مرَّت.. أحد المدرِّسين صفع أحد الطلاب على وجهه، قال والده إن المدرِّس مزَّق طبلة أذن ولده وأفقده السمع، العين

بالعين والسن بالسن والأذن بالأذن والبادئ أظلم، أو يدفع دية الأذن.. وحين عرضوه على الطبيب، تبيَّن أن الطالب لا يسمع منذ سنوات طويلة.

طالب آخر ضبطه أحد المدرِّسين وهو يدخِّن في الفصل، طلب ولي أمره، وعندما جاء والده هدَّد الأستاذ قائلاً «أنت عليك تدريس الطلاب، وما عليك بتصرفاتهم، ولدي حر يدخِّن أو ما يدخِّن، أنت ما عليك منه».

جاء دوري.. أية تهمة، وأي عقاب ينتظرني!

مرت الساعات بطيئة ذلك اليوم، وطيلة الليل ظللت أتقلب في فراشي أنتظر بزوغ الفجر بفارغ الصبر.. وحين وصلت المدرسة صباحًا، شاهدت الطالب الذي أوصل زميله جالسًا على حجر.. أسرعت إليه وسألته عما قال أهل الطالب.. أجاب «ما قالوا شيء» وانسحب من أمامي.. بقيت طيلة النهار أرقبهم وأفكر بمستقبلي، وما إذا كانوا يتربصون بي أو يقدمون شكوى ضدي.. وعندما عرف مدير المدرسة قلقي، قال «أنا أعرف هذا الولد منذ سنوات، وما يحتاج طبيب.. أهله تعوَّدوا على حالته من يوم ما وقع وانخبط رأسه بحجر وهو صغير يرعى الغنم، يفقد وعيه بعدين يصحى لحاله.. بس ما تعيدها مرة ثانية، حتى لا تتورَّط مع الأهالي وتوقِّفك الوزارة عن العمل».

(٢٣)

سنوات طويلة أتت ورحلتْ، تنقلت خلالها من مدرسة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى بسبب عملي الخارجي بعد الدوام.. ومع ذلك ظلت البدايات في الذاكرة.. جميلة، ورحمة، والديرة، والأمير، والأميرة المزيونة كانوا البدايات، وانغرسوا في الذاكرة..

في الأعوام الأخيرة ابتعتُ أرضاً في الأردن عن طريق صديق لي، كان يعمل في مكتب عقارات.. دفعتُ أكثر من نصف ما أملك ثمناً لها، وبعد أن استقلتُ من عملي اكتشفتُ أن هذا الصديق خدعني بمواصفاتها، ترك المكتب قبل عامين، وهاجر إلى أمريكا.. وتبيَّن لي أن الأرض تبعد عن العاصمة أكثر من ستين كيلومترًا في منطقة جبلية وعرة، ولا تساوي ربع المبلغ الذي دفعته في شرائها.

في غربتي التي امتدت لسنوات عدة، كنت أعمل أعمالاً أخرى بعد دوامي الرسمي في المدارس.. وكما عملت في الدهان وتبليط البيوت والأسواق التجارية، عملتُ أيام العطل والإجازات في العمرة والحج.. كنت آخذ بعض المدرسين لزيارة بيت الله والعمرة، وفي موسم الحج أنقلهم بسيارتي للحج وأحج معهم.

هزمتني الغربة وخذلتني، إنها حالة واحدة من آلاف الحالات التي تم فيها اغتصاب عقول الغرباء وأجسادهم.. حالة مثلَّت لي القهر والوجع الجواني والغربة والضياع والمنفى في بلاد التيه والملح والرمال المتحركة.. تأكد لي ذلك عندما أنهى ابن أحد المدرسين

القدامى دراسته الثانوية، وفوجئ أنه لا يحق له الالتحاق بالمعاهد العليا أو الجامعات الحكومية.. فقط لأنه أجنبي ووافد.. يومها تساءلتُ في قرار نفسي: إلى متى سأبقى غريباً وأجنبيّاً؟!.

ثلاثة مدرسين فقط كنا في تلك القرية النائية تلك السنة، الاغتراب يضع المرء وجهاً لوجه أمام حقيقة نفسه.. فبعض المغتربين يجدون أنفسهم في غربتهم، ويعتقدون أن كل البلاد أوطان لهم، طالما وجدوا فيها متسعاً من الرزق وقسطاً من الراحة.. لكنهم في الواقع يجلدون أنفسهم بهمِّ الغربة، والحنين الدائم إلى مساقط رؤوسهم.

تتقاطر أمواج من بقايا زمن يُنعش ذاكرتي بحكايات قديمة مع زملائي المدرسين ذلك العام، وأحدهم يفضي بما في جعبته عما حدث معه ذات ليلة، قال: قبل أيام جاءني المطوع قائلًا: «يا أستاذ، أنت تعرف إنك لازم تداوم على الصلاة في المسجد، خاصة صلاة الفجر، وأنت تغيب عنها كثيراً.. أنا ما بغيت أقول للأمير عنك.. أنصحك تداوم على الصلاة عمود الدين».

أضاف الأستاذ بأنه اعتذر للمطوع وأخبره أنه كان مريضاً، وأنه يصلي لله وليس ليراه أحد.. فقال المطوع: «الصلاة في المسجد تزيل عنك المرض يا أستاذ، أبغى أشوفك بناظري الليلة عند صلاتي المغرب والعشاء».. وأثناء حديث المدرس كان يقلِّد صوت المطوع الخشن.

أضاف الأستاذ بأنه حدث نفسه بأن يذهب تلك الليلة وقت إقامة الصلاة، يدخل ويسلِّم والمصلون قائمون حتى يراه الجميع، وما إن وصل عتبة المسجد حتى انقطعت الكهرباء فجأة، ولم يره أحد.. في الصلاة وجد نفسه يصلي ويضحك.. فما جاء هذه الليلة للصلاة، وإنما ليراه المطوع والرجال، لكن لم يشاهده أحد.

أما أنا فلي حكاية أخرى في القرية.. فذات يوم جمعة كان المطوع الذي يخطب خطبة الجمعة ويئم بالمصلين غائباً خارج القرية، التفت أحد المصلين نحوي وقال: «أنت يا أستاذ.. أنت تفهم القراية والكتابة.. قم وألقِ درس الجمعة».

صعدتُ المنبر الذي يرتفع عن الأرض حوالي النصف متر، وألقيت خطبة ارتجالية استمرت لنصف ساعة، والرجال شبه نيام، شعرت أن أحداً منهم لم يفهم شيئاً مما قلته على مسامعهم.. بعد الخطبة وإقامة الأذان الثاني للصلاة بدأ المصلون يتهامسون، ويهمهمون همهمات خافتة.. قدَّموا بعدها ابن المطوع الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره إماماً لهم، وحجتهم أني ألبس ثياب الأجانب، وأحلق لحيتي.. فمن شروط الإمام أن ينظف أسنانه بمسواك، كما يطيل لحيته، ويلبس ثوباً يرتفع عن كعبه بمقدار شبر.

وعلَّق أحد المدرسين بعد خروجنا من الصلاة قائلاً: ما يغيظني أن بعضهم جهلة، ويعتقدون أنهم يفهمون الدين أكثر من غيرهم!

تلك الليلة وبينما كنت أسهر مع الأستاذين، طافت بذاكرتي الحياة التي كنت أعيشها قبل مجيئي للعمل في هذه البلاد.. شعرت أني أبحر في أمواج عاتية وسط الظلام.. تساءلت في قرار نفسي: «إلى متى سيستمر صمودي؟».. فراشات أمام ناظري راحت تحوم حول المصباح، تحترق وتتساقط واحدة بعد الأخرى.. قلت «أشعر أني أحتضر في الغربة، مثل سمكة مرمية على شاطئ البحر أو على الرمل الحار لتموت.. ذاكرتي التي كانت ترحل حتى إلى رحم أمي، نسيت استعمالها وأنا أدرِّس ألف باء تاء للصفوف الابتدائية، أنا أنهيت الدراسات العليا وعدت للصفر، البطولة الوحيدة والممكنة لمن هو مثلي هي الهروب من هنا والبقاء حيّاً.. سأستقيل، لم أعد أحتمل.. ملعون أبو الغربة التي تدفع المرء إلى الانتحار البطيء والشلل الفكري.. في هذه البلاد عدت بدائيّاً، وما جنيته طيلة سنوات الغربة، سأدفعه خلال أيام على صحتي لإعادة ترميمها من جديد بعد العودة».

قال زميلي وكأنه يلتقط فكرة جديدة: «لا ليس هذا الحل، ولا يمكن أن يكون استقراراً، الاستقرار الحقيقي لمن هو مثلنا حين يُمدَّد جسده في قبر، ويهيلون عليه التراب، سأعود للوطن وأموت هناك، الداخل مفقود والخارج مولود».

شعرتُ أن زميلي يائس ومتشائم حتى الثمالة من هذا الوضع.. نادم على غربته التي لم يحقق منها غير المرض، أضاف بأن «الوافدين

هنا أشبه بطيور النورس التي تعيش على الشطآن والبحار وملاحقة السفن.. تموت إن هي تركت مناخها الطبيعي لأعوام عديدة!».

في محاولة للحد مما كان يعانيه زميلي تلك الليلة، قلت له مازحـًا: «لقد جعلتك الغربة فيلسوف عصرك».. تنهَّد وكأنه لم يسمع وأضاف: بالأمس سألني أحد الطلاب عن معاناتي بعد أن لاحظ شرودي أثناء الحصة.. قلت له بأن الراتب الذي آخذه من الوزارة هو بدل موافقتي على الحياة في الغربة، أي أنه بدل قبولي منفاي الاختياري، لا بدل تعليم الطلاب.

زميلي دفعني تلك الليلة لأستعيد قراءة نفسي.. شعرتُ أني صفحة صفراء مطوية ومطحونة.. كان يتحدث عن وجعه الجواني، ودفعني دفعـًا نحو عواصف الحنين والانكسار التي هبَّت على أفكاري فجأة.. وحين غادرته كان قد حمَّلني أعباءه وهمومه المخبوءة تحت مسامات جلده.

***

في بيتي رحت أتمشى في الغرفة.. قفزت صورتي إلى المرآة، لم أصدق ما رأيت!.. كنت أرتدي وزرة سوداء تتخللها خطوط عامودية زرقاء.. للمرة الأولى أشاهد جسدي محروقـًا من لظى الشمس..

تمعنت صورتي ثانية، لحية طويلة ووجه أسمر محروق.. شعر مجعَّد ومشعَّث.. تراجعت إلى الوراء.. تحرك الجسد التائه وابتعد إلى الوراء أيضـًا.. المرآة بدت معتمة بظلال خافتة.. حدَّقت النظر وبحثتُ عن عقلي.. كان هناك وشم حفرته السنون وذاكرة تحت الصفر.. بدت الأفكار سرابـًا ودخانـًا.. أحسستُ أني أعيش في كوكب آخر بعيداً عن الأرض في مجرة لا يراها المرء إلا في أحلامه!.. وحين نظرت في وجهي ثانية، رأيت الأقرع يحدِّق في المرآة.. أنا الأقرع الثاني في الحياة!.

شعرتُ أني أدور في دائرة مغلقة، لا أعرف كيف قفزت إلى ذاكرتي حكاية الثور الذي يدور حول الرحى وهو معصوب العينين لا يبرح مكانه!.. تذكَّرت حكاية الحمار الذي شاهدته قبل أيام عدة يحمل برسيمـًا على ظهره وتصدمه سيارة.. وعندما وقع وسط الطريق تناسى جروحه وأخذ يأكل البرسيم الذي وقع أمامه.. تذكَّرت سنوات العمر التي انقضت هباءً منثوراً.. كما تذكرت حكاية جبر التي سمعتها من والدي منذ طفولتي، وما زلت أحفظها عن ظهر قلب.. يومها قال إن شخصًا يدعى «جبر» زار إحدى القرى، وقبل أن يدخلها شاهد أهلها يتجمعون قرب المقبرة، فشاركهم جنازة فقيدهم، وجلب انتباهه ما كان يُكتب على القبور.. «فلان عاش ساعتين، فلان عاش يومين، فلان عاش خمس ساعات».. وهكذا.. استغرب الأمر وسأل أحدهم عما يُكتب على شواهد القبور، فقيل له بأنهم يحسبون الساعات أو

الأيام أو السنوات التي عاشها الإنسان سعيداً في حياته.. وهذا ما يُحتسب من عمره فقط.. فقال له: إذا شاء القدر وأتاني الأجل في قريتكم، فاكتبوا على شاهد قبري «هذا قبر جبر.. من بطن أمه للقبر».

أحسستُ أني أمضيتُ عمري في الفراغ، في غربتي «منفاي الاختياري» تراجعتُ ثقافيّاً واجتماعياً سنين إلى الوراء، الغربة خرَّبتني من الداخل، بعد أن عشت قصصاً أشبه بالخيال وحكايات ألف ليلة وليلة، وكلمات الأستاذ ترن في أذني وهو يقول «الداخل مفقود، والراحل مولود».

أخيراً تذكرت الفراشة التي تثقب شرنقتها الحريرية، وتنطلق إلى الفضاء تبحث عن الحرية..

دائماً تأتي الأفكار والحلول متأخرة..

في الوطن، يشعر المرء بالأمان.. بلادي هي الأمان.

الحنين إلى الوطن دفعني إلى البدايات، تماماً مثل سمك السلمون، ذلك النوع الذي يسبح ضد التيار في البحار، ليعود إلى منابعه التي وُلد فيها، ليموت هناك بسلام.. ما أجمل الوطن! الزهرة تذبل، الحياة تذبل، لكن الحنين إلى الوطن لا يذبل.

كان المدى فارغاً والبيوت صامتة، رمال وكثبان.. سراب وصحراء.. لا رعد ولا مطر يُبلِّل الذاكرة وينعشها، آهات تسابق حسرات.. حسرات تتراكم وتندفع من الماضي إلى الحاضر..

الماضي ندم، الحاضر شيخوخة، والمستقبل مجهول.. تقطَّن شعر الرأس وتغير لون البشرة إلى الاصفرار.. اللون الأصفر هو نهاية المطاف، والأبيض نهاية الذاكرة.. اختزنت ذاكرتي معالم البياض وسافرت إلى مكان بعيد.. بدت ذاكرتي فارغة.. ذاكرة بلا مكان أو زمان، تعني ذاكرة للمرور بلا إشارات ضوئية.. لكن من يبالي! لم أتعود التوقف على الأطلال واجترار الذكريات.. مقاهي الأرصفة، سهرات الأصدقاء، المحطات الليلية، أحاديث السياسة الجوفاء، الزوغان من الرصاص الطائش في بيروت، الالتحاق بالثورة والمقاتلين، كل ذلك أرحم من الغربة، الوظيفة قيود وسلاسل، الأعمال الحرة بلا قيود حرية، العودة إلى مسقط رأسي والاستقرار حرية.. الاستقالة كانت الحل، وكانت الحرية.

***

(٢٤)

لا أدري كيف تشعب الحديث في ذاكرتي! حاسة الزمن تلاعبت بذاكرتي وأنا أشق طريقي من عمان إلى بيروت، نسيت الموضوع الذي بدأت به ودفعني للذهاب إلى القاهرة.. فأنا ما زلت حبيسها أطارد هدفًا مجهول الهوية.. في القاهرة كثيراً ما كنت أجالس رواد الفندق الذي أقيم فيه، الفندق محطة للغزيين أكثر من الأجانب.. أما مالكه فهو من غزة أيضـًا.. تعرفت عليه ورافقته إلى الأرياف مرات كثيرة.. ذات ليلة وبينما كنا نسهر في إحدى المزارع الخاصة به في الشرقية.. قال مازحـًا بأن في مزرعته أرملة تريد الزواج، ودعاها للحضور.. امرأة في الأربعينيات من عمرها، وقفت أمامنا والمطواة «سكين كبيرة» تتدلى على جنبها من حزام يلف وسطها.. قالت بأنها تتحدى أي إنسان إذا كان قد مس شرفها بلمسة أو كلمة بعد وفاة زوجها، ثم نظرت إلينا وأضافت «إذا عايز واحد منكم يخلص من مراته أنا على استعداد أتزوجه وأخلّصه منها».. وضحك الجميع.

في القاهرة كنت أغرق ولا من منقذ.. شعرتُ أن كل عاملات الفندق يعرفن حكايتي، ويردن ابتزازي بأية طريقة.. فردوس كانت تتربع في كياني كل ليلة، أستجلبها من عمان، أضعها في كأس عصير وأتجرعها حتى الثمالة.. وأتساءل: طالما وُجد كل هذا الحب فكيف يحرمني القدر منها؟!، تبتسم أمامي، تبكي، تجتر ذكريات سنوات قضيناها في الغربة بعد رحيلنا من لبنان.. تحاول نسيان الماضي بعد أن أتعبها الترحال، لم تعد حياتنا في الغربة قصيدة وجدانية.. في الغربة

تقبَّلت فردوس الأمور وكأنها قدرها الذي لا تستطيع الانفكاك منه، وما بين فترة وأخرى كانت تنهش ذاكرتها بالماضي، تُبحر في دموع الشوق لرؤية الأحباء الذين تركتهم في بيروت، تشعر باليأس أحيانـاً كثيرة، لكنها لم تكن تتذمَّر أمامي، صارت البئر التي أطرح فيها أسراري، ألمي وكل توجُّعاتي، وهي تزفر الآه بعد الآه.. أشعر أني حمَّلتها همَّ غربتي وتشرُّدي.. ومع أني كنت أشعر باليأس أحيانـاً كثيرة، إلا أني كنت أشعر أني ما زلت أمتلك دموعـاً تختزن شهوة الإبحار في عينيها.. فردوس كانت تُقيِّدني بالأمل وتدفع عني اليأس، تتجدَّد وتمنح بلا حدود.. في الليل تحتضنني كطفل، تلمسني بحنان مطر ينعش خريف جسدي الذي أنهكه الترحال، تغوص في عمق تفكيري، وتبحث في عينيَّ عن سر وحكايا حب قديم جمعنا، تُغرِّد أهدابها على وجهي، تتماوج خصلات شعرها وترتخي على صدري مثل دخان بخور.. تتألم وتنتحب بصمت، تحتضر وتموت أيضـاً بصمت، وتهمس على صدري «تموت المرأة إذا توقَّف زوجها عن حبِّها».. وهذا ما كان يؤرقني، ويجعلني على الدوام أحس بيأس أني أعجز عن إسعادها.. وعندما أقترب منها أحاول الفرار من الخيبات التي تلاحقني، أشعر أن كابوسـاً يداهمني ويلغي كياني ورغباتي، فألوذ بطلباتي الكثيرة وأطلب منها أن تعدَّ لي فنجانـاً من القهوة.

***

بعد أكثر من عشرة أعوام من القهر والغربة، وبعد أن أتعبني

الترحال، عدت إلى الأردن. كان قد مضى أكثر من خمسة عشر عاماً لم أطأ أرضه ولم أكحل عينيَّ برؤياه.. كنت في غربتي أمنِّي النفس برؤية الأقارب، وأحلم بالاستقرار وسط الأهل والأصدقاء.. كم كنت مشتاقاً إلى شوارع عمان وأرصفتها ومقاهيها ومتنزهاتها، طرقاتها وتسلق جبالها الوعرة والسهلة، التمشي وسط العاصمة عبر شوارعها المنبسطة!.. سنوات طويلة كنت خلالها أحلم بالعودة إلى الوطن لأمارس فيه إنسانيتي وتحقيق بعض من مواطنيتي.. في غربتي كنت أعيش جسداً بلا روح، عقلي وقلبي وتفاصيل أحلامي كانت تتخمر بين ثنايا الوطن.

عمان تغيرت كثيراً، رحتُ أتجول في شوارعها وكأني مولود جديد.. بدت حارتي القديمة كعالم مفقود، أخذتُ أتأمل جزءاً مضى من حياتي ولن يعود.. شدتني الأماكن بجاذبية وقوة خفية لم أستطع الفكاك منها.. قادتني قدماي إلى مسارب تؤدي إلى حديقة رأس العين التي كنت أراها دنيا كاملة، عالماً، ذكريات الطفولة والشباب قلَّما تُنسى.. تغيَّر كل شيء، لم يبقَ شيء على حاله.. سيل عمان اختفى، انتقل سوق الماشية إلى أرض بعيدة شرق عمان، تأملت المكان جيداً، المسارب صارت شوارع عريضة، سقف السيل تحول إلى صرح ثقافي، انبثقت أمانة عمان كمعلم حضاري وسط الساحة الكبيرة، الحديقة صارت حدائق علم وثقافة وحدائق ورد ونخيل.

جيلي تخرَّج في الحياة ومضى في حال سبيله، لم يبقَ غير الذكريات، الذكريات تجر بعضها بعضاً، رحت أتأمل مدرسة

العباسية التي غاصت بين البيوت الجديدة.. الشيخ الذي كان يعلمنا القراءة والكتابة والحساب في خيمته القديمة قرب سور المدرسة ما زال في الذاكرة.. رحت أتجول ثانية وأتأمل العمران.. العمارات الجديدة قامت وسط حي المهاجرين وحاصرته من كل الجهات.. هدوء المسارب والدروب والشوارع الضيقة ولَّى منذ زمن بعيد.. كل الشوارع صاخبة ومزدحمة، تاهت نظراتي.. منذ طفولتي وأنا أحب حياة التأمل ولحظات الصمت الهادئ، ولو خيَّروني لاخترت أن أعيش نصف عمري في هدوء وتأمل، على أن أعيش عمراً كاملًا في ضجيج وهرج.. تأملت وجوه المارة، شحنتني الذكريات.. حدثت نفسي، كل وجه يخفي أكثر من حكاية، تاهت الوجوه في صخب الحياة، وعبست.

شددتُ قامتي حتى لا أبدو أحدب، وسرت بخطوات ثابتة باتجاه وسط العاصمة، وفي ذاكرتي أغنية قديمة من أغاني سيد درويش «سالمه يا سلامه، رحنا وجينا بالسلامة».. أسراب من المشاة تموج أمام ناظري، عمال، وأصحاب شعور مسترسلة، وصبايا بعمر الورود ترتدي بناطيل جينز زرقاء.. أمشاج من البشر ينوء الشارع بحملهم.. تغيرت عمان كثيراً كما تغيَّر ساكنوها.. انفضَّ جراب الذكريات في رأسي ونفض عنه غبار الزمن.. سوق السكر وسوق اليمانية وبائعو الباله وسوق البخارية ومحلات بيع الكتب التي تحيط بالجامع الحسيني كسوار مزركش ما زالت على حالها.. توقفت عند مدخل شارع بسمان حيث كنت أقف وأبيع بطاقات المعايدة في الأعياد

والمناسبات وأنا في الصفوف الإعدادية والثانوية.. شعرتُ بشبابي يعود إليَّ، حدثت نفسي «عمان ما زالت عروس العواصم العربية». ذكرياتها عطر يداهم لحظات فكري ويطارد أحلامي.. صور قديمة ما زالت تحتل ذاكرتي، عادت الصور وتجسَّدت أمام ناظري من جديد.. اختفت المعالم الجديدة ورأيت بأم عيني ما تزخر به ذاكرتي.. كشك بائع الكتب «أبو علي» ما زال قائماً جانب البنك العربي وسط المدينة، بائع الفول السوداني ما زال في مكانه قرب سوق الصاغة، ودخان خفيف يتصاعد من مدخنة عربته الصغيرة، وجهه الأسمر امتلأ بالتجاعيد، لكنه بدَّل أحزانه بابتسامة صافية، حافظ على وقفته، كبر وغدا جَدّاً، ولا زال يلف القراطيس بشكل مخروطي ويحتفظ بمكانه، حدثت نفسي ثانية: «كم هو رائع الاعتزاز والالتصاق بالمكان!». ابتعتُ منه قرطاساً من الفول السوداني، وتمشيت قرب سينما فلسطين، تذكرت كيف زغت ذات يوم عن المدرسة مع بعض الزملاء لنحضر فيها فيلم عنتر بن شداد، وفيلم فتاة الطبيعة والعبيد.. درت بنظراتي ورحت أتمشى وأتأمل الأمكنة من جديد.. وقع نظري على امرأة تلف جسدها بعباءة سوداء، تجلس على رصيف جانبي، وتبيع علب الدخان والعلكة والبخور، جلستها ذكَّرتني بفتاة أحلام يوسف في بيروت.. تأمَّلتُ بسطتها الصغيرة المفروشة على الأرض، وابتسمتُ لطفلها الصغير الذي يجلس قربها يرقب المشاة، في تجاوب ملائكي ابتسم لي الطفل ببراءة، وسلَّط عينيه على القرطاس.. مددت يدي وناولته القرطاس بما فيه، شعرتُ أن هذه البسمة تساوي الدنيا وما فيها، ابتسمت له من جديد، وراحت ذاكرتي تدغدغ أحلامي، وأنا

أتمنى طفلاً مثله يملأ فراغ بيتي.

***

في الليل وأنا أستعيد ابتسامة الطفل، استلقتْ فردوس على الفراش جانبي، ورحلتْ مع باقة من الأحلام الوردية إلى عالم الشوق المبعثر.. التلفاز يبث مسلسلاً لا أتابعه، العالم بدا لي أقل مساحة من السرير الذي أستلقي عليه، بعد أن عرضتُ فردوس على طبيبة نسائية للعقم وعدنا للبيت.. مضت فترة سكون وكلانا يُبحر بين الأمواج المتلاطمة بسفينة مثقوبة، اختلطت الألوان بالأحلام والظلال.. حدَّقتْ في وجهي وقالت: أما زلت تحبني؟.

لم أجب، صوت التلفاز كان يقلقني.. سمعتها تهمس ثانية: «لماذا تغيَّرت؟».

لم تساعدني الكلمات، هربتُ بنظراتي إلى سقف الغرفة، أسبلت عينيها وحاولت أن تخفي دمعة الحزن الثقيلة التي أندت الوسادة.. قطعتْ حبل الصمت الذي يجمعنا وقالت بنبرة حزينة: أريد أن أعرف إذا كنت تحب غيري!.

لا أعرف كيف أجبتها «إني أحب طفلاً في مخيلتي وأتوق لرؤيته على صدرك!».

كشلال يتساقط من قمم الجبال أسقطت دموعها، ولاذت بالفرار

تغمر وجهها براحتيها، قائلة بصوت عميق وبعيد: وهل تعتقد أني لا أموت في اليوم أكثر من ألف مرة من أجل رؤية ذلك الطفل!، لكن ليس بيدي حيلة.. ثم أدارت ظهرها لي وكأنها تغلق مكامن الحس باللامبالاة، وأضافت: تزوج، ابحث عن غيري، أشبع رغبتك.

لم يعد للكلام أي معنى، انسحقت أفكاري كشلال دم يتدفق من جوف رحم إلى أعماق أمل متعثر.. غرقتُ في الأماني المحطمة عبر بحور السنوات الماضية، وبدورها غرقت في بحور من الدموع والآهات، وهي تتجرع امرأة جديدة في حياتها..

كثيراً ما قلت لها إن بها يمتلئ المكان والزمان، تزدهر الأحاسيس وتتلون.. لكنها تلك الليلة دفعتني لأسرح عبر باقة من الذكريات، ورائحة عطرها عبق نرجس يملأ أنفاسي.. قالت وهي تمسح دموعها براحة يدها بأنها تحس بالحزن يرشح من شقوق الجدران، وأنها تبحث عنه في صحارى مجهولة المدى يملؤها السراب.. شعورها بالوحدة أغرق المكان بالكآبة والضياع، وراح كل منا ينظر إلى الآخر من خلف ستار داكن، وفي داخله آلاف الجمل المنهارة من ذلك النوع الذي يتهشم في الحنجرة، ويتعثر به اللسان قبل أن يدق طبول المسامع.

«نبيلة» التي تعرفت عليها بعد استقراري في عمان، كانت الوردة البديلة وابتسامة الطفل المنتظر.. تخرّجت من الكلية العربية، وجلست في بيتها تنتظر الوظيفة.. أفكاري كانت تتشابك مثل جذور غابة.. تساءلت في دخيلة نفسي «هل أنا حقّاً بحاجة إلى طفل، أم هي

مبررات أختلقها لاستبدال امرأة بأخرى.. وهل حقّاً باستطاعتي أن أستبدل امرأة تتمزق بابتسامة طفل؟!».

في غمرة الضباب الذي ملأ جو الغرفة حضر وجه فردوس متعباً ضارعاً، ولاح لي وجه نبيلة حزيناً.. امتزج الوجهان داخل عينيَّ وصدري في عالم غريب مسحور.. بدت الأولى مطوية كجنين في رحم أمه، وجهها يضفي كآبة على وجه أمومي آخذ بالانحدار والتهدل، تطوقني بذراعيها وتنشج، وأنا أكفكف دموعها حانياً مجروحاً بعجزي أمام حبها.. ونبيلة تمخر في ذاكرتي بثياب عروس، كملاك يحملني إلى عالم الأحلام.

في منام قديم جاءتني نبيلة، أنقذتني من كوابيس أفكاري المعتمة، وحملتني على جناحيها إلى عالم كله مروج خضر، وكنوز تلمع بعيون الأطفال، ثم ذابت كالملح في الماء بعد أن زرعت زهوراً في حياتي، وقطعت عنها المياه.

قلت لفردوس ملايين المرات إني مفتَّت من الداخل، مبعثر، موسوم بلعنة الزمان وحب الأطفال.. قالت بأنها راضية بنصيبها، وتريدني كما أنا.. تساءلتُ في قرار نفسي «ألا يمكن أن تُختزل الطريق، قبل أن تتربع في سريري الشريكة البديلة!».. كنت أقاسي الاختيار الصعب.. المرأة الحبيبة أم الطفل الحبيب!

قالت والسخرية تملأ جوارحها: أتعرف صاحبك محمود؟ وقبل أن أجيب أضافت: زوجته حبلى وهي ترضع في الشهر الرابع.. أجبت:

وماذا في ذلك؟ كل نساء الأرض يحبلن ويلدن.

قالت: ليس في ذلك عجب، لكن العجيب أنها ستدخل المستشفى لتقوم بعملية إجهاض.. وأضافت وكأنها تحدث نفسها: يا لسخرية الأقدار!

جال بذاكرتي صاحبي محمود، وتذكرت ما قالته فردوس عن يوم ولادة زوجته.. فردوس كانت حاضرة تلك الليلة عندها، قالت بأن امرأة خبيرة بأمور النساء والولادة وصفت لها طريقة للحمل لمن يتأخر حبلها، ولم تنجب بعد، وهي أن تضع مولوداً حديث الولادة قبل تنظيفه في صدرها تحت ملابسها وتمرره تحت ثيابها، ثم تلتقطه من بين ساقيها، وبعد تنظيفه تغتسل بالماء الذي تم تنظيف الوليد به.. وعندما سألتها إذا كانت قد فعلت ذلك، لاذت بالصمت ولم تجب غير الدموع.

تركتها ورحلتُ بأفكاري إلى عالمي الخاص.. شعرتُ أني عاجز تماماً أمام دموعها.. غريبان في سرير واحد، يجمعنا رباط الزوجية وتفرقنا ابتسامة طفل!

أحزاننا تلك الليلة كانت أكبر من الأحلام، وباتت الدموع هي الإمكانية الوحيدة لمقاومة الانسحاق تحت أقدام الهزيمة باستمرار، غمرتْ رأسها بالوسادة، وسمعتها تقول وكأنها تحدث نفسها «آه، كم هي الأسرار كبيرة، وكم مرة يستطيع الإنسان فيها اجتياز لحظات ضعفه، آه، كم تحمل هذه المخدة من هموم!».

***

(٢٥)

والدي كان يعاني مرضـًا عضالاً تلك الأيام، كثيراً ما تمنى لي الخلف الصالح ودفعني إلى التفاؤل والأمل، وأن لا أقنط من رحمة الله، وكثيراً ما كان يدعو لفردوس أن يكرمها الله بدزينة صالحة من الأولاد.. كان وهو على فراش مرضه يفكر بنا، ويحرص علينا أكثر من حرصه على صحته، يتمنى أن يرى أنجالي قبل أن يوافيه الأجل.. لم أترك طبيبـًا إلا وعرضته عليه، تفرغت له وتناسيت عملي وزوجتي.. بعد فحوصات كثيرة وإجراء عملية له تبين أنه يعاني من ورم خبيث في البروستات، مما دفعه للركون والاستسلام لقدره وانتظار أجله.

ذات ليلة من ليالي رمضان، وبينما كان يغط في نوم عميق.. شاهدتُ والدتي تنحني عليه وتستنشق ملء صدرها أنفاسه، خمَّنتُ أنها تفعل ذلك بدافع الأمل أن يكف الموت عن افتراسه، ويبتعد عنه.

في ليلة تالية زأر الموت وطوَّح بجسده وكأنه عاصفة رملية، تأرجح رأسه فوق الوسادة، واختفى وجهه تحت ظلال صفراء.. همست والدتي في أذني «الله يستر، أرسل لإخوانك ليعودوا من غربتهم، ويراهم والدك قبل أن يصيبه مكروه»، ثم قامت ومسحت وجهه بمنديل، رطَّبت شفتيه بسبابتها المبلَّلة بالماء، ومضت تهلِّل له كالأطفال.

مكث والدي صامتـًا برهة طويلة، اغرورقت عيناه بالدموع،

وعندما تكلم لم تنمَّ بحَّة صوته عن البكاء.. قال لها: لا أدري كيف ستتدبِّرين أمورك عندما تصبحين أرملة!.

لم تجرؤ والدتي على النظر في عينيه، قالت والحشرجة تملأ صوتها «وحِّد الله.. الله يجعل يومي قبل يومك»، وتمنت أن يسلبها روحها بدلاً منه.. قال «أنا لا أخاف الموت، لكني أراه يقترب».. والدي كان يتألم كثيراً، ومع ذلك حاول بكل طاقته أن لا يذكر اسم أخي الشهيد أمام والدتي.. عرفتُ ذلك من خلال نظراته المسلطة على صورة أخي المعلقة على الحائط المقابل له.

ما زلت أذكر والدي بلحيته البيضاء ووجهه الحنطي.. جسده النحيل وأهدابه الكثة وشعره الفضي.. وما زلت أذكر حزامه البني العريض الموسوم بنجمة خماسية وهلال ذهبي اللون، نظارتيه السميكتين بلونهما الأبيض وإطارهما البني، يجلس قرب الباب آناء الليل وأطراف النهار محني الظهر، والمصحف الكبير بين يديه يقرأ القرآن.. وحين كنت أجلس جانبه، يغلق المصحف ويتوقف عن القراءة، يعيد على مسامعي قصة يوسف مع إخوته وأبيه، وقصة يعقوب وقصة زكريا، وكذلك موسى مع قومه والبقرة الصفراء وعجل هارون، والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن.. ولا يفوته قصة المسيح عيسى ابن مريم العذراء، وقصة رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء، ونزول الوحي والواجبات الدينية.. ويزفر كزفير الأموات وهو يمسح دموعاً تسيل على وجنتيه وهو يتحدث عن الوطن، يتذكر يوم الرحيل عنه، يقول «كأهل سبأ بعد انهيار سد

مأرب، تفرق الأهل والأحباب في بقاع الأرض، وما كان أحد يتصور أن الرحيل عن الوطن سيطول ويمتد إلى عشرات السنين، لكنه طال رغم الأمل الذي زرعه الآباء في الأنجال والأحفاد.. الأمل في وجه الله، الأولاد لم يعودوا يعرفون قيمة الأرض التي تربينا عليها، ورويناها من عرقنا ومن دمائنا، ربما يأتي جيل من أولادهم أو أحفادهم يعيد الحق ويعود إلى الوطن».. يحلم بالعودة، يرفع رأسه ويديه إلى السماء، يبتهل إلى الله ويدعوه أن لا يميته إلا على تراب فلسطين، وأن لا يدفن إلا في أرضها بعد أن يصلي في المسجد الأقصى.. ووالدتي تشاركه في الدعاء، تتأوه وتقول «انخلع الباب وتفرق الأحباب، يا ولداه! أصبح كل حي في دنيا، حتى الأخ لم يعد يرى أخاه، ولا الوالد يرى ابنه».. وحين يطوح والدي نظره على الجدار المعلَّق عليه صورة أخي الشهيد، يذرف الدموع من جديد، ويقول إنه استشهد في سبيل الوطن ولم يكحل عينيه برؤياه.

لم تُخفِ والدتي دموعها عن والدي تلك الليلة، ولا أعلم إذا كانت والدتي تبكي قرب أجل والدي أم استشهاد أخي، لكني أقنعتُ نفسي أنها تبكي على نفسها بعد رحلة العمر الطويلة مع والدي، وفي ذلك شيء من الحقيقة.. فكثير من النساء اللاتي عشن بسعادة مع أزواجهن أصبحن وهن أرامل فقيرات يائسات.. فإذا مات العائل تمسي لقمة العيش حلماً، وتمضي المرأة وحيدة مكسورة الخاطر بعد أن يهجرها الأولاد، يتأبط كلٌّ منهم امرأته ويرحل إلى بلاد الله الواسعة.

عادت والدتي ومسحت وجه أبي.. توهَّج وجهه، بدت شفتها السفلى شاحبة ترتجف.. رسم ابتسامة وحاول أن يقول شيئًا عن المودة الصادقة، بيد أن الكلمات بدت وهو في حالته هذه عديمة القيمة.. أعماقه كانت تصرخ، وبدا على وجهه أنَّات مخنوقة.. همس بصوت مجروح «لم أقطع فريضة ولم أترك صلاة، وها أنا أقابل وجه ربي..».

لـم تدعـه يكمـل، وضـعت راحتهـا علـى فمـه والتصـقتْ بجسـده.. أخفت دموعها وقالت:

- وحِّد الله.. لا تنفعل، أنا بجانبك، وسأموت قبلك بإذن الله.

قال بصوت حالم: لا إله إلا الله.. لا تبكي ولا تريني دموعك الغالية.

همست في أذنه: من يوم ما وعيت على هذه الدنيا، لم أعش أيامـًا أحلى من التي عشتها معك.. آه لو أستطيع أن أفديك بعمري!

صمتت لحظة.. قفزت دمعة من عينيها. أضافت: كيف بدّك ما أبكي!.

أدار والدي وجهه جانبـًا ولـم يتفوَّه بحرف.. تعكَّر صفو عينيها.. أضافت: ستعيش بإذن الله.. الله لن يتخلى عني وعنك وعن عباده الصالحين.

- الأطباء ملاعين.. كل طبيب يعطيني دواء شكلاً، ويصف لي وصفات جديدة، وأنا لا أعرف من أصدِّق!.. إنهم غير

صادقين.. يقولون بأني سأعيش، وأنا أعرف أني سأقابل وجه ربي بين لحظة وأخرى.

لم تتفوَّه والدتي بكلمة.. طلبت من والدي أن يقرأ القرآن في سريرته، وراحت هي الأخرى تقرأ ما تيسَّر لها وما تحفظه من الآيات القرآنية.. ومع ذلك ظلَّ والدي ثلاثة أيام متتالية يعاني من سكرات الموت، يحرِّك يده، ويشير بسبَّابته إلى المصحف الموضوع داخل الحقيبة المعلَّقة على الجدار، قرب صورة ولده الشهيد.

تناولتُ المصحف من الحقيبة المعلَّقة على الجدار، وجلستُ قرب رأسه أقرأ القرآن.. كان ممدداً في فراشه، مغطى بحرام صوفي بني اللون مرسوم عليه صورة أسد، ولم يعد يظهر من جسمه غير وجهه الأصفر الشاحب ولحيته الكثة البيضاء.. أما والدتي فكانت تسند ظهرها للجدار وتخفي ساقيها تحت الحرام، لا يفصلها عني غير وجه والدي.. الوقت كان يقترب من صلاة العشاء، نور المصباح كان باهتاً يميل إلى الاصفرار، ورغم حرارة الجو الصيفي إلا أني شعرت بنسمة باردة تسري في عروقي، انتابتني قشعريرة، بدت الغرفة كئيبة وخزانة والدي بخشبها الأصفر القديم مهترئة.. كان المصحف بخط كبير وواضح.. أوراقه صفراء من الحجم الكبير، قرأتُ سورة ياسين، ثم انتقلت إلى سورة الكهف.. كنت أقرأ وأرقب أنفاسه.. أدار وجهه قبالة وجهي.. راحت أنفاسه تتهادى وتخفت، شعرت أنه يغط في غيبوبة نوم وراحة.. بدا تنفسه الضعيف لا يكاد يحرك الشعيرات الكثة المتطاولة من شاربيه الغليظين.. فتح عينيه وراح ينظر إلى وجهي..

أخذت حدقتا عينيه تتَّسع.. شعرت أنه لا يراني ويحدِّق في الفراغ.. بدت لي عيناه مثل بحيرة ماء هادئة صافية ألقي بها حجر، فانطلقت دوائر صغيرة تتَّسع وتتلاحق بصمت مخيف.

ليست المرة الأولى التي أشهد فيها فصلاً من فصول الموت، فقد سبق وشاهدته في بيروت وجنوب لبنان أكثر من مرة، أشلاء أخي ما زالت في ذاكرتي.. لكنها المرة الأولى التي أشهد فيها الموت عن قرب.. كان ملاك الموت حاضراً، يتمدَّد فوق جسد والدي الضعيف حينـًا، ويمشي مختالاً يتبختر بيني وبينه أحيانـًا أخرى.. أحسستُ به يلامس جسدي مثل نسمة هواء، وبدت رهبة الموت أقوى وأشد من أي احتمال.

والدي كان هادئـًا، ووالدتي تبلِّل سبابة يدها وترطِّب بها شفتيه.. رفعت رأسها عن وجهه وقالت بصوت مخنوق «أنت الحي الباقي يا ألله، الحمد لله على ما أصابنا، منك العوض وعليك العوض يا ألله».. وفي نفس الوقت سبلت جفنيه وعقدت يديه على صدره، ثم حاولت الوقوف.. أحسستُ بقواها تخور، وأنها تحمل على كاهلها ثقل أحزان العالم، اتكأتْ على الجدار ووقفت بصعوبة.. مسحت الدمع الذي تحجَّر في عينيها كحبات رمل.. رفعت عنه الحرام، ضمَّت ساقيه إلى بعضهما البعض وعقدت إبهامي قدميه بخيط رفيع، هندست هندامه، ثم غطَّته ثانية، وقالت وهي تودِّعه بنظراتها: «لا إله إلا الله.. أنتم السابقون ونحن اللاحقون.. الله يرحمك ويدخلك الجنة من أوسع أبوابها.. سلِّم لي على ابني الشهيد».. وغاصت الكلمات في حنجرتها

واختنقت.. وأضافت بعد لحظة صمت قائلة لي وهي تخفي دموعها «لا ينفع البكاء يا بني، قوم بلِّغ الأقارب والجيران حتى يقوموا بالواجب، واستعد لاستقبال المعزّين».

بعد منتصف الليل، وصل أخي الكبير قادماً من السعودية، كانت علامات التعب بادية عليه.. ليلتها احتضنته والدتي كرضيع، استعادت معه الماضي وذرفا دموعاً حقيقية كالأطفال.. في الصباح تجمع الأهل والأقارب وقاموا بدفن والدي في مقبرة أم الحيران.

ظلَّت والدتي ثلاثة أيام صامتة وجالسة في غرفتها على السرير كالمقعدة، وفي مساء اليوم الثالث وبعد أن غادر المعزُّون، انفجرت نائحة، وراحت عبر أنين صامت تبكي وتنشج كطفلة صغيرة، ولم تقوَ على الوقوف.. وتبيَّن لنا في الساعات التالية أنها أصيبت بشلل نصفي، ولم تعد قادرة على الوقوف أو الحركة.

***

(٢٦)

الأحداث التي مررت بها في لبنان والخليج والأردن ما زالت تتغلغل في أعماقي، ذكريات لم أستطع الانفكاك من قيودها وأنا أقبع في غرفة الفندق الذي أقيم فيه في القاهرة.. وجدت نفسي في الصباح أغادر الفندق وأرحل من آهات فردوس التي تلاحقني حيثما حللت.. أتوقف في ساحة التحرير، ثم أتمشى نحو شارع سليمان باشا، ومئات الأفكار تتوالد في أعماقي وتموت فوراً.. الطريق طويل، وشبح الوحدة يملأ كياني.. أهرب من قدري إلى قدري.. أهرب من واقع مر، لأسقط في لحظة ميؤوس منها.. الجو حار، وبائع عصير القصب قريب.. أشرب كأسين من العصير، أشعر أن وجهي يضاهي اصفرار العصير.. هشيماً بدت حياتي.. فجأة وأنا أتخبط في شوارع القاهرة قابلت أحد معارفي.. كان رفيق عمل أثناء غربتي.. ثوبه الأبيض وغترته البيضاء كانت شارة تدفع صبايا كثيرات للتعرف عليه.. قال إنه يقيم في فندق كونتيننتال في الطابق السابع ودعاني لزيارته.. وفي سيارته الملاكي ونحن نشق طريقنا في الشوارع المزدحمة بالناس والعربات، قال إنه يشعر أنه هارون الرشيد في القاهرة.. في شارع محمد علي توقف.. دلف باراً ودعاني للدخول معه، ترددت، أحسستُ بلعنة الفراعنة تتلبسني، شعرت بالانسحاق وإحداهن تناديني إلى الداخل.. تقوقعت ووجدتُ نفسي أعود بسيارة أجرة إلى الفندق.

في غرفة الفندق شعرتُ أن طيف فردوس يلاحقني أينما ارتحلت

وحيثما حللت، قادني الشوق إليها للعودة إلى أحضانها.. صباح اليوم التالي، اتجهت إلى إحدى شركات الطيران، حجزت تذكرة سفر للعودة إلى عمان، وعدت إلى الفندق أحزم حقائبي.. لا أعرف لِم خانتني ذاكرتي ونسيت صديقي حامد الذي احتضنني وزوجتي في بيته أثناء زيارتنا للقاهرة قبل عامين! شعرتُ وأنا أتذكره في اللحظات الأخيرة بأني خنت صداقته.. تلك الأيام كانت فردوس تعتقد أني أبحث عن امرأة أخرى تحقق لي ما عجزتْ عن تحقيقه.. بعد سهرة عائلية ممتعة في بيت حامد تعرفت فيها على نادية، رحنا نتجاذب أطراف الحديث، فاندفعت فردوس إلى حجرة النوم باكية تشكو من صداع في رأسها.. ناولتها قرصاً مهدئاً، ابتلعته وشربتْ خلفه كأساً من الماء دفعة واحدة وقالت: هل تعتقد أن هذا القرص يزيل الأفكار والوساوس من رأسي!..

قلت لها بأنها ستشعر بالراحة بعد قليل.

قالت: أشعر بالراحة أم بالنوم؟!.. لا تتحامق، أعرف أنك أعطيتني قرصاً منوِّماً.

بدت في حالة استرخاء تام.. قلت: أنا لم أقصد.. تابعتْ وكأنها لم تسمعني: اذهب إلى حيث تشاء مع صديقك وأكمل سهرتك مع نادية.. أنت تبحث عن شيء لا تجده عندي.. الأمر لم يعد سهلاً أبداً بلا أطفال.. تزوج، هذا من حقك، لكن لا تمثل أنك تحبني وأنت تبحث عن غيري.

اقتربتُ منها.. ضممتها بين ذراعي.. كانت تتألم بانفعال شديد.. بدأت تتهاوى إلى آبار النوم العميق.. أشعلتُ سيجارة وجلستُ على الأريكة أرقبها.. هذت جملاً متقطعة ثم غاصت في سبات نوم عميق.. جلتُ ببصري في الغرفة.. بدت جدرانها مثل أرض قفر بصخور حادة.. أحسستُ للمرة الأولى أن فردوس تملك مشاعر تتصادم وتتكسر، لكنها كانت أكثر عنفاً وأنا أراها تتحطم وتتلاشى من أجل طفل يحبو وتلقمه ثدييها.

منذ أعوام عدة لم تبح لي عما يدور في خلدها.. تلك الليلة عرَّتها دموعها من الداخل، وكشفت ما خبأته من أسرار.. حدثتُ نفسي: «وهج الغيرة وحب الأمومة».. ومع أني قاومت دموعها، إلا أني وجدت نفسي مقيداً بكلماتها وأحاسيسها، وطيلة الفترة اللاحقة لم أستطع الإفلات من سلاسل قيودها، كما لم أستطع النظر في عينيها.

حياتي بدت بلون قاتم تلك الليلة.. في أعماقي شعرت بالقهر كغيمة تلاحقني وأنا أستعيد سنوات خلت مع فردوس.. فجوة رهيبة تملؤني بالتجاويف والانحناءات.. قمت إلى النافذة ورحت أتأمل الشارع العريض.. أناس يروحون ويجيئون، فساتين ملونة، ضجيج يملأ أعماقي، حملقتُ في كل شيء، ومع ذلك لم أرَ شيئاً.

صباحاً أفاقت من نومها.. دعانا حامد للتنزه ومرافقته بجولة في أرجاء القاهرة.. ترددت فردوس ثم وافقت على دعوته.. قرب أهرامات الجيزة بدت مثل وردة مخملية تفتحت عند الصباح على

ندى الليل، وهي تداعب ابنتي حامد.. مساءً جلسنا في مقهى على ضفاف نهر النيل.. راح صدى أغنية «النهر الخالد» لعبد الوهاب يتردد في أعماقي، وزوارق صغيرة تنساب عائمة فوق المياه الهادئة.. «مسافر زاده الخيال».. توقفت نظراتي عند فردوس وهي تتابع بنظراتها ابنة حامد التي لا تتجاوز السادسة من عمرها.. همستْ على مسامعي وهي تتأمل الطفلة: من الممتع وجود أطفال معنا، لو كنت أنجبت منذ زواجنا لكانت ابنتي أكبر منها بسنوات عدة، وتنهدت.. «ما أجملها!».

تلك الأمسية جلستُ أتحدث مع حامد، بينما انشغلت فردوس مع الطفلتين ووالدتهما.. قال بأن زوجته تحب ابنتيه كثيراً، وأضاف مازحاً وهو يتابع فردوس بنظراته: لماذا لم تؤمِّن خلفك حتى هذا الوقت!.

تجاهلتُ سؤاله، تشاغلت بالنظر إلى مياه النيل.. ثمة زوارق صيادين وقوارب سياحية تمخر عبر المياه، تلاحق بعضها بعضاً بدلال.. سمعته يقول ثانية: لا أريد التدخل في حياتكما الشخصية، لكني أتساءل ما المانع من تأمين خلفك منها؟.

تجاهلتُ سؤاله ثانية، فجأة تدخلت فردوس وقالت معلِّقة وكأنها كانت تصغي لكل تساؤلاته:

- زوجي يعتقد أن العالم مشكلة معقدة، ولا يريد أن يضيف إليه مشكلة جديدة بوجود طفل جديد.

«هذا منطقي جدًا في بلاد أخرى غير هذه البلاد». قال حامد مبتسمًا، وأضاف: لكن كونه من فلسطين ويحلم بالعودة إليها، فلا بد من تكثير النسل لتحريرها.

ابتسمت فردوس وقالت: اقنعه يا سيد حامد أن الأولاد هم زينة الحياة.. وراحت تلاحق بنظراتها الموجات التي كانت تتكسر ببراءة على الرمال، وكأنها تخفي ما في صدرها حتى لا تفضحها أحاسيسها.. شعرتُ أن هاجس الأمومة كموج عاصف يتلاطم في أعماقها.. قال حامد وفردوس تبتعد عنا خطوات ترافق زوجته وابنتيه: أنا أوافق زوجتك الرأي، الأطفال زينة الحياة، إضافة إلى أنهم أفضل وسيلة وأهم علاج لطرد الخلافات من الحياة الزوجية.. وأضاف وهو يتابعها بنظراته: إنها تحب الأطفال، فلماذا تحرمها من هذه النعمة؟!.

- من قال لك إني لا أحب الأطفال أيضًا! لكن فردوس هي السبب، والأطباء أكدوا ذلك.
- لا تقنط من رحمة الله، اعرضها على طبيب متخصص.. قم بعملية زرع أنابيب.. العلم يقول أن لا عاقر في هذا العصر.
- معظم الأطباء أكدوا لي نفس النتيجة، ونصحوني أن لا أقوم بعملية زراعة، لأن المشكلة في الرحم نفسه.
- وهل تعرف زوجتك بهذه النتائج؟
- إنها تشك في أقوال الأطباء، لكنها تأمل دائمًا أن تحبل، تقول إن الله قادر على كل شيء، وأنا بدوري أؤكد لها أن حالتها

سليمة، أقنعتها بأني لست مستعجلاً ، وأتظاهر بعدم الرغبة في الأولاد حتى يستقر وضعنا.

أقبلت فردوس تعدو خلف الطفلتين بمرح وقطعت حديثنا، قالت: منذ زمن طويل لم أشعر بالسعادة كما شعرتُ بها الليلة.

تلك الأيام أفسحت زوجة حامد المجال لفردوس للتفرج والإبحار في شوارع القاهرة، قضينا شهراً ممتعاً ذلك الصيف أشبه بشهر العسل، وخلال تلك الفترة ساعدني حامد في البحث عن طبيب ماهر، قال إنه متخصص في أمراض النساء والعقم والولادة، عرضت نفسي وفردوس عليه، قال إن حالتي سليمة، أما فردوس فلا بد لها من إجراء عملية تنظير في الرحم.. تفاجأت فردوس من النتائج، تغير لونها وكاد يُغمى عليها عندما تأكد لها أنها السبب في عدم الحمل.. وفي مستشفى هوليوبولس أجرى لها عملية، قال إنها التصاقات في باطن الرحم، وأكد لها أن لا عائق من الحمل بعد العملية.

***

فردوس كانت حاضرة في ذاكرتي تلك الليلة قبل زيارتي لحامد، شعرتُ أني مقيد بأغلالها، أحسستُ بطيفها يهبط من السماء كملاك يزيل عني الوحدة ويرقد بجانبي.. ما زلت أذكر معاناتها قبل مجيئي إلى القاهرة بحثاً عن زوجة ثانية.. فبعد سنوات طويلة من زواجي منها، وبعد عذاب طويل، ومعاناة قاسية لم تترك خلالها طبيباً إلا

وطرقت بابه، كما لم تسمع بوصفة طبية أو شعبية إلا واستعملتها.. بعد هذه السنوات العجاف، وبعد طول انتظار وترقب لنتائج العملية التي أجرتها في القاهرة، شعرتْ بأعراض الحمل التي تشعر بها كل النساء.. تغيَّر العالم، واختفى من عالمها اللون الأسود، تعدَّدت الألوان ونثر قوس قزح ألوانه الزاهية في بيت الزوجية.. أحست بعالم جميل وهي تعيش في واحة ظليلة يملؤها الربيع، بعد أن كانت تتخبط في صحراء مترامية الأطراف، ممتلئة بالرمال المتحركة، كما قالت.

التجربة بسيطة جداً وتعيشها ملايين النساء، شعرتُ أن الحَبَل يمد المرأة بالوقار الشخصي والجمال الحقيقي الذي يتمناه كل زوج.. كانت تشعر بالسعادة الحقيقية، وهي تنام مع الأحلام الوردية، وتستيقظ على قبلاتي.

ذات ليلة، وبعد أشهر قليلة من تحقيق أمنيتها، استيقظت من أحلامها بلا أمل، الكوابيس عادت تطاردها وهي ترى شلال الدم يتدفق، الحمل كان كاذباً كما قال الطبيب، وعادت تحمل خيباتها وفشلها إلى البيت.

شعرتْ أنها ضائعة، انزوت في غرفتها، ابتعدت عن الناس، آمالها تحطمت، كبرياؤها خار وتكسر، الليل خيم على صدرها كجبال من الهموم، ولوَّح اليأس لها بعصاه بلون داكن وبلا رجاء.

رحل فرحها، فقدت الأمل الذي طال انتظاره بانتظار طفل.. قالت إن إجهاض النفس أمرّ وأقسى من إجهاض النسل.. وأضافت إنها

صحراء عطشى، والأمطار بعيدة المنال.. مثقوبة بالفراغ، بلا اسم ولا أوراق رسمية، وشعورها تبخر دون أن تحظى بكلمة «ماما» على مر الزمان.

همست وكأنها تحدث نفسها «ما فائدة هذه الحياة إذا بدأ عمر المرأة يذوي بالانكسار دون أن تسمع هذا النداء المقدس!.. كلمة بسيطة، لكنها هوية المرأة التي تثبت من خلالها حقها في الحياة».

كثيراً ما كنت أسمع أو أقرأ عن حكايات القهر التي يعيشها بعض الناس من جراء حرمانهم من نعمة الإنجاب، «حدثت نفسي»، لكني لم أكن أعلم أن نغماتهم المجروحة تفوق كل صرخات الأرض.. ويخيَّل لي لو خُيِّر أحد هؤلاء المحرومين من هذه النعمة «على بساطة أمرها»، أن يختار بين امتلاك العالم أو ابتسامة طفل يحبو بين أحضانه، لاختار الابتسامة بلا تردد أو إطالة تفكير.

تمنت لو تفقد نظرها وتسمع ذلك النداء، تحضن طفلها، تضمه إلى صدرها وترضعه الشهد مع الحب والحليب.. تساءلتْ: لماذا اختارها الله دون سائر البشر ليعذبها ويحرمها من نعمة الإنجاب!، بدا في داخلها إحساس بأنها امرأة لا تصلح لشيء، بعد أن عجز الأطباء عن حل مشكلتها.

أحسستُ بالغربة وأنا أستمع إلى آهاتها وتوجّعاتها تلك الليلة، لذتُ بالصمت.. جراحي اتسعت وجدران البيت أظلمت، بدا لي أن

الفرح مات منذ زمن بعيد، والناس يشفقون عليها بنظراتهم، وهي تلوذ بالصمت أيضـاً، تذرف دموعها وتتمنى أن تعيش تجربة أمومة حقيقية.

تلك الليلة، اتسعت مساحات الأحزان وضاقت الدروب، انهالت الذكريات ولا أمل من صرخة طفل.. قالت والدموع تملأ عينيها بعد أن عجز الأطباء عن حالتها: «ابحث عن غيري، تزوج، لم يعد هناك فائدة تُرجى مني».. لم يكن مقنعـاً ما قالته لي ذلك المساء، ومع ذلك راحت مخيلتي تبحث عن امرأة أخرى تحقق أحلامي وتملأ الفراغ الذي أعيشه، وفي أعماقي كنت أتساءل عمَّن يحقق أحلام فردوس!.. ومع أني تجاهلت كلماتها، إلا أن الفكرة ظلت تلح على أفكاري وتطاردني، وفي ذاكرتي صورة وحيدة لفردوس تملأ كل حجرات القلب.

***

(٢٧)

الوقت كان مساء عندما قرّرت الذهاب إلى بيت صديقي حامد في منطقة الزيتون، أسأل عن أخباره وأودّعه قبل عودتي إلى عمان، لا

أدري لمَ نسيته هذه المدة ولم أزره طوال الشهر الماضي!.. فوجئ بزيارتي غير المتوقعة.. سألتني زوجته عن فردوس إذا كانت العملية التي أجرتها قد أدت إلى نتيجة.. أجبتها بالنفي وقلت لهما بصراحة إني تعبت وأنا أبحث عن زوجة ثانية.. وحين تحققا من جدية الموضوع قال حامد بأن له قريبة تقيم في باب الشعرية، وعندها بنات قابلات للزواج ولا مانع من زيارتها ورؤية البنات..

مفاجأة غير متوقعة لم تكن في الحسبان حدثت تلك الليلة بعد أن قمنا بزيارة بيت قريبته.. فتحت الباب فتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، قوامها رشيق وجميلة المنظر، خُيل لي أنها لا تعرف شيئـًا عن المساحيق التي تغيِّر الوجوه وتُجمِّلها.. ظهر والدها ورحب بنا.. شعر رأسه يميل إلى البياض، خمّنت أنه في الستينيات من عمره، ومن خلال أثاث البيت عرفت أنه متوسط الحال.. قال حامد إنه يملك معملاً للأحذية يكفيه رزقه ورزق عياله.. شاركتنا الجلسة زوجته.. امرأة مرحة لكنها متحفظة.. بعد دقائق دخلت الفتاة تحمل صينية عليها إبريقـًا من الشاي وبضع كاسات.. لم تُسلِّم، بدت خجولة، وخرجت دون أن تتفوه بكلمة.. تراكضت فتاتان أصغر منها سنّـًا في الممر، نهرهما والدهما وعاد يرحب بنا.. وعندما سأله حامد عن ابنته الكبرى أجاب بأن خِطبتها تمت قبل أسبوع، وذهبت مع خطيبها وأخيها إلى السوق لتبتاع بعض الأغراض.

لا أعرف كيف توقفت نظراتي وتفكيري عند تلك الفتاة!.. وجدت فيها وفي عائلتها كل مبتغاي، بدأ الموضوع يكبر في رأسي.. قلت لحامد أثناء عودتنا أن يبحث موضوع الزواج مع والدها.. قال أراك تستعجل الزمن، أجبت بأن لا وقت عندي، المهم موافقة والدها وموافقتها.. قال: غداً صباحاً سأتصل به وأسأله.. تلك الليلة سهرنا حتى الفجر.. في الصباح اتصل بوالدتها وعرض عليها موضوعي، فقالت بأن «الأمر يعود لوالدها، تعالَ مساء وابحث الأمر معه».. استعجلتُ عقارب الساعة.. عند المساء كان قلبي يدق مع جرس الباب وأنا أرافق حامد وزوجه إلى بيت قريبته.. لم يفاجأ والدها، قال إن زوجته أخبرته عن سبب الزيارة، وطلب من ابنته «مروة» أن تجلس لتستمع لما أقوله عن سبب زواجي بالتفصيل الممل.. لم أخبره عما حدث معي أثناء وجودي في القاهرة، لكني قلت له بأني متزوج من امرأة لم تنجب وأنا أحب الأطفال، وحالتي المادية جيدة.. كما أنها ستقيم في بيت منفصل.. كنت صريحاً وتحدثت عن كل شيء، عن زوجتي ووضعي وعملي.. وكنت أتوقع أن لا يوافق في نهاية المطاف، لكنه خذلني وراح يتحدث عن الأمانة التي سيسلمني إياها وعن العادات والتقاليد، فقلت وأنا أنظر إلى ابنته بأني على استعداد أن أتحمل مصاريف عقد القران والخِطبة والزواج دون أن يتكلف بجنيه واحد.. انفرجت أسارير وجهه وقال بأنه سيرافقني إلى عمان ليتأكد من كل ما قلته.

لم أهدر دقيقة من وقتي، صباح اليوم التالي تناولت طعام الإفطار في بيتهم، حادثت مروة وحادثتني، وأخبرتها عن الحياة في عمان.. ولم تمضِ ساعة زمن حتى قدم أقرباؤها وخالاتها للتعرف على هذا العريس الذي ظهر بينهم فجأة ودون سابق إنذار.. ورأيت في بعض عيون الأقرباء الحسد وهم يباركون لوالدتها ويقولون بأنها وجدت عريسين لابنتيها خلال أسبوع واحد.. صباح اليوم التالي رافقنا حامد إلى الشهر العقاري لعقد القران، ولا أعرف كيف تمت الأمور بهذه السرعة.. شعرت أن هذه الفتاة قدري، وأنها الفتاة التي كنت أبحث عنها طوال الأيام التي قضيتها في القاهرة.. وعند المساء كنا نحتفل احتفالًا عائليًا بسيطًا مدعومًا بالصور التذكارية وتلبيس المحبس والشبكة كما يسمونها.. وللمرة الأولى أضع يدي في يدها، ثم تسحبها لتسقيني بيدها شربات الفرح.

ما زلت أستغرب كيف تم كل شيء بسرعة عجيبة!.. وجدت نفسي أتجول في شوارع القاهرة ويدي بيدها دون رقيب، نشتري حاجاتنا وننتظر يوم الزفاف الموعود بفارغ الصبر.. وفي لحظات كثيرة كنت أتلعثم فلا أعرف ما أقول لها.. فأتحدث عن زوجتي فردوس.. كنت أشعر أنها تبتلع كلماتي ولا تهضمها.. ومع ذلك كانت تبتسم وتخفي مشاعرها.. بدت لي وكأني أعرفها منذ زمن طويل.

في بيت والدها وأنا أعيد قصة فردوس على مسامعهم، قالت خالة

مروة لها «خذي لها هدية»، وقال والدها ينصحها بأن تكون لها أختاً ولا تغضبها.. فقالت مروة والابتسامة تملأ وجهها: «طبعاً يا بابا، هوّ أنا هاروح أخانق».. تدخلتُ وقلت بأني واثق من عدم الخلاف بينهما.. كنت أحاول دائماً أن أذكرها بأني متزوج ولي زوجة تنتظرني في عمان.. أشعر أنها تزداد تمسكاً بي، وهذا ما دفعني للتقرب منها أكثر.. قالت لي تلك الليلة «هل تحمل لها صورة؟».. أجبت بالنفي، وحين تذكرت دفتر العائلة، أخرجته من جيبي وأريتها الصورة، فابتسمت وقالت: «ياه، دي أمورة».. قالت خالتها «طالما بتحبها كل هذا الحب ليه بدّك تتجوز عليها؟».. أجبت: «الكمال لله وإنتِ عارفه ليه».. استدركتْ وكأنها تستعيد ذاكرتها «يوه عشان الأولاد والله نسيت».. وأضافت «إن شاء الله تحب بنت أختي زيها».. تدخلت مروة وقالت «هيَّ مراتك ما بتغيرش عليك من جوازتك الثانية!».. قلت: وهل هناك امرأة لا تغار على زوجها وعلى من تحبه!.. عبست قليلاً ثم ابتسمت وقالت: «وإنتَ إزاي شايفني!».. أفهمتها بأن المهم أن تثق المرأة بزوجها.. بالثقة يسود الحب وتدوم السعادة.

تركتُ الفندق واستأجرت شقة في باب الشعرية في الطابق العاشر قبل أسبوع من ليلة الزفاف.. كنت أجلس على الفرندة أرقب جمال القاهرة وأنتظر قدوم مروة مع خالتها أو شقيقتها.. خالتها لم تفارقها لحظة واحدة خاصة عندما كانت تأتي لترتيب البيت.. خالتها امرأة ضحوكة، تثير الإعجاب، تنثر البسمة في قلوب من تخالطهم، جاوزت

الخامسة والثلاثين من عمرها، متزوجة وعندها فتاة في العاشرة من عمرها تسهر على تربيتها وتعليمها في مدرسة خاصة.. تساءلت في قرار نفسي إذا كان الزواج الثاني سيغيّر وضعي ويبعدني عن زوجتي الأولى!.. شعرت أني أقترف إثمـًا، وأقسمت في قرار نفسي أني لن أتغير مهما كانت الظروف، ولن أفرط بفردوس.. فقدرها أنها لم تنجب، وقدري أني ارتبطت بها وأحببتها منذ أن التقيت بها في بيروت.

***

(٢٨)

اليوم السبت والساعة تقارب العاشرة صباحـًا.. يقال إن هذا اليوم سأكون عريسـًا من جديد.. لا أعرف كيف سأتصرف! العروس تستعد للذهاب لصالون التجميل، وكل أهلها والأقرباء يتأهبون لحفلة الزفاف والعرس.. أكملتُ كل الطلبات ولم يبقَ غير الجلوس معها.. اقتربت الساعة من الثالثة عصراً، وفرقة الزفة تستعد لزفة «العريس» في شارع الجيش قبل الذهاب إلى الصالة القريبة.. الكل على استعداد في انتظار وصولي إليهم، أنا العريس القادم من المجهول ومن بلاد بعيدة!.. ما زال الوقت مبكراً بالنسبة لي.. تمددتُ على الأريكة بعد أن أخذت حمامـًا على فترتين، الأولى غسلت رأسي، والثانية بقية جسدي.. كانت المياه مقطوعة في الشقة، وهذا ما دفعني لتسخين الماء المتقطع على فترتين.. أحاول جاهداً أن أطرد الأفكار التي تربض على ذاكرتي وتعيدني إلى الوراء.. منذ يومين أنهيت كل الأوراق اللازمة لسفر مروة بعد أن استخرجت لها جواز السفر.. الزمن يعود للوراء، والذاكرة تعيدني إلى يوم زفافي على فردوس، نفس التفاصيل ونفس الملاحظات والسفر بعد الزفاف مباشرة.. أكاد أقول إن الزمن يتكرر، وأنا أعيش الحالة مرة ثانية!

اقتربت الساعة من الرابعة بعد الظهر، أسرعتُ وارتديت بدلة

الزفاف، وخرجت من البيت.. في الخامسة صدحت الموسيقى واصطف الشباب ثم تحلقوا حولي، وبدأت عملية الزفاف في شارع الجيش حتى صالون التجميل.. كانت العروس قد أكملت زينتها ووقفت بين صبايا الحي عند باب الصالون.. أسرعت نحوها وأمسكتها من يدها ودخلنا الأستوديو المجاور للصالون لالتقاط بعض الصور التذكارية.. عروسي في تلك اللحظة كانت رائعة في جمالها وفي تصرفاتها.. في الصالة القريبة من البيت رقصن النساء وتمايلن أمامي مثيرات للشهوة.. همست خالتها في أذني «إزاي همتك الليلة!». قلت لها بصوت منخفض «وهل تعتقدين أنها المرة الأولى أم المرأة الأولى!».. ابتسمت وقالت «يا خبيث! كم امرأة عاشرت غير زوجتك؟».. لم أجب ورحت أنظر إلى الراقصة التي اقتربت مني كثيراً.. أضافت: «ما تنساش العلام.. حاجيلك في الليل وآخده».. تجاهلت ما سمعت وقلت بأن الحفلة أوشكت على النهاية، ويجب أن نغادر، ووقفت.. توقف الغناء فجأة، وبدأت عملية زفاف جديدة نحو السيارة المتوقفة في الخارج.. ركبتُ في المقعد الخلفي جانب العروس، قادنا السائق نحو كازينو الميرلاند لتناول العشاء، والسيارات تحيط بنا من كل جانب، وتطلق صافراتها على طول الطريق.

في الثانية بعد منتصف الليل عدنا إلى البيت.. كانت الفرحة بادية

على كل الوجوه، أنا كنت مجهداً.. كانت الكهرباء مقطوعة في العمارة التي نقيم فيها، والمصعد متوقفًا، مما دفعنا للصعود إلى الطابق العاشر سيراً على الأقدام.. بعد أن ولجنا البيت قالت مروة وأنا أحاول أن أضمها بين ذراعي وأقبلها: «إنت بتحبني!».. ابتسمتُ لها وقلت «بالتأكيد سأحبك إن بقيتِ كما أتمنى وأشتهي».. ومع ذلك راحت ذاكرتي تسترجع ليلة الزفاف على فردوس.. تلك الليلة كانت الكوابيس تجثم على كاهلي وأصوات الطلقات النارية تقتحم غرفة النوم، بدت ساعة الفرح بعيدة.. انتظرتني فردوس ساعات طويلة في سريرها وأنا أصلح المذياع لسماع بعض المحطات.. دموعها هي التي أعادتني لواقعي وذكَّرتني أني عريس في ليلة الدخلة.. أنقذتني مروة من أفكاري وقالت «مين اللي واخد عقلك، يا ترى بتفكر في إيه؟!».. اقتربتُ منها، ورحت أشرح لها عن طباعي وعن كيفية حياتي، شعرتُ أنها تبتلع كلماتي دون أن تفهم منها شيئًا.. حدثتُ نفسي بأنها صغيرة وستتعلم مع مرور الأيام، فلا تجارب لها في الحياة، إضافة إلى فارق العمر بيني وبينها الذي ينوف على ثمانية عشر عامًا.. دق جرس الباب وقطع حبل أفكاري، خالتها كانت تقف قرب الباب.. تذكرتُ أني عريس في ليلة الدخلة، وتذكرت ما قالته عن "العلام" وما يسمونه شرف البنت، مما دفعني للنجاح في مهمتي في ساعة متأخرة من الليل.

صباح اليوم الثالث، وقبل أن أغادر القاهرة، مررت على

الأستوديو الذي قام بعملية تصوير العرس فيديو وصوراً ثابتة، وكم شعرت بالأسى والانزعاج وهو يعلن أن شريط الفيديو أُتلف عندما وقع عليه كأس ماء فأتلف محتوياته، وحين خرجت لم أكن أحمل معي سوى صورة العرس ببذلة الزفاف باللونين الأبيض والأسود.. وكان هذا كل ما تبقى من ذكريات حفلة الزفاف.. وفي الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس، بعد خمسة أيام من الزواج، كنت أصعد طائرة الخطوط الملكية الأردنية مع عروسي من مطار القاهرة عائدين إلى عمان، وفي ذاكرتي طفل يملأ جوانح البيت بالبسمة واللعب والصراخ.

***

(٢٩)

أيام ثلاثة مرت، لم أشعر خلالها أني أعيش بين زوجتين.. كنت أشعر أنهما شقيقتان.. في الليلة الرابعة وبينما كانت مروة تغط في نومها، قمت بعد منتصف الليل وولجت شقة فردوس.. الشقتان متقابلتان في عمارة واحدة من نفس الطابق.. فوجئت بها ساهرة تقرأ من أوراق بين يديها، اختطفتُ الأوراق ورحت أقرأ..

«حبيبي، أجلس في سريري وأخط السطور بانتظار عودتك.. وها أنا أضيف بعضاً من لحظات سعادتي.. حكايتي بدأت منذ أكثر من عشرة أعوام.. كنت خلالها أجاهد بكل الطرق في سبيل طفل، وأي طفل! كنت أخاله أجمل طفل في الوجود.. في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل قبل يومين كنت أغوص في أحلام يائسة، وأنتظر عودة زوجي بفارغ الصبر.. في الخامسة صباحاً رن جرس الساعة معلناً وقت صلاة الفجر، قمت مسرعة نحو الباب وباعتقادي أن زوجي يدق جرس الباب.. خاب ظني، شعرتُ بتراخٍ في أعصابي وتكاسلت عن الصلاة، عدت إلى فراشي وتمددت حتى يحين موعد ذهابي للعمل.. لا أدري كيف غفوت!.. في السادسة والنصف أحسست بوابل من القبلات تغمر وجنتي ووجهي وشفتي، اعتقدت أني في حلم، استرخيت واستسلمت للقبلات، فتحتُ عيني، لم أصدق أن حبي

الكبير يضمني بين ذراعيه، يحضنني ويقول أنا هنا.. شعرت أنه مشتاق لي أكثر من اشتياقي إليه.. ذلك الصباح ضاجعني، شعرتُ به وكأنها ليلة الدخلة.. بحرارة وقوة جامعني ذلك الصباح في غرفتي العذراء، أقول عذراء لأن زوجي حبيبي لم يدخل بها منذ ما يقارب الشهرين.. لم أنعم بدفء جسده طوال تلك المدة التي غاب فيها عن البيت، ولم أكحل عينيَّ برؤيته، رغم أن وسادته كانت تنير لي الغرفة.. كان صباح ذلك اليوم أجمل صباح في حياتي، ومع أنه كان يتلفظ بكلمات حلوة تدغدغ المشاعر وتوقظ الحب من الأعماق، إلا أني شعرت أنه كان يتحدث مع امرأة أخرى غيري.. لم تكتمل سعادتي معه، وبدلاً من أن أنجب له طفلاً أنجب هو لي امرأة أخرى تشاركني في حبه وفي كل شيء.. لطفك يا رب ورحمتك!.. ما أنا إلا من طينة البشر، أحس مثلهم وأغار مثلهم.. أعطني يا رب الصبر على ما تحمله الأيام القادمة في حياتي.. إني أغار.. أشعر بذلك وكأني أقرأ حياتي القادمة بين السطور.. شعرتُ أني بدأت أضيع بين الأسطر.. مسحتُ دمعة انسابت على وجنتي وقمت، غسلت وجهي وتوجهت لمكان عملي.. في العمل أحسست بفضول المعلمات.. كن ينظرن إليَّ بدهشة، وأنا أصبِّر نفسي ولا أبالي.. إحداهن كانت صريحة وسألت: «هل صحيح أن زوجك تزوج بأخرى؟».. قلت وأنا أخبئ أحزاني في صدري وأتجمّل: «نعم، أمر عادي، شريعة الله.. شعرتُ أني كبرت في نظر

الناس وأمام نفسي.. بعد ظهر ذلك اليوم قابلت امرأة زوجي.. عانقتني وأشعرتني أني شقيقتها الكبرى.. تلك اللحظة شعرت في قرارة نفسي أني كبيرة وأني أفضل نساء الأرض، وأني لن أغار منها أبداً.

في الليلة التالية وهو ينام عندها شعرتُ بالغيرة الحقيقية للمرة الأولى، وللمرة الأولى أيضـاً طار النوم من عيني، وبدلاً من أن أداري موقفي بالنظر إلى التلفاز رحت أذرف دموعـًا حارة.. لأول مرة أعرف معنى انكسار النفس والغيرة.. أحسستُ بطول الليل وظلمته ومطارق تنقض على جسدي وروحي ونفسي، شعرت بالوحدة التي تقض المضاجع.. أحسست أني في قفص حديدي وذكريات عشرة أعوام تملأ كياني.. للمرة الأولى أشعر بالخوف من الوحدة، ومن زوجي وامرأة زوجي.. ورحت وسط ظلام دامس أحضن وسادة زوجي وأغفو مع الكوابيس».

قلت لها تلك الليلة بعد أن قرأتُ ما كتبت إني لن أتخلى عنها ولن أخدعها، لن يصيبها مكروه وهي جانبي وأمام ناظري.. كيف أتخلى عن روحي!.. لكنها إرادة الله، ولإرادته حكمة لا يعرفها إلا رب العالمين.

***

(٣٠)

لم أعد أفرق بين زوجة وأخرى.. كنت مشغولاً بعملي على الدوام، وفي البيت بعد عودتي من العمل، كنت أشعر براحة نفسية وكل منهما تقوم على خدمتي، وتسابق الأخرى لتلبية طلباتي.

بعد انقضاء أكثر من ستة أشهر على زواجي من مروة، تغيرت أحوال البيت وبدأت الأمور تتفاقم.. انهمكت فردوس بعملها بعد أن عرفتْ أن شريكتها في الحياة بدت عليها عوارض الحمل، ولم تعد تعود إلى البيت إلا عند المساء، متذرعة بانشغالها في العمل وتصحيح أوراق الامتحانات.. ومع أن مائدة العشاء كانت تجمعنا، نتضاحك ونتسامر كعائلة واحدة، إلا أن كل واحدة كانت تخفي ما تخبئه من امتعاض وغيرة في صدرها.. كنت أعرف ذلك من خلال النظرات وتعابير الوجوه، خاصة عندما أقوم بعد السهرة مع واحدة إلى غرفتها، فتبقى الأخرى صامتة تنظر مندهشة غير راضية بواقعها.. زوجتي الأولى فردوس أنهت دراستها الثانوية والجامعية وعملت مدرّسة للصفوف الابتدائية لمدة عامين أثناء عملي مدرساً في غربتي، وفي الأردن تم تعيينها في وزارة التربية والتعليم.. أفلحت في دراستها وعملها ولم تفلح بإنجاب طفل.. الثانية أنهت دراستها الابتدائية ولم تكمل الصفوف الإعدادية قبل زواجي منها، وتوقفت عن التعليم.. في

البيت كنت أشعر أن كل واحدة تكمل الأخرى.. إحداهن تقوم بعملية الطبخ والأخرى بعملية غسيل الملابس.. بدت الحياة متكاملة والعلاقة جيدة في نظري، رغم كل الفوارق والأحداث.

***

بعد مرور أكثر من ثلاثة أعوام على زواجي من مروة، وبعد أن رزقنا الله أجمل ابنتين، تغيرت الأدوار وتناثرت الأوراق.. القدر أقوى من الإنسان ومن قصة العشق والحب الذي حاولت بنيانها بكل السبل.. عجزتُ عن الكلام وأنا أرى الغيرة بكل معانيها تشق طريقها إلى قلب فردوس، بدا ذلك واضحاً من تصرفاتها، تتذمر أحيانـاً وتطلب المبيت عند شقيقتها الصغرى التي تزوجت وأقامت في عمان، أحيانـاً أخرى.. تهجر البيت نهاراً متذرعة بالعمل، وفي الليل تهرب إلى فراشها مدعية التعب، تعاتب وتلوم وتتذمر، تصمت عندما أتحدث، وتسرح في عالمها، وكأنها تحمل أعباء العالم على كاهلها.

ذات مساء وبينما كنت أجلس في غرفة مكتبي، وجدت نفسي أفكر في فردوس والحالة التي وصلت إليها.. تناولت قلمي ورحت أكتب لها ما يختلج في صدري.

«إلى التي وهبت الكثير ولم تبخل بالقليل.. إلى التي ما زالت تقاسي عذاب القدر وضعف النفس الإنسانية.. إلى صاحبة القلب الكبير الذي تشقق بجراح كبيرة مزمنة.. إليك يا زوجتي العزيزة، يا

صاحبة الآهات أكتب..

لن أكتب كلمات رنانة توحي بأن الله جمعنا في بوتقة واحدة في رأيي، ومزقها في رأيك.. صراخ وآهات في أعماقي تتغنى باسمك وتنادي بصوت مجروح.. ليس هذا بسبب الضمير الذي يعذبني على فعلتي كما تتوهمين.. وليس هو الواجب والمسؤولية كما تعتقدين، لكنه الحب.. أنا العاشق وأنت المعشوقة على مر الأيام.. بصمتي أداري أحزاني، وأقاوم الآهات.. أليس كما يقال «من ألم المخاض يأتي العطاء».. سنوات طويلة مرت بلا مخاض ولا عطاء.. لم تكتمل قصة الحب بالزواج، ولم يهبنا القدر طفلاً يحبو ويتلاعب على صدرك وبين أحضاني، فشل كل الأطباء من لأم جراح قلبينا، ولم يسعفنا أحدهم بطريقة توصلنا إلى طريق الحبل والميلاد.. الميلاد كان أعياداً لغيرنا ونحن نتفرج.. كبر الجرح وتعودنا الحزن والملامة، وراح أحدنا يصب جام غضبه على الآخر معلناً أنه السبب.. ومع أن الآهات أكبر من الجروح، إلا أني لم أفقد الأمل.. أعلم أنك تقاسين الواقع وتتألمين أكثر من ألمي بعشرات المرات، لكن القدر شاء.. أعرف أنكِ جففتِ دموعك واختصرتِ الحياة في كلمتين وقلتِ «لكَ ما تشاء، تزوج إذا كان هذا يرضيك»، لم أجب تلك اللحظة، لكني أقنعتُ نفسي أني لن أتخلى عنك، وفي نفس اللحظة تبادر إلى ذهني بأن الله مالك الكون له حكمة في كل شيء، فعيسى من أحبابه، ولم يمنع الآخرين من صلبه، ويوسف نبيه ورسوله ومع ذلك سجنه

فرعون، وكذلك نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – تعرض لأذى المشركين حتى اضطر لمغادرة مكة.. ربما كان هذا اختباراً للنفس المؤمنة، وقوة الصبر على الأذى، ولا أعلم ماذا يحدث في قابل الأيام مع زوجتي مروة، فالإنسان يغضب، يسافر بآماله وآلامه، يرحل بعيونه ونظراته، يهاجر بفكره قبل جسده، لكن الواقع هو الواقع بآماله وآلامه.. لا تغضبي ولا تفكري بهجر عشك الزوجي، فذلك العش وإن كان معلقّاً على أغصان شجرة تذروها الرياح كما تعتقدين، إلا أن الشجرة جذورها قوية وغصونها صلبة، متينة تتحدى الرياح وتصمد في وجه العواصف.. كل إنسان في هذه الحياة له آلامه وأحلامه، أنا آمالِك وأحلامِك كما أنتِ آمالي وأحلامي.. لن أتخلى عنك يا ملاكي، وحتى لو كنتُ في أحضان زوجة ثانية فستبقين في قلبي».

***

تجاهلتْ فردوس ما كتبته لها واستأذنت لزيارة أهلها في لبنان، وكثيراً ما كانت تزور أهلها في السنوات الأخيرة، لكنني شعرت أن زيارتها هذه المرة تختلف عن سابقاتها.. قالت وابتسامة حزينة على شفتيها إنها لن تعود، ثم استدركت وقالت إنها ستغيب أسبوعين فقط.. تجاهلتُ كلماتها ولم أخبر أحداً بسفرها.. وحين ودعتها في المطار وعدت للبيت، شعرتُ وكأن جزءاً مني رحل.. جلستُ وحيداً ورحت أعد الأيام المتبقية لعودتها منذ الساعة الأولى.. مَن يسافر لا يشعر

بالغربة. «حدثت نفسي»، المقيم هو من يتعذب، خاصة إذا كان المسافر عزيزاً على قلبه.. شعرتُ أن البيت مهجور رغم أني أتمدد في سرير مروة.. سألتني مروة صباح ذلك اليوم عما أفكر به، لم أجب، عادت وسألتني عن فردوس.. قلت بأنها ما زالت نائمة.. لاحظتُ أنها تخفي دموعـاً انهالت من عينيها بلا سبب وكأنها تعرف ما بأعماقي.. قامت وأعدت لي فنجان قهوة ولم تنبس ببنت شفة..جلستْ أمام المرآة، سرَّحت شعرها ووضعت على وجهها مكياجـاً خفيفـاً، عادت وجلست على السرير جانبي، قالت بدلال: «إلى متى ستظل متمسِّكـاً بها؟».. لم أجب. أضافت: «هل تراها أجمل مني؟».

نظرتُ إلى وجهها مباشرة، قلت: اسمعي يا مروة.. هذه الأعمال لن توصلك إلى نتيجة، أنا على استعداد أن أعمل كل ما يرضيك شرط أن تنسي موضوع فردوس.

قالت: أحب أن تكون وأنت معي لي وحدي بعقلك وقلبك.

- وما يهمك من أمري أو أمرها، طالما أنا عندك؟
- أنت بجسدك فقط عندي، أما قلبك فهو عندها.. أخاف أن تتركني أو تهجرني وتعيش معها بقية عمرك..
- ما هذه الأفكار الشيطانية؟!
- قل عني ما شئت، لكن احسبها يا حبيبي، عشت معها قبلي عشرة أعوام، والعدل أن تعيش معي مثلها قبل أن تقسم بقية

عمرك يومـاً عندي وآخر عندها.

- أنتِ شيطانة حقّـاً.. من أين جئتِ بهذه الأفكار؟!
- أنا لا أصدق أنك تحبني وتفكر بأخرى.. لا أستطيع أن أبقى معك على هذه الحالة، مجرَّد ضرَّة لحبيبة القلب.. أرجوك أن تفعل شيئـاً من أجلي..

قالت ذلك وراحت تهيل دموعـاً بلا سبب، سألتها عن سبب بكائها، فقالت: لا أعرف، لكني أحبك ولا أريد أن تأخذك مني أية امرأة على وجه الأرض.

- اطمئني، فلم يبقَ لي هذه الأيام غيرك.

نظرت إلى وجهي، أضفت «لقد سافرت».. لم تصدقني.. رأيتها تغادرني وتدق باب غرفة فردوس، وحين لم يُفتح الباب أكَّدتُ لها الخبر، وأضفت وأنا أغادر البيت إلى عملي «غاب القط العب يا فار».

عند المساء قالت ومسحة من الحزن تملأ وجهها «أعرف أن ليلتك عندها وستنام في فراشها حتى لو كانت غائبة.. فاسمح لجارتنا سعاد أن تنام عندي هذه الليلة».. رفضتُ طلبها وقلت بأني «لن أنام في فراش فارغ».. في الليل وأنا أسرح عبر أفكاري قالت «أنا عارفة إنك بتفكر فيها، روح نام في فراشها».. أطفأتُ الضوء وأدرت لها ظهري ونمت.

في منامي تراءى لي أني في بيروت وفردوس مقيدة بسلاسل حديدية، تصرخ وتطلب مني أن أفك قيودها وأخلي سبيلها.. فجأة اختفت فردوس، وظهر أخي الشهيد بثياب بيض منتصباً أمامي..

سألته ألم تُستشهد؟ قال وهل الشهداء يموتون! إنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.. وبكل هدوء أومأ لي أن أتبعه.. قلت وأنا أتأبط ذراعه: «ما يؤلمني يا أخي أني أراك تستشهد قبل أن يتحقق هدفك».

أجاب: «وهل تتوقف المسيرة إذا زاد عدد الشهداء واحداً!.. أنا لم أتخلَّ عن سلاحي، تركته أمانة بين أيدي المقاتلين الشرفاء».

توقفت مسيرتي مع أخي عند مقبرة الشهداء، مجموعة من الشهداء كسيقان أشجار بزغت فجأة من باطن الأرض، قلت وأنا أسلِّم عليهم واحداً واحداً: «يؤلمني أن تستشهدوا قبل أن تروا نهاية البنيان».

نظر إليَّ أحدهم وقال «سنموت فعلاً إذا توقفت المسيرة، أو تخليتم عن الأمانة التي تركناها بين أيديكم».

رياح باردة هبَّت، تطايرت الأوراق الجافة وحملت الأزهار الذابلة في طريقها، مخلفة رائحة عبقة ملأت المكان.. اختفى الشهداء عن ناظري كما اختفت فردوس.. تمرَّد أخي وسط الظلام وانسحب ليتمدد وسط حفرة حديثة يملؤها النور.. صمْتٌ مطبق غلَّفني، وأخذ يتكسر بألم حاد بين ضلوعي.. هبَّت الرياح ثانية، تمايلت الأغصان وأسقطت أوراقها الصفراء، انحنت النباتات الصغيرة تُقبِّل الأرض، وأرسلت الأشجار الكبيرة عويلاً يشبه الأنين والنواح، ذابت الألوان وتجمعت بلون ورقة صفراء جافة تتقاذفها الرياح، بدا صوت الأشجار كصرير الخشب في سفينة تغرق، سرت قشعريرة في جسدي، تأهبت

لمغادرة المكان، تململ أخي في مرقده، وقف بملابسه البيضاء كالمارد وسط الظلام، صرخ: «تمردوا على أوامرهم وحواجزهم، وكونوا يداً واحدة، ولا تغرقوا سفينة العودة»، وعاد يرقد بهدوء.

صدى الصوت هز جوارحي وراح يتردد في أرجاء المكان، لملمت قواي، سرت بخطوات مترنحة مبتعداً عن أخي، فجأة أحسست بيد تطبق على صدري، وصوت يقول «ماذا تفعل هنا؟».. بدت حنجرتي مثل بئر جافة ولم أستطع النطق.. كان حارس المقبرة يرتجف ويشدني من صدري، ويلوِّح بمجرفة ذات عصا طويلة بيده اليمنى فوق رأسي، وجدتُ نفسي أنفلت منه وأهرول خارج أسوار المقبرة وهو يلاحقني بمجرفته.. فجأة صحوت من غفوتي، شعرت بتعرُّق جسدي وخدر شديد في ساقيَّ، كنت غاضباً من فردوس، وبقيت صاحياً حتى الصباح.

في الصباح تواردت الأخبار عن تبادل اطلاق نار في المنطقة الجنوبية من بيروت، حيث تقيم فردوس عند أهلها في منطقة صبرا، رحت أتساءل في قرار نفسي عن الحرب التي أفقدتني أخي، وما إذا كانت فردوس ستعود سالمة، أم أن رصاصة طائشة سترديها قتيلة، أم ستبقى في بيروت حتى يتحقق الحلم!.. ماذا سيتغير في حياتي، وكيف سأكيِّف نفسي مع مرور الأيام!

بعد أيام عدة، وبينما كنت نائماً في سرير مروة، صحوت صباحاً ويدي تلاطف وجهها وأقول «فردوس فردوس قومي اعملي قهوة»..

نظرتْ مروة في وجهي وصرخت: «هل عادت فردوس؟!».. وراحت تنظر في أرجاء الغرفة وعلى السرير.. كانت قطتي البيضاء المدللة ممددة على السرير، حملتها بين يدي ورحت أداعبها متجاهلاً ما حدث وما قلت.. منذ طفولتي وأنا أهوى القطط، وأينما حللت كان هناك قط أو قطة في بيتي، تنام على فراشي وتفهم لغتي.. كنت أهرب من مشاكلي وألتجئ إلى القطط أداعبها لأنسى همومي.. عشرات المرات قبل ذلك الصباح أخطأتُ أمام مروة وأنا أناديها فردوس.. أتظاهر بالارتباك والخطأ فأبتسم لها وأعتذر.. نظرت مروة نحوي واتجهت إلى المطبخ قائلة: «يا خرابي عليك».. وبينما كانت تصنع القهوة قمت إلى غرفة فردوس أبحث عن ملابس أرتديها قبل مغادرة البيت، وقع نظري على دفتر مذكراتها، أخذت أتصفحه وأخالها أمامي.. شاهدتها بأم عيني تتألم، تبكي بدموع حارة، ولا أعرف لمَ جالت بخاطري فكرة أنها لن تعود ولن أراها أبداً!.. لحقتني مروة، وقالت وهي تتأمل بيت فردوس: «هي مش مرتِّبة غرفتها؟». قلت بأنها تركت ورقة بين صفحات دفترها تقول فيها إنها لن تعود إلى البيت.. قالت «ما تقولش الكلام ده».. تركتها وانسحبتُ خارجاً إلى مكان عملي.. قابلتني جارتنا أم فهد على السلم وكأنها حدست ما بي إثر سفر فردوس المفاجئ، فقالت «لا تزعل، اللي باعك بيعه».. قاطعتها قبل أن تكمل. «لو ماتت فردوس في بيروت لأحضرت جثتها لأدفنها هنا في عمان».

***

تصفعني حكايات قديمة، تتجدد خلايا ذاكرتي من جديد، أشعر بأن العالم ينقلب رأساً على عقب، وأن فردوس قدري وأنا قدرها الذي لا فرار منه.. سنوات طويلة مرت وفردوس تتربع على عرش القلب، بحيرة صافية عيناها.. هذا ما كنت أتصوره قبل أن تقول إنها لن تعود.. قالتها مراراً أثناء الخِطبة، وكأن المرأة تعتقد أنها كلما عذبت الرجل يتبعها ويلاحقها أكثر من قبل.. أشعرتني من خلال كلماتها أنها في غنى عني، وأني لم أعد الزوج الوفي.. انتهى العد التنازلي لعودتها، وخذلتني منذ أن غادرتْ عمان.. وهذا يعني أنها عازمة على أمرها.. تريد أن تكون السيدة الأولى بلا منازع.. أشعر بها وكأنها لا تريد زوجة ثانية ترافقها في الحياة.. فما ذنبي أنا إن لم تحبل وتملأ البيت بالأطفال!!.

حياتي بدت كشريط محروق وأنا أحدث نفسي بأن الموت لا مفر منه.. أحب أن أسمع خبر موتها على أن تقول بأنها لن تعود.

قالت لي مروة مساء أحد الأيام «اتصل بها لتعود، فأنا يئست من الوحدة، أنا لا أغار منها، أنا أغار من جارتنا أم فهد، مستأجرة عندنا وتقيم في بيتنا».. قلت لها بأن تطردها من البيت، فقالت «كيف أطردها وأنت تعاملها أفضل مني!».. انتبهتُ لملاحظتها التي غابت عن بصيرتي.. أضافت: «الضُّرة أرحم».. لكن الضُّرة أقنعت نفسها بعدم العودة.. في قرار نفسي قلت بأني سأعيدها لتبقى أمام ناظري، لن

أطلقها، سأهجرها حتى تطلب الطلاق بنفسها وتذهب إلى المحكمة لتقول لا أريد زوجي.. لتقلها بصراحة ولن أندم بعد ذلك.. أما أن تقول لن أعود.. فهذا ما يسمونه بالمرأة الناشز.. قطعت مروة حبل أفكاري وقالت بأن جارتنا أم فهد قالت لها بالحرف الواحد إنها «دفعت فردوس للرحيل، وستدفعني أيضاً للهروب من حياتك، لأنها تريد أن تزوجك سعاد، أنا أعرف أنها تريدك أنت ولا يهمها سعاد أو فردوس أو أنا».. لا أدري كيف صفعتها على وجهها تلك اللحظة!.. قلت لها ما هذه الفضائح!.. قالت: «راح أطقّ منها».. ناديت جارتنا أم فهد وطلبت منها الرحيل من البيت، فقالت: «زوجتك مروة تكذب، وفردوس هربت من تصرفاتها».. ثم طلبت مني أن تنفرد بي وقالت بهمس: «كل الناس بتقول إنها راحت ولن ترجع، أنا لا أحب أن أراك تتعذب بين الاثنتين.. طلقهما وخذ سعاد».. عرفت أنها لم تيأس وما زالت تلعب بالنار، شعرت برذيلتها وصدق زوجتي.. وأنها ترمي الفتنة بين سعاد ومروة كما رمتها بين فردوس ومروة.. تلاعبت بعواطفهما لتنفرد بي، وأضافت هامسة بأنها ستنال مني عاجلاً أو آجلاً.

مساء ذات يوم ومروة تحضر العشاء قلت لها «ألم تشتاقي لفردوس؟».. بدت تقطيبة على وجهها.. قالت «مهما قلت لك فأنا ضُرة وكلامي غير مصدَّق، وطالما مش قادر تستغني عن حبيبة القلب طلقني ورجِّعها».. وراحت تذرف الدموع بنشيج حار، أضافت بعد لحظة صمت: «أبوس رجلك طلقني ورجِّع فردوس، فردوس تحتل

قلبك، خيالك وأحلامك وأوهامك، أنا بدّيش تروح فردوس عشاني، إنت كنت بتعاملني وفردوس في عمان أحسن بكثير من غيابها».. طال الليل، وتناثرت الكلمات، ونامت بجانبي تلك الليلة قطتي البيضاء بدلًا من زوجتي مروة.

بعد أكثر من شهرين عادت فردوس، لكن الحياة لم تعد كسابق عهدها.. شرخ عميق تركته تلك الرحلة في أعماق ثلاثتنا.. بدأ نفور خفي بين الزوجتين، وراحت كل واحدة تضمر للأخرى غير ما تظهر مع مرور الأيام، رغم أني كنت أشعر أن لكل نجل من أنجالي والدتين وليس والدة واحدة، إلى أن جاء اليوم الذي بدأ فيه الأولاد يعرفون والدتهم الحقيقية، وينعتون زوجة أبيهم فردوس بكلمة «خالتي».

***

(٣١)

بعد أن اتخذتُ موقفًا صارمًا تجاه تصرفاتها المشينة، ركنت أم فهد صامتة هادئة لفترة من الزمن.. شعرتْ أنها غريبة عن الحي الذي تقيم فيه بعد أن أوصدتُ كل الأبواب في وجهها.. لا تفتح فمها إلا بتحية الصباح أو تحية المساء، ثم تغرق في الصمت والخروج من البيت.. سعاد ابنة زوجها تتدبر أمور إخوتها وتسهر على راحتهم،

وتلوذ بالصمت أيضـًا.

ابنها فهد لم يكن يتحدث كثيراً، كان يجلس في صالة البيت لساعات على الأريكة وحيداً، محدقـًا في الفراغ، صامتـًا كأنه ينتظر شيئـًا لن يأتي أبداً، لم يكن يقرأ أو يشاهد التلفاز، وليس عنده الكثير من الأصدقاء.

زوجتي فردوس كانت تُشفق على سعاد، تعاملها كشقيقتها الصغرى أو ابنتها التي لم تلدها، وسعاد تبكي على صدرها، تتذمر من حياتها ومن معاملة زوجة أبيها لها، تشعر أنها تريد الخلاص منها بأية طريق، تضربها وتدفعها لتكون خادمة للبيت والأولاد.

ذات مساء أسرَّت سعاد لزوجتي فردوس أنها تشك في تصرفات زوجة أبيها التي كانت تدعوها بخالتها أم فهد، وراحت تبكي بكاءً مراً وهي تحاول أن تقطع الشك باليقين، ولا تعرف كيف تتصرف حيالها.. قالت: إن بكاء أختها الصغيرة كان يدمِّر سكون الليل، وهي تسمع صوت الباب الخارجي يُفتح بهدوء، ثم يُغلق كجرح التأم على أعظم مفسدة، رياح الخيانة كانت تزلزل كل المساحات المضيئة في عمرها، بكاء أختها الصغيرة التي تنام في غرفتها يعلو، رعب ما يكتنفها في العتمة، وصوت خالتها يعوي بغضب في الليل ويدفعها لخدمة أختها.. خادمة هي في النهار ومربية في الليل.. قالت لخالتها من خلف الباب بأنها كانت نائمة ولم تسمع أختها وهي تطلب الماء.. ودعت خالتها لإكمال نومها.. أضافت سعاد بأنها صكت أسنانها تلك الليلة

على صرير صوت الباب وخالتها تغلقه بالمفتاح، متظاهرة بالنوم.. لكنها في قرارة نفسها كانت سعاد على يقين أنه نوم الأبالسة والأفاقين، والشك يملأ صدرها ولا تصدق ما يحدث.

أضافت سعاد بأن هذه الشكوك قلبت لديها كل المفاهيم، بعثرت القيم التي تربَّت عليها ودمَّرتها، حوَّلت المدركات إلى أوهام، أضحى كل شيء حولها مسلوبـاً من عالمها، كتمتْ الأمر في نفسها، فكَّرت للحظة أن تعطي خالتها مبرراً، لأن والدها في حالة سفر دائم، أو بسبب العيون التي تغزو جسدها فتثير فيها العواصف الخامدة، لم تكن زوجة أبيها جميلة، لكن أنوثتها طاغية.. مجريات تلك الليلة أبعدت سعاد عن الدراسة، ورمتها في دوامة من القلق والشرود.

تلك الليلة ذرفت سعاد دموعـاً حارة وهي تبوح بما في صدرها لزوجتي فردوس.. وفردوس تطلب منها أن تطرد دوامة الشك من رأسها وتنتبه لدروسها، وأن لا تبوح بسرها لأحد.. وعاجلاً أو آجلاً ستتزوج وتغادر بيت خالتها.

قلت لفردوس بعد أن أذاعت شكوك سعاد على مسامعي وأنا أرقد جانبها، بأن شكوك سعاد في محلها، وأخبرتها أني بصدد توقيع مضبطة من الجيران بسلوكها المشين لتقديمها إلى المدعي العام وإجبارها على الرحيل من البيت.

***

لم يكن لي أو لسعاد فقط عيون ترى وآذان تسمع، كان للجيران

أيضـًا عيون ترى وآذان تسمع، ألسنتهم دارت في الحي، وراحت الشائعة تكبر في عيون النساء وأسماع الرجال.. حامت حول أم فهد الشكوك وتعالت الهمسات.. ذات مساء قال أحدهم «دخل عندها شخص».. وفي لحظات قليلة سرى الخبر بين الجيران كما تسري النار في الهشيم.. حاصروها دون أن تعلم داخل البيت لإثبات الجريمة، وتربَّصوا «للشخص» ليقبضوا عليه حيّـًا أو ميتـًا..

طارت الشائعة في ظلام الليل.. قال أحدهم لمن يتربّصون معه أمام مدخل البناية «ليست المرَّة الوحيدة التي تتجرأ فيها هذه المرأة».. دار جدل طويل بينهم تلك الليلة.. تعالت الهمسات والوعيد.. تدخَّل أحدهم وقال «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا، ولا تثبت الحالة إلا بمشاهدة ومعاينة المرود في المكحلة».. ردَّ عليه الأول مستهزئـًا: «وكيف تُثبت هذه الحالة يا فقيه! هل ينتظرونك حتى تقيس.. أما يكفي إغلاق الحجرة عليهما؟!».. قال شاب: «نكسر الباب عليهما أم ننتظر حتى تكمل الملعونة شهوتها!».. ردَّ آخر: «الشيطان شاطر والنسوان ملعونات، ياما تحت السواهي دواهي».. تجرأ آخر وقال: «نحرق البيت بمن فيه، لتكون عبرة لمن اعتبر».. قلت لهم: «لا هذا ولا ذاك، نبلِّغ الشرطة وندعها تُطهِّر البيت».. فرد آخر: «أنت السبب، أنت من وافقتَ على إيجارها بيتك، أما سمعت الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده».. نخلع عليها الباب ونرى من عندها..» وأسرع نحو البيت والرجال يلاحقونه وراح يدق الباب بيديه ويركله برجليه.. استيقظ جيران البناية واشرأبَّت أعناقهم.. انسلَّت الألسنة من

أغمادها وأخذت تلوك وتعجن.. قال أحدهم: يا جماعة، اتقوا الله وتثبتوا لعله قريب لها..

ضاع صوته بين الهرج والمرج.. تعالت أصواتهم في الليل «أمجاد يا عرب أمجاد»، اقتحموا البيت بهجمة قوية، وخلعوا الباب.. وكم كانت دهشتهم حين لم يجدوها في البيت، كما لم يجدوا أحداً من أبنائها!.

مع مرور الأيام ازدادت الشائعة، لاكتها الألسن وحاصرتها الكلمات.. حاولت أم فهد أن ترتدي ثوباً جديداً، لكن النقطة السوداء ظلت واضحة في الثوب.. حاولت غسله ومسح النقطة السوداء بالماء والصابون، لكن النقطة تفشَّت ولطّخت الثوب.. مزَّقته واشترت غيره، ورغم أن الثوب لم يكن فيه بقعة جديدة، إلا أن الجيران والناس كانوا يرون البقعة السوداء في ثيابها بوضوح.

أخيراً عرفتْ أم فهد أن الناس ترى بعيون غير تلك العيون التي تراها في وجوههم.. فكان عليها أن تختار إما أن تمشي بلا ثياب، أو ترحل إلى مكان آخر لا يعرفها فيه أحد من الناس.

***

ذات ظهيرة، وبينما كنت أعمل في محلي القريب من البيت، شاهدتُ أم فهد تخرج من البيت ترتدي جلباباً.. راقبتها وهي تبتعد عن البناية، اقتربتْ من مجمع النفايات، أوقفتها عجوز وسط الطريق وراحت تقذفها بكلمات نابية.. سمعتها تقول «اتقي الله يا امرأة في

الرجال، خرَّبتِ بيوتهم ودمَّرتِ عائلاتهم».. لم تصمت أم فهد، قالت «كلهم كلاب يلاحقون اللحم والعظم».. اقتربت العجوز منها، شدت جلبابها وراحت تصرخ بأعلى صوتها فجأة وكأنها المُعتدى عليها.. وفي لحظة لم تتجاوز ثواني معدودة ظهرت مجموعة من النساء المحجبات من وسط بيوت الحي يهرولن نحو العجوز، وكأنهن على موعد معها.. صرخن بأعلى أصواتهن وهجمن على أم فهد دفعة واحدة.. سحبنها من شعرها ومزقن جلبابها وألقين بها على الأرض، وصاحت إحداهن بأعلى صوتها «هاتوا ملح، فرْج هذه المرأة لا يُشبعه غير الملح والتراب».. وفي غمضة عين انهالت أكوام من الملح بين أيديهن، وراحت إحداهن تزج بالملح بين فخذي أم فهد وتدفعه بعصبية إلى الأعماق، وأم فهد تتلوى عارية تصرخ وتتمرغ وسط أكوام النفايات، بعد أن تبيّن أنها لا ترتدي شيئاً تحت جلبابها.

تجمع المارة وبعض رجال الحي وشبابه، وقفوا مشدوهين يرقبون المعركة التي لم تدم سوى دقائق معدودة، غير آبهين لما يحدث، مسلطين نظراتهم على الجسد العاري والسيقان التي بدت كالعاج الأبيض بين نساء متحجبات بالسواد، بينما أسرع أحدهم وغطى أم فهد بجاكيت نزعه عن جسده محاولاً ستر عورتها، وهي تصرخ وتلعن أبو النساء والرجال، وقبل أن يعيدها إلى البيت، اختفت النساء بين أزقة البيوت وسط الحي دون أن يتعرف عليهن أحد.

مساء اليوم التالي رحلت أم فهد من البيت دون أن تترك عنواناً لها،

ولـم أعد أسمع شيئـًا عن أخبارها.

***

(٣٢)

ذات مساء شتائي، دلف أحد الأصدقاء القدامى مع زوجته بيتنا، جلسنا نسهر ونعيد ذكريات الصبا والشباب.. زمن مضى ولن يعود.. فردوس كانت تسهر عند والدتي المريضة وتقوم على خدمتها تلك الليلة.. الجو كان عاصفاً، ورياح كانون الباردة تهب وتضرب أسلاك أعمدة الكهرباء، وتُسمع أصوات أشبه بعويل حيوانات الغابة.. طغت برودة الجو على لهب المدفأة، ورحنا نستعرض متاعب الحياة وهمومها.

قلت وقد بدوت تلك الليلة يائسـاً إثر ألم حاد في كليتي اليمنى، أن نجمي أفل وشمسي غربت، كما طمست الغيوم معالم قمري.. وأضفت «سنوات العمر مرَّت وأنا أعيش الحياة بكل معانيها، الحب والمال والصحة.. وما كان ينقصني غير ابتسامة طفل يملأ البيت بالحياة والأمل.. تزوجت ثانية، ولا أدري كيف تغيَّرت الأمور.. صحتي تدهورت وغابت لحظات الفرح، ومنذ أكثر من ثمانية أعوام والحالة المادية تزداد سوءاً يومـاً بعد آخر».

كنت أتحدَّث كما لو كنت أقرأ من كتاب.. فجأة هبَّت زوجتي مروة واقفة، وقطعت حبل أفكاري، جالت بنظرها في وجهي معاتبة وغادرت الجلسة.. اكفهرَّ الجو، وبدا أن هناك سوء فهم.. استأذن

صديقي وغادر البيت برفقة زوجته، تقوقعتُ على نفسي، وغرقت في وحدتي وألمي من جديد.

تساءلت في قرار نفسي عما بدر مني، وشحن الجو حتى تصرفت مروة هذا التصرف!.. شعرتُ بعجز تام وأنا أعيش الفراغ بكل معانيه.. عادت مروة بعد مغادرة صديقي تحمل فنجاناً من القهوة، جلست قبالتي وقالت معاتبة: «صحيح أن زوجتك الأولى جامعية، وأنا لا أحمل غير الشهادة الابتدائية، لكني أفهم ما تقوله وما تعنيه.. أنا أقدِّر ظروفك، لكنك تجرحني وتُحرجني كثيراً أمام ضيوفك.. فهل حظك مال وانتكس فعلاً ولازمك الشقاء منذ أن تزوجتني كما قلت؟! أنت تزوجتني لأنجب لك أولاداً.. وخلال الأعوام التي قضيتها معي أعطاك الله ما تريد.. انظر إلى بناتك الثلاث وولديك، إنهم أفضل من كنوز الدنيا وما فيها.. وإذا كنت أنا سبب تعاستك، طلقني.. لكن لا تحرجني أمام معارفك».. وراحت تذرف الدموع.

سادت لحظة صمت، أسئلة كثيرة جالت في ذاكرتي، لم يخطر ببالي يوماً ما قالته مروة، فرغم الأحوال الصعبة التي أعيشها، إلا أن الله رزقني بما أتمناه من نعيم الدنيا.. استيقظتُ فجأة، تنبَّهت إلى الحكمة التي قالتها بغير قصد وهي تسكب النيران نوراً في أعماقي.. «الحياة أخذ وعطاء، ظل ونور، صيف وشتاء، سعادة وشقاء.. دورة الحياة متكاملة، ما إن تعطيك شيئًا حتى تأخذ منك شيئاً آخر.. فلماذا

ينسى المرء لحظات سعادته ويتذكر لحظات التعاسة فقط؟!».

حاولتُ أن أقنعها أني قصدت حالتي المادية والصحية، ولم أقصد المقارنة بينها وبين فردوس.. تفتَّرت شفتاها عن ابتسامة رقيقة، شعرتْ بالزهو والانتصار. تعالى إلى سمعي صوت أذان الفجر.. تلاشت العتمة، وسطع نور روحاني في أعماقي، لم أعد أتذكر غير بسمة أولادي وفرحهم.. كلمة «بابا» حين تنطلق من أفواههم.. عطية الإله بعد السنوات العجاف التي عشتها مع فردوس وأنا أحلم بطفل يملأ وحدتي وبيتي.. ابتسمتُ لهذه الخاطرة وحدَّثت نفسي «كيف لم أفكر بالسعادة الحقيقية التي أعيشها مع هذا العطاء الذي قدَّمه الخالق حين مدَّ لي جذور الحياة، وأنبت بذرة الخير!».

شعرتُ أن الشباب دبَّ في عروقي من جديد، قمت، توضأت وصليت الفجر، نظرت إلى أولادي، كانوا يغطون في نوم عميق، اقتربت منهم وقبلتهم واحداً واحداً، وفي حجرة زوجتي مروة ابتسمتُ لها وهمستُ في أذنها «اسمحي لي أن أقول لك بملء فمي أن نغماتك المجروحة بددَّت كل أحزان قلبي.. منك تعلَّمت الحياة، وتفتَّحت عيناي على ألوان من السعادة لم أشعر بها قبل هذه الليلة».

***

(٣٣)

تحسَّنت أحوال والدتي، وراحت تتحرك على كرسي بعجلات داخل البيت، ومع ذلك لم تنسَ والدي.. كانت تتذكَّره ليل نهار، وتقول إنها «تشتاق له كاشتياقها لأنفاسها».

شقتي التي أقيم فيها في الطابق الثاني قريبة من منزل والدتي الأرضي، الذي يضم بعضاً من أشجار الفاكهة، رفضت أن تتركه وتعيش في بيتي، معللة ذلك بأن بيتها يفيض بالذكريات التي تجمعها بوالدي، رغم مرور أكثر من تسعة أعوام على وفاته.. ومع أنها قاومت مرضها، وصارت تتوكأ على عصا بدل الكرسي المتحرك، إلا أنها أمست ضعيفة وهزيلة.

زوجتي فردوس تعودت السهر عند والدتي وخدمتها، سمعتها ذات مساء تصرخ وتنادي عليَّ بأعلى صوتها.. هرعت نحو بيت والدتي مسرعـاً، وإذا بها ممددة على الفراش لا حراك فيها.. قالت فردوس إنها كانت تنوي النوم لكنها أخذت ترتعش، وفجأة صمتت وغابت عن الوعي.. أحضرتُ حراماً ووضعته عليها، وحملتها في سيارتي ترافقني فردوس نحو المستشفى.. كنت أقود بأقصى سرعة، ووالدتي تلقي برأسها على كتف فردوس في المقعد الخلفي.. فجأة صحت والدتي ورفعت رأسها، قالت «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، وسقط رأسها على صدر فردوس، وهي تحتضنها بين ذراعيها..

أخذت فردوس تحركها وكأنها تبعث فيها الحياة من جديد، وأنا أحوقل وأقرأ آيات من القرآن الكريم.. ما إن توقفتُ أمام قسم الطوارئ في المستشفى حتى هرع المسعفون ونقلوها إلى الداخل، لإجراء الفحوصات اللازمة.. كنت أقف مشدوهـًا والأطباء يصعقونها بالكهرباء، ترتجف والدتي، تعلو وتهبط مع كل ضربة.. نظر أحدهم نحوي، من خلال نظراته عرفت ما يود قوله «هذا ما نستطيع فعله».. ثم أدار وجهه نحوها، أسبل جفنيها وغطى وجهها بالشرشف الأبيض الذي كان يغطي جسدها.. وأضاف عندما رأى الدموع في عيني: «تجمل بالصبر لقد أودعت روحها إلى بارئها قبل وصولها إلى المستشفى بأكثر من عشر دقائق، ولا نستطيع أن نعمل لها شيئـًا».

صباح اليوم الثاني تم دفنها جانب والدي، وفي مساء اليوم الرابع بعد أن انتهت أيام العزاء فوجئت بسعاد تلج البيت للتعزية بوالدتي.. كان قد مر أكثر من خمسة أعوام على رحيل أم فهد من البيت.. سعاد بدت امرأة جميلة وجذابة، ولم تعد تلك الطفلة التي كنت أراها سابقـًا.. قالت إنها تزوجت وتعيش حياة سعيدة مع زوجها، بعد أن أخذ والدها إخوتها وعاد إلى عمله في الكويت.. سألتها عن أخبار خالتها وأخيها فهد، تنهدت وراحت تسرد حكاية أسرتها كما عاشتها بعد رحيلهم من جوارنا.. قالت بأن أخاها فهداً اعتاد منذ طفولته النوم على صوت ابتهالات والدته، والدعاء له بمستقبل زاهر، لما تبنيه عليه

من آمال عريضة في مستقبل واعد، ومع ذلك تُصر وهو على أعتاب الشباب على أن تعطيه كأسـًا من الشاي قبل النوم، مقنعة إيَّاه إنه يريح أعصابه ويجعل نومه عميقـًا، وذهنه صافيـًا لتقبل المواد التعليمية في اليوم التالي.. أضافت "منذ إقامتنا في هذا الحي كانت خالتي تسقينا الشاي قبل النوم، حتى أصبح شرب الشاي أمراً اعتياديـًا لنا، دون أن نعلم ما يدور في الخفاء وخلف الأبواب، التي تصر أن تغلقها علينا قبل النوم، رغم الشكوك بتصرفاتها التي كانت تملأ رأسي ورأس أخي".

مع مرور الأيام، وبعد رحيلهم من هذا الحي أخذ فهد يشعر بدوار، أضافت سعاد، علّل ذلك بسبب إجهاد الدراسة، لكنه قرر ذات ليلة أن لا يشرب الشاي، تظاهر أنه شربه بعد أن سكبه في علبة صفيح دون أن تراه والدته، أطفأ النور وتمدد في فراشه استعداداً للنوم، لكنَّ الأرق ظل يناوره، وراح يتقلَّب في فراشه كغصن غضٍّ تلوِّحه ريح عاصف.

بعد منتصف الليل «أضافت سعاد»، سمعتُ صوت مفتاح الباب الفاصل بين غرفة خالتي وبين غرف أجزاء البيت الداخلية، يصل إلى مسامعي معلنـًا أنه يُغلق بإحكام، بعد لحظات سمعتُ صوت الباب الخارجي، صدى صريره عوى في أذنيَّ، وقع خطوات، ألف علامة استفهام اخترقت رأسي، هوت بي إلى قيعان الشك والغرابة!، أخذتُ أستعيد مواقف خالتي وسلوكياتها، لِمَ نقلت غرفة نومها إلى مدخل الشقة!، لماذا جعلت الباب حاجزاً بين غرفتها وبين أجزاء البيت!، لماذا تصرُّ على أن نشرب الشاي قبل النوم!.. لم أستطع النوم تلك

الليلة.. في قرارة نفسي تساءلتُ إذا كان يوجد في الشاي مادة مخدرة أو منومة!.. أسئلة كثيرة طرقت رأسي، صوت المفتاح جعل النوم يرحل عن عيني إلى آفاق بعيدة، وراحت الوساوس تنخر أفكاري!.

خبرتي في الحياة قليلة، «أضافت»، الطفولة تنسحب من عمري والشباب يتدفق في حناياه، السكون يلفُّ المكان، ثمَّ حركة دائبة في غرفة خالتي، همسات، وشوشات، نيران تحرق أنفاسي، شيء ما يحدث في غرفتها، تأوهات مكبوتة!.. أخيراً أدركتُ قذارة ما يحدث، رغم أن عقلي لم يتقبله، خيالي أخذ ينسج في ذاكرتي صوراً مرعبة، بكيت بمرارة، كمن يفقد أغلى من يملك، أليست خالتي في قدسيتها مثل أمي!، لكن خالتي دنست طهارتها بهذه الأفعال، تمنَّيت الموت على أن أرى خالتي في ذلك الموقف، الذي ينبعث منه رائحة نتنة تقتحم المكان والزمان.

فتحتُ باب غرفتي وتظاهرت بأني ذاهبة إلى الحمام، عند الباب وجدت أخي فهد متكوراً على نفسه يبكي.. سألته عما يدفعه للبكاء.. دفعني بقبضته، كدت أسقط على الأرض، أسرع إلى داخل غرفته وأغلق على نفسه الباب.. كنت واثقة أنه سمع ما سمعتُ تلك الليلة، لكنه تجاهل.. مساء اليوم التالي وأثناء غيابها عن البيت أسرَّ لي عما يخبئه في صدره.. وأضاف إنه أفضى لمدرس مادة التربية الدينية عن

شكوكه بوالدته عندما لاحظ الأخير شروده في الفصل.. كان لمسبحة الأستاذ المتموجة بريق يسلب كل ما خبأه أخي في صدره وما سمع تلك الليلة، أضاف لأستاذه أنَّه لا يعرف كيف يتصرف حيالها، فنصحه الأستاذ أن يبتعد عن وساوس الشيطان، وأن العار سيصمه إلى أن يبيضَّ شعر رأسه، ويُغضّن الزمان أخاديد وجهه، وتساءل على مسامع أخي أين برُّ الوالدين؟! وأضاف: « إياك والتهور يا ولدي وفضح مشاعرك أمام الآخرين، أعطني فرصة لزيارتها وإرشادها إلى طريق الدين والإيمان والتوبة».. وافق أخي على نصيحة الأستاذ، وتركه وهو يحدق في تلك المسبحة التي بين يديه.

بعد تلك الليلة صار همُّ أخي مراقبة والدته كما قال لي.. ذات مرة شاهد في البيت غليون مدير البنك، فعللت وجوده بأنه نسيه بعد أن أحضر شيكـًا مرسلاً من والده.. كان إغواؤها يذيب كل قيم الفضيلة عندما توقع أحدهم في مصيدتها، يومها قال أخي لها صراحة: «الاختلاط بالرجال حرام، ودعوتك لهم إلى البيت حرام، هذه الأفعال نار تحرقك وتحرقنا».. صفعته على وجهه منكرة ما يدور في رأسه وقالت: «هل تشك بأمك يا بن الحرام؟ روح اسأل أبوك عن الحرام»، وطردته خارج البيت.

غرق أخي في لجة من البكاء وهمس على مسمعي: «لا أستطيع أن أكون رجلاً، ولا أستطيع أن أعود إلى طفولتي للخروج من هذه

الدائرة المظلمة».. أخذت الأسئلة تطنُّ في رأسه، ما سبب سقوطها؟! هل هي شهوة الجسد، أم لأن جدَّه تعامل معها كصفقة حين تجاهل إنسانيتها، أم سلوك أبي الزوج الأناني الذي حقدت عليه منذ أن رأته يمارس أبشع أنواع الحرام في غربته كما قالت ذات مساء؟!.. دوامة غرق أخي في لجتها، هددها بقتلها وقتل نفسه، لكن تربيته الشرقية أبت أن تبرر فعلتها، وبنوته تخاذلت عن التنكيل بها.

لاحظتُ يوماً أن مقتنيات البيت الثمينة تختفي قطعة بعد الأخرى، وعندما سألت أخي قال: «لا شأن لكِ بذلك، ولا تتدخلي فيما لا يعنيكِ».. شعرتُ أن في الأمر سرّاً، وحين لاحظت خالتي اختفاء المقتنيات، اتهمتني بسرقتها وأوسعتني ضرباً.

بعد أيام شاهدتُ أخي يخبئ مسدساً في حقيبته المدرسية، وعندما واجهته، زعم أنه لصديق له، لكني كنت على يقين أنه باع المقتنيات الثمينة واشترى مسدساً.. وحين أخبرته أني لا أصدقه، عزا امتلاكه للمسدس حلاً لجميع مشاكله.. كان يشعر أن المسدس الذي حصل عليه مفتاح لحريته كما يعتقد، إلا أن العالم الذي انفتح أمامه فجأة بدا مظلماً ومعقداً.. كان يمضي ساعات وهو يتحسس المسدس ويسترسل في أحلامه، وحين عبأه بالرصاص طارت به أفكاره إلى المجهول.

حل العصر وبدأت الشمس تتوارى خلف السحب، اختلجت في الهواء رعشة باردة.. اتصل والدي ذلك المساء وقال إنه سيصل بعد ثلاثة أيام إلى عمان.. لم يخبر أخي والدته عن المكالمة الهاتفية وعن موعد وصول أبي.. مساء اليوم التالي استلقى على الفراش بلا نوم ساعة كاملة، بعد أن أوعز لوالدته أنه شرب الشاي ونام، سمع صوتـاً ففتح عينيه، حركات أقدام تأتي وتروح، هدأ الصوت قليلاً.. آهات كانت تأتينا من خلف الباب مع أنفاس متهدّجة.. رفع أخي مسدسه فجأة وصوَّب نحو الباب وقدح الزناد، ارتجف ولم يحسن التصويب بثبات، مع ارتعاشة يده ونظره أطلق النار ثانية، ثم اندفع نحو الباب وفتحه فجأة، تسمَّر أخي في مكانه ووالدته ترتجف على الأريكة بلا صراخ، راح يدقق في أثر الجريمة، قال إني أعرفها، هذه سبحة الأستاذ، والله لأقتلك وأقتله.. ازداد العالم في نظره قتامة وتعقيداً ووالدته ترتعش، وصوت الآهات والأنفاس المتهدجة تعلو من الغرفة الداخلية.. اقتحم الباب والمسدس بيده، كان التلفاز يبث فيلمـاً إباحيّاً وصوت آهاته يقلق الغرفة، أطلق النار على التلفاز فتطايرت شاشته شظايا وصمت فجأة.. نظرت خالتي إلى أخي وهي ترتعش وقالت «ماذا تفعل يا غضيب؟»، وراحت تهيل الدموع دون أن تستطيع الوقوف على قدميها.. أضافت: «أنا عارفه مين اللي معبِّي راسك، أختك سعاد هذه الفاجرة بنت الحرام، الله لا يسامحها، اهدأ يا ولدي واجلس لأشرح لك الأمر.. سامحك الله يا فهد على ما فعلت،

تسرّعت في تصرفك، كنت سألتني قبل أن تُطلق النار، كان أستاذك ظهر اليوم عندي يوصيني عليك، وعندما غادر البيت نسي مسبحته.. سامحني يا ولدي إذا كنت قد أخطأت بحقك ولم أخبرك بذلك، لكن صدقني، إن جسدي لم يمسه غير أبيك، وكل ما سمعته وما دار في ذهنك أوهام وشائعات، ولم يستطع أحدهم النيل مني».

لم يصدق أخي والدته، التجأ إلى غرفته، أغلق على نفسه الباب وغرق في وحدته وصمته.. بعد ظهر اليوم التالي عدت من المدرسة لأجد أخي جالساً في البيت ينتظر قدوم والدي.. قلت له بأني تعبة، وآويت للفراش حتى المساء.. قرابة الساعة السابعة صحوت.. كان المصباح مضاء والغرفة دافئة وغير مرتبة والستائر مغلقة.. أثار فضولي جلوس أخي هادئاً على غير عادته أمام والدي، الذي وصل البيت وأنا نائمة، سأل والدي أخي عن والدته، قال إنها خرجت لشراء بعض الحاجيات وستعود قريباً، ومع ذلك لم تصدر عنه أية حركة تدل على ما يخبئه في صدره، وحين نهضتُ محاولة الدخول إلى المطبخ، قال لي فهد «اجلسي، فأنا بحاجة لأتحدث إلى أبي أمامك».. عدت ببطء وأنا أحدق فيه بعينين واسعتين منذهلتين.. سأله والدي «ما الأمر؟».. خمدت في أخي كل حركة بينما أبقى رأسه محنيّاً ليقع ضوء المصباح على الجزء الأعلى من وجهه، تاركاً ذقنه وفمه في الظل، لاحظتُ عضلة صغيرة تنبض قرب محجر عينه اليسرى.. قال لوالدي بلا

مقدمات «أخشى أن يفاجئك هذا الخبر، غير أني قررت أن أبوح به فوراً.. لن تستغرق المسألة طويلاً، دقيقتان فقط».. وفيما كنت ووالدي نصغي بهدوء تام، وأنا أراقب أخي بقليل من الهلع، وهو ينأى بنظراته عني، ويتجنب النظر إلى عينيّ والدي، أضاف: «أنا أعرف أن الظروف غير مناسبة لأشرح لكما الأمر، لكن لم يكن لدي خيار آخر.. كانت زانية وجلبت لنا العار».

لم يصدق والدي كلمة واحدة مما سمع، اتهم ولده بالجنون ودافع عن شرف زوجته.. وحين وقف طلب منه فهد أن يتبعه إلى الغرفة الداخلية.. وعندما ضغط على مفتاح الضوء تجمدتُ في مكاني وأنا أرى جثة خالتي ملقاة على الأرض وخيط من الدماء المتجلط يملأ الغرفة!.. صرخ والدي ماذا فعلت يا مجنون؟!.. وبلا وعي هجم عليه. تصلب أخي أمام لكمات والدي، وبينما كان والدي يلف الجثة بحرام سمعنا صوت طلق ناري.. أفاق والدي من صدمته وأخي يسقط على الأرض في زاوية الغرفة جثة هامدة، بعد أن أطلق النار على رأسه مباشرة.. انتابتني قشعريرة وأنا أصرخ، وغبت عن الوعي، ولم أصحُ من وقع الصدمة إلا في المستشفى».

أضافت سعاد بأن صوت أخيها فهد ما زال يرن في أصداء سمعها ورأسها، القهر سحقه وكان لا بدَّ أن يفعل شيئًا، صورته على الجدار في بيتها تدعوها لاحتضانها في كل وقت، فجأة غاب فهد عن ناظريها،

وملف القضية حُفظ.. خالتها اختفت في غمضة عين، ووجدت نفسها مسؤولة عن أسرة بلا سند.. بعد أن تزوجتْ عاد والدها مع إخوتها إلى غربته التي أضحت وطناً له، وبقيتْ سعاد وحدها تجتر الذكريات.

***

(٣٤)

انشغالي بعملي أبعدني عن أسرتي، راحت دوامة العمل تطحنني ليلاً ونهاراً.. رذاذ يُنعش ذاكرتي ويعيدني إلى البداية.. في البداية وبعد استقراري في عمان تم تعييني مدرساً في إحدى مدارس عمان، لكني

أقنعتُ نفسي بأن عملي في التجارة أفضل من الوظيفة.. قدمت استقالتي وفتحتُ سوبر ماركت، لكني لم أجد فيه ما يقنعني.. حوَّلتُ المحل بين ليلة وضحاها بعد أكثر من عام إلى مخزن تجاري لبيع مواد البناء، لم أوفق فيه أيضـًا.. وجدت نفسي بعد عامين أحوّله إلى محل لبيع وتأجير أشرطة الفيديو وتصوير المناسبات.. ومع ذلك لم أتخلَّ عن هوايتي الأولى، المطالعة والكتابة كانتا همي الأكبر في الحياة، وأخذت معظم أوقات فراغي، وخلال تلك السنوات أصدرتُ عدة روايات ومجموعة قصصية .. كما تعرفتُ على معظم الكتاب والأدباء الأردنيين والفلسطينيين، والتقيتُ بالكثير من الأدباء العرب.

تحسنت أحوالي المادية، وقمت بسفرات عدة، زرت خلالها بلاد الشرق الأقصى: هونغ كونغ، وتايلاند، والصين، والهند، كما زرت معظم البلاد العربية.. في ليبيا التقيت بالعديد من الأدباء في الفندق الذي كنت أقيم فيه.. قالوا إنهم يحبون الأردن رغم أنه لم يسعفهم الحظ بزيارته، ويحبون رائحته كما يحبون أدباء الأردن، ويتمنوا اللقاء بهم جميعـًا.. تلك الأيام التقطنا صوراً تذكارية وتبادلنا هدايا من الكتب والروايات والمجموعات القصصية.

في تلك الفترة أيضـًا كتبت كتابـًا عن قرية «صوبا» إحدى قرى فلسطين المحتلة، التي أُحتلت عام النكبة ودُمرت عن بكرة أبيها.. وفوجئت بعد عام من صدور الكتاب بدكتورة تعمل في جامعة سان جورج بكاليفورنيا، ومتخصصة بالاستشراق والمستشرقين تتصل بي

وتزورني في بيتي، للاطلاع عن كثب على كتاب صوبا الذي سمعت به.. كانت تجمع معلومات عن كُتب وكُتاب القرى الفلسطينية وتتحدث اللغة العربية بطلاقة.. وقد نشرت تلك المقابلة على صفحات كتاب لها وعلى موقعها في الإنترنت، كما ترجمت فصولاً من الكتاب.

العمل والمطالعة والكتابة والرحلات أخذت كل وقتي، وعدت لا أرى أبنائي إلا بعد نومهم، وقبل صحوهم وتوجههم إلى مدارسهم كنت أسرع إلى عملي.. أضف إلى ذلك انشغالي بأبناء العشيرة بعد أن انتخبوني مختاراً لهم لأتدبر أمورهم، وأكون لسان حالهم في الملمات وفي المناسبات الاجتماعية.

أشغالي كثرت بلا فائدة وتنوعت دون حساب، وأسرتي بدت بعيدة عني كمن يعيش في غربة.. مسافر أضاع بوصلته وفقد ظله عبر متاهات الزمن، مسافر بلا هدف.. طلباتهم كثرت، وطاقاتي بدت محدودة في السنوات الأخيرة، أدركتُ ذلك عندما أخفقتْ ابنتي الكبرى في امتحان الشهادة الثانوية العامة، شعرت بانكسار في أعماقي، وبَّختها وطلبت منها أن لا تيأس وتعيد الكرة ثانية.. ذرفتْ دموعًا ولم تنطق بحرف.. في الأشهر التالية جمعت كتبها وأوراقها المدرسية وانزوتْ في غرفتها.. راحت تشعل النور وتتأمل أشلاءها، تستعيد إرهاصات أعوام مضت لم تُحتسب من عمرها.. كانت تحلم بالنجاح والالتحاق بالجامعة، تحلم بقيادة سيارة، وظيفة محترمة وزوج محترم.. لكنها

وجدت نفسها تنهار فجأة، تفقد أحلامها وأمل المستقبل الذي طالما حلمت به.

تفرغتْ للمطبخ وغسيل الملابس، ما إن تنتهي من تنظيف البيت حتى تنعزل في غرفتها، وتغلق الباب على نفسها.. قلت لها مراراً وتكراراً «إذا كنتِ راغبة في النجاح، فعليك أن تسعي وراءه، إن الضمان الأكيد للسعادة هو النجاح، أما الخيبة فعاقبتها التعاسة المطلقة».

مساء ذات يوم، شاهدتها تجلس على طرف المقعد مثل كتلة مشدودة وقد أحاطت وجهها بيديها وانغمست بالبكاء.. اقتربتُ منها بحذر، لمست كتفيها بيدي وسألتها عما ألمَّ بها!.. مسحت دموعها وتنهَّدت، ومع ذلك لم تستطع أن تخفي النظرة الحزينة المتعبة التي لاحت على ملامح وجهها.. قالت: «لا شيء، لا شيء مهم يا بابا».. وحين نظرت في عينيها أردفتْ: «أشعر بالفشل، فأنا لست مؤهَّلة لاجتياز امتحان الثانوية العامة مرة أخرى».. قلت لها أشد من عزيمتها: «فشلك مرة أو مرتين لا يعني نهاية الحياة.. بالإصرار والإرادة يمكنك النجاح».

أجابت بمنتهى الكآبة: لا، لم يبقَ وقت كافٍ للامتحان، أشعر بخيبة أمل وهزيمة منكرة..

قلت لها أشجعها: «أنتِ ترهقين نفسك بهذه الأفكار، تشجعي وكرري المحاولة.. إن قوتك الحقيقية تصدر من نفسك، النجاح لا

يأتيك من الخارج.. ليست القوة المطلوبة قوة عضلات، إنها تصميم الإرادة والعزم على النجاح».

كنت أتحدث وآمل أن أجد نجاحاً حيث وجدت ابنتي إخفاقاً. قالت «كنت دائماً أقول إن بإمكاني تحقيق أي أمر أركِّز جهدي عليه، وما زلت أظن ذلك ممكناً في معظم الأمور، لكني لا أقدر على إثبات وجودي في هذا الامتحان بالذات».

أدركتُ مدى تألمها والإرهاق الذي يتملكها، شعرتُ بعجزي عن أداء أية مساعدة، رغم خبرتي وعملي في مجال التعليم ومحبتي لها، فجأة أحسستُ بشيء ما في داخلي يتحرَّك.. دنوت منها وطوَّقتها بذراعيَّ.. دفنت وجهها في صدري وانفجرت بالبكاء.. لم أنبس ببنت شفة، لكني عرفت ما يجب أن أفعله تلك اللحظة، وكان ذلك كافياً.. أحسستُ بالعواطف المتأجّجة في صدرها، وفهمتُ للمرة الأولى مدى ضعفها ومقدار حاجتها إليَّ.. همستُ في أذنها: «الفشل لمن يملك الإرادة هو أساس النجاح.. أنا واثق إنك تملكين الإرادة القوية.. ولم أنسَ يوماً محبتي لك رغم الغضب الذي صببته عليك يوم ظهرت نتيجة الامتحان».

انهمرت الدموع من عينيها ثانية، التصقت بصدري، أحسستُ للمرة الأولى بالحنين المتأجج داخلي نحوها ونحو أبنائي، وأدركت بعض الصعوبات التي تواجهها في دراستها، فظننتُ أنها ستكون شاكرة

إن قام أفراد الأسرة بالأعمال البيتية بدلاً منها.

قالت شقيقتها الصغرى وكأنها في موقف الدفاع عن نفسها: «أنا أعمل ما فيه الكفاية».

قلت لها بأني أعلم ذلك، وقد يكون عليها أن تعمل أكثر، وذكَّرتها أن في نجاح شقيقتها سعادة لها ولنا جميعاً.. وقالت والدتها إنها على استعداد أن تقوم بكل أعمال البيت حتى تتفرغ ابنتها لدراستها.

شعرتْ ابنتي أنها ولدت من جديد.. راحت تدرس بانتظام، وغدوتُ كلما مررت أمام غرفتها مساء ينتابني شعور جديد، إذ أسمع صوتها منكبة على الكتب.. أدرك أن هناك أموراً تجري أكثر من قضية فتاة تحاول النجاح ونيل الشهادة.. ومع ذلك لم أتبادل الحديث معها عما جرى ذلك المساء.. وحين اجتازت الامتحان بنجاح عرفتْ أنها كسائر الناس.. الحياة أصبحت أبسط كثيراً عندما أدركتْ أنها مثل الآخرين.. ابتسمت وتقدَّمت مني وقبَّلتني.. نظرتُ إليها والابتسامة تملأ وجهي ولم أنطق بكلمة.. قالت: كم أحبك يا أبي!.. فأنت بقلبك وحبك دفعتني للنجاح يوم أن طوَّقتني بذراعيك تلك الليلة، أما ابتسامتك فكانت أجمل شهادة حصلت عليها في حياتي.

طوَّقتها بذراعي تلك اللحظة، قبَّلتها من جبينها وقلت «مبروك».. انهمرت الدموع من عيني، وانتابني شعور عميق بالندم على إخفاقي بكبْت عواطفي تجاه أبنائي طوال الأعوام الماضية.

***

(٣٥)

ذات مساء من ليالي شهر نيسان، وبينما كنت أدلف البيت، قالت فردوس وهي تبتسم: «عندنا ضيوف، احزر من هم؟».. أجبتها بأني لا أعلم الغيب، وعلى الرحب والسعة.. قالت: امرأة تعرفها حق المعرفة، وتعزها أكثر مني.. نظرتُ إلى وجهها وبي رغبة لأقول: وهل هناك من هو أعز منها!.. أضافت قبل أن أتفوه بكلمة: «لن أخبرك ستراها بعينيك»، وسبقتني إلى غرفة الضيوف.. لم أكن أتصور أني سأرى «نبيلة» من جديد، كما لم يخطر ببالي أنها ضيفة المساء ترافقها صبية بعمر الورود.. فمنذ أن حالت الظروف بيني وبينها، انقطعت أخبارها ولم أعد أعرف عنها شيئًا.. ظلت نبيلة جالسة في مكانها ترقبني وأنا أمد يدي وأصافحها.. فردوس كانت واقفة تنظر إلينا.. نظرت نبيلة إلى الفتاة التي ترافقها وقالت «هذه ابنتي الكبرى». وأضافت قائلة لها «هذا عمو، سلّمي عليه».. بخجل شديد وابتسامة رقراقة مدت ابنتها يدها ولامست يدي.. جال بخاطري أن أقبلها كابنة لي، فهي في مثل عمر ابنتي الكبرى وبنفس جمالها، لكنها تشبه والدتها كثيراً.. بعد أن جلستُ قالت فردوس إنها كانت تتواصل مع نبيلة على مر السنوات عن طريق الهاتف والزيارات الخاطفة، لكنها أخفت عني ذلك.. وحين قامت فردوس تعد القهوة تبادلتُ مع نبيلة الحديث والنظرات.. بدت رائعة الجمال كما عهدتها سابقًا، الزمن لم يصبغ

ملامحه على جسدها أو وجهها رغم مرور السنوات الطويلة.. ابتسامتها ما زالت تغزو القلب، والقلب يتسارع ويعود للزمن الماضي.. قالت وكأنها تستعجل الوقت بعد أن عادت فردوس تحمل صينية وعليها فناجين القهوة: «جئت بناء على طلب فردوس لتعطي ابنتي درساً في اللغة العربية قبل موعد الامتحان».. وأضافت تحث ابنتها على عدم ضياع الوقت: «هيا قومي بجانب خالتك لتشرح لك الدرس».. فقالت فردوس: «لا ينفع الشرح هنا، سنجلس في الغرفة المجاورة إذا كان هذا الأمر لا يزعجكما»، وقامت مع ابنة نبيلة تحمل فنجان القهوة في يدها.. قالت نبيلة إنها تزوجت بعد زواجي من مروة بعام واحد من رجل أعمال يتاجر بالملابس في السوق الحرة.. وأنجبت منه البنين والبنات، واسم ابنها البكر مثل اسم ابني الأكبر.. كانت تتحدث وأنا أصغي.. فجأة توقفت عن الحديث وسألتني إذا كنت مرتاحاً بعد هذه السنوات من زواجي للمرة الثانية.. وأضافت قبل أن أجيب: «منذ أن رأيتك قبل أكثر من نصف ساعة، لم أعد أتذكر غير سنوات الكلية وأيام الشباب، ولا أدري إذا كنت تشعر بما أشعر».. عند تلك النقطة توقف الزمن، شعرتُ أن لساني انعقد أمام كلماتها، السنوات أجبرتني على أن أحترم نفسي وعمري الذي تخطى الستين عاماً.. قلت بأن الزمن بلسم الجروح، لكن تلك الأيام نقطة فرح بيضاء في مسيرة العمر، فكيف أنساها!.. اقتربت برأسها وكأنها

تهمس في أذني رغم المنضدة الصغيرة التي تفصل جلستنا، وراحت تغوص في الذكريات وأيام الشباب ولا تكف الابتسامة عن شفتيها وكأن العمر لم يتقدم بها!.. بقايا رذاذ أنعش ذاكرتي وأعادني إلى ماضٍ بعيد.. ما زالت جميلة وجريئة، وحاسة الزمن تستحوذ على الماضي والحاضر.. سنابل فرح وورود ملونة غمرتني وأنا أستعيد زمنًا جميلاً انقضى ولن يعود.. قطعت فردوس استرسالنا وولجت غرفة الجلوس ثانية بعد أن أتمت واجبها مع ابنة نبيلة.. قلت: الأيام تنقضي كالثواني والعمر يمر كالحلم. «ألا ليت الشباب يعود يومًا!».. ابتسمت فردوس وقالت وكأنها سمعت كل أطراف الحديث الذي دار بيننا «هذه هي الدنيا، ما إن نلج من باب حتى نخرج من باب آخر».. فقالت نبيلة: «المهم القلب وليس شعر الشيب الذي نراه على الرؤوس.. طالما والمرء يشعر أن قلبه شباب، كل شيء يهون».

ليلتها استعدنا أكثر من ربع قرن مضى ما زال يعشش في الذاكرة، ثم عدنا نتحدث عن الواقع، والمشيب، والأمراض، وتعب الحياة.. قالت فردوس «لا يوجد إنسان خاليًا من الهموم، الهموم يُمكن أن يتناساها المرء، أما الأمراض المزمنة مثل الضغط والسكري ووجع القلب كيف نتغلب عليها!.. إنها شريكة العمر ولا يمكن الخلاص منها».

كنت أعلم أن فردوس تعاني من مرضي الضغط والسكري،

وتراجع طبيب القلب لإجراء عملية قسطرة، لكنها كانت تخفي عني موعد العملية، مبررة ذلك بأني أعاني من نفس الأمراض، إضافة إلى ضعف الكلية وتضخم البروستات، ولا تريد أن تضيف همومها إلى همومي.. فقالت نبيلة «ليت كل العمليات مثل عملية القسطرة، صار الأطباء يعملوها في نصف ساعة، يعود بعدها المريض إلى البيت سالمـًا معافى».

في نهاية السهرة دعتنا نبيلة لزيارتها، وقالت ونحن نودعها قرب باب السيارة الفخمة التي تستقلها «الزعل سبب كل الأمراض، لا تزعلوا ولا تندموا على ما فات، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين».

***

بعد أن غادرت نبيلة البيت، جلستُ وفردوس صامتين لأكثر من ساعة، وكل منا يعيش عالمه الخاص.. لم أرَ نبيلة بعد ذلك اليوم.. قهرت فردوس الصمت وراحت تتحدث عن ابنة نبيلة التي تدرس في الجامعة، مضيفة أنها لو أنجبت منذ زواجها لكانت ابنتها أنهت الجامعة وتزوجت وصارت أمّـًا.. قلت لها لو حصل ما تتمنين كنت أصبحتِ جدة.. «ما كل ما يتمنى المرء يدركه».. ورحت أصغي لعذاباتها..

منذ أكثر من خمسة أعوام اجتازت فردوس سن اليأس بآهات قليلة، تقبَّلت عيد ميلادها الخمسين بإطفاء شمعة واحدة.. أما تلك الليلة فقد أفضت لي بما تشعر من عذاب الوحدة وإحساسها بقسوتها، رغم كثرة الناس وعدد الأحياء والأموات، ورغم عدد الطالبات في مدرستها التي تعمل فيها منذ أكثر من عشرين عامـًا.. أضافت بأن أجيالاً عديدة تخرَّجت على يديها، الكثير من طالباتها أصبحن محاميات أو طبيبات أو مدرسات، وربات بيوت، تزوجن وأنجبن بنين وبناتٍ، هي وحدها التي لم تنجب في هذه الدنيا، فضَّلت الحياة معي وسكنت برفقة زوجتي الثانية على مضض، ولا تدري كيف جالت السنوات السابقة من عمرها هذه الليلة بالذات في ذاكرتها، وكيف مر الزمن عليها وهي تشعر بالوحدة!.. وأضافت بهمس: «الأيام تمر سريعـًا، والموت أهون من الوحدة».

عتمة الحياة سادت البيت بعد رحيل والديها منذ أعوام خلت، شعرتْ أنها تعاني آلامـًا لا قبل لها عليها، أغمضت عينيها وراحت في سكون الليل تفترش أوجاعها.. تذكَّرت أوراق الامتحانات، قامت بصعوبة وأضاءت المصباح، انكبَّت على الأوراق تصحيحـًا.. إنها تحفظ أجوبة المادة التي تُدرِّسها عن ظهر قلب، شعرت بصداع في رأسها، قالت وكأنها تحدِّث نفسها «إنها النظارات اللعينة»، تحاملت على نفسها وألقت بجسدها المترهل على سريرها، صرّ وأخرج أنينـًا فاق أوجاعها، «آه، نسيت أن آخذ حبة الضغط، لعنة الله على

الشيطان!».. همست وقامت ثانية، ابتلعت الحبة وشربت خلفها جرعة ماء، ألقت بنفسها ثانية على السرير، تذكَّرت حبة الدواء الخاصة بتمييع الدم، حبة الدواء الخاصة بالقلب.. تأففت، حوقلت، وأغمضت عينيها في السرير.

في السابعة صباحـاً أغلقت خلفها الباب، وأسرعت تحث خطواتها تجاه مدرستها القريبة.. كانت الطالبات يضبطن ساعاتهن على موعد وصولها، لم تتأخر يومـاً عن الدوام ولم تغب يومـاً، تبدأ دروسها بنشاط، وتنهي دوامها أيضـاً بنفس القوة والثبات.

لا تعرف لِمَ بدا لها ذلك النهار مملاً كما قالت لي مساء! تساءلتْ «ماذا يضير الوزارة لو كرَّمتها قبل تقاعدها أو قبل موتها!».. حسمت الجواب سريعًا، «لا، ما زال الوقت مبكِّراً على التقاعد، أنا ما زلت قادرة على العطاء، ما زلت قادرة على أن أعطي حُبّاً كما أعطي دروسي، بالحب يحصل الإنسان على السعادة، السعادة أفضل تكريم في حياة الإنسان».

أحسَّت بالتعب ذلك اليوم، شعرت أن نشاطها مفتعل، تحت جلدها يعيش السأم كما يعيش التجدد.. نظرت إلى السبورة السوداء، شعرت أن اللون الأسود يظلّل حياتها، يفصل النور عن عينيها، لونـاً متأصلاً في أعماقها، يسرق منها الحب الذي حرصت على اقتنائه

دائمـًا في صدرها.. أحسَّت بذبول المرأة في جسدها وفي خريف عمرها، ترنحت وكادت تقع على الأرض أمام طالبات الفصل «كما قالت». اتكأت على المنضدة، تابعت الحصة بكلمات بسيطة ومتقطِّعة..

«الأرض بعد أن تتجدد وتزهر، تجف وتصاب بالاصفرار»..

صمتت لحظة، أضافت «المرأة هي الحياة بتغيُّرها وتجهُّمها، بتجدُّدها، بانقباضها وانبساطها».

رفعت إحدى الطالبات يدها، سألت: ما سر العلاقة بين الأرض والمرأة؟

- هل قلت المرأة أم الأرض؟! وماذا في ذلك؟ سؤال مهم يستحق الإجابة، المرأة تشبه الأرض، إنها تحمل معها تضاريس الزمن والعطاء..

أحسَّت أنها تتحدَّث عن نفسها، توقَّفت عن الشرح، طلبت من الطالبات متابعة القراءة بصمت، وتكوَّرت كطفل في رحم أمه على المقعد.. تلاحقت الكلمات والصور في أعماقها «الأنثى كالزهرة، حين تجف الزهرة تسقط، والناس لا ينظرون إلى الزهرة الذابلة».

استأذنت طالبة وعلَّقت: الأرض تعشق الجمال كالأنثى تمامـًا، الأرض تحب الربيع الدائم، دورة الطبيعة مستمرة، خريف وربيع، شتاء وصيف، أما المرأة فكيف تتجدَّد؟ إنها تخشى على جمالها من

الذبول، حين تكبر المرأة تصاب بالهلع.

تضاحكت بعض الطالبات، شعرت الطالبة بالإحراج، جالت فردوس بنظراتها في وجوه الطالبات تستوضح الخلل من عيونهن، وقفتْ، ران الصمت على الصف، نظرت إلى الطالبات، قرع الجرس معلنًا انتهاء الحصة الأخيرة، لم تتفوَّه بكلمة، جمعت أوراقها، وخرجت من الفصل.

في طريقها إلى البيت سارت بتمهُّل، أحسَّت بالتعب لأول مرة، ما إن أغلقت الباب على نفسها في البيت حتى واجهتها المرآة، وقفت أمامها وأخذت تتمعَّن في وجهها، صدى كلمات الطالبة ما زال يرن في أذنيها «حين تكبر المرأة تصاب بالهلع». للمرة الأولى تتأمل وجهها وترى التجاعيد وخطوط الزمن الذي سُرق منه نضارته، راحت الأفكار الأنثوية تجتاحها، تذكَّرت أيام الصبا، بدا لها وجهها أجمل من الربيع في ذلك الوقت، كانت بسيطة وذكية، منبسطة كالسهل، منسابة كالنهر، هائمة كالريح.. كثيراً ما كانت تتوق للحب والإطراء أثناء وجودي معها.. تمعَّنت في المرآة ثانية، شعرت أن جمال وجهها الذابل يفتقر إلى رقة الأنثى، قالت: «النضارة والسحر لا يساويان شيئًا أمام حرارة المشاعر ورقة الأنثى، إن ما يجذب الرجل الحنان والرقة ودفء المرأة.. الزهرة بدون رائحة كالمرأة الجميلة بلا عواطف،

كالوجه الجميل دون سر».

أقنعت نفسها بهذا المنطق، «لكي تمتلك شيئًا، فلا بد أن تفقد سواه»، تساءلت «ما الذي بقي لي، وماذا أمتلك في هذه الحياة؟!».. همست وكأنها تحدث نفسها «سامحك الله يا زوجي!».

شعرتْ أنها فقدت كل شيء في حياتها وهي تبوح لي بما حصل معها ذلك النهار. تساءلتْ: ماذا حققت لنفسها في هذه الدنيا؟! الناس يطلبون العظمة ويتوقون إلى الثروة والنفوذ والشهرة، يظنون أن الوصول إلى العظمة يعني الوصول إلى حلاوة الدنيا دون مرارتها، لكن لا يمكن أن يقسموا الأشياء ويحصلوا على الطيب بمفرده، تمامًا كاستحالة النور من دون الظل.. وأضافت هامسة: «أنا خسرت النور والظل، حياتي وهم، ضياع، لم أسمع خلالها ما تتوق إليه كل امرأة في حياتها، كلمة ماما»..

قلت لها: «ما هذا الهذيان؟! أنت ما زلتِ بجانبي ولن أتخلى عنك»، أغمضت عينيها لحظة، شعرت أن قلبها ينبض بتسارع وعنف، تراخت أعصابها وأعضاؤها، أسرعت وابتلعت حبة دواء الضغط، عادت ثانية وتأملت وجهها في المرآة، سنوات طويلة وهي تنظر إلى المرآة، لا شيء تغير، القلب ما زال ينبض، السنوات تجري، جال بخاطرها أن تنزع المرآة عن الجدار، لم تجرؤ. قالت: «مهما ألحقت السنوات بالإنسان من علل، يبقى في صدره صوت ينادي: سوف أحيا.

دائمـًا كنت أتغلب على الصعاب، ما الذي تغيَّر هذا اليوم! لا شيء، حالة إعياء وتنقضي».

قاومـت رغبـة الانهيـار التـي اجتاحـت أفكارهـا لـدقائق، دخلـت المطبخ وأخذت تحضِّر طعام الغداء، صنعت فنجاني قهوة، وجلست قـرب النافـذة تراقـب المـارة، وتصـيخ السـمع للأطفـال يلعبـون ويتراكضون ويطاردون كرة القـدم على الرصيف، تنهدت ومسحت دمعـة جـرت سـاخنة على وجنتيهـا.. همسـت وكأنهـا تحـدِّث نفسـها بصوت مسموع: «هذه هي الحياة، لن تتغيَّر، وأنا لست المرأة الوحيدة في هذا العالم، أنا مـا زلـت قـادرة على الحب والعطاء، وحتـى يحين موعد أجلي، سوف أحيا».

***

(٣٦)

بداية المشاكل الحقيقية بين الزوجتين بدأت عندما تقدم أحد الأقرباء لخِطبة ابنتي الكبرى.. فبعد أن تم الاتفاق بيننا فوجئت به يغادر البلاد، ويتصل بي قائلاً إنه في حل من الاتفاق.. سألتُ والدته عن السبب أثناء زيارتها لبيتنا، قالت لي ولزوجتي مروة بأن فردوس هي السبب عندما أخبرته أن ابنتك لا تصلح له، ونصحته أن يتزوج غيرها لأن والدتها قوية وعصبية، ولا يستطيع الاتفاق معها أو مع ابنتها.. لم أصدق ما أسمع! وطلبت من فردوس توضيح الأمر، أنكرت فردوس وراحت تكيل الشتائم على كل كاذب وظالم، وأضافت أنها تحب ابنتي الكبرى أكثر من نفسها، ولا تستطيع أن تعيش بدونها، فكيف إذا تزوجت وغادرت البيت.. عدت وسألتها عما قالته عن مروة، لم تنكر وقالت «هذه حقيقة، فزوجتك قوية وظالمة وتريد إبعادي عنك بأية طريقة».

في قرار نفسي كنت أعرف أنها تغار من مروة، لكني لم أكن أعلم ما تكنه من كره لها وحقد عليها، كما كنت أعلم ما تخبئ في صدرها من حب لابنتي، لكني لم أكن أعلم أن هذا الحب سيؤول في نهاية الأمر إلى حرز تحتفظ به مدى العمر، حتى تبقيها جانبها.. لو كانت والدتها حقّاً لتمنت لها السعادة في بيت الزوجية، لا أن تقف في طريقها وتبقيها أمام عينيها كالوقْف أو الأرض البور.. أمام ما جال بخاطري من أفكار أيقنتُ أن حبل الود قد انقطع بين الزوجتين، وأن مروة لن تغفر لفردوس بعد أن عرفت ما عرفت.

انقطعت شعرة معاوية بين الاثنتين بعد ذلك اليوم، وما عاد الإصلاح يجد طريقاً إلى قلبيهما.. ومع أني حاولت أن أصلح بينهما وأعيد العلاقة، إلا أن كل واحدة كانت تضمر للأخرى غير ما تظهر، وباتت فردوس تتمرد على كل ما هو واقع في البيت، بعد أن قطعت ابنتي علاقتها معها.. قالت في لحظة غضب إنها لا تحتاج مني شيئاً، وباستطاعتها أن تصرف على نفسها.. قلت لها مئات المرات بأني لن أتخلى عنها.. لكنها لم تعر لكلامي أي اعتبار.. كاد الكلام ينقطع بيننا في الأشهر الأخيرة.. امتد الخصام لعام كامل وهي تقول إني أخذت كل شيء من حياتها، ولم يبقَ لها شيء تأسف عليه.

***

أعود من جديد لأحرق ذاكرتي وأشعل فيها النيران، أعرف أن العلاقة انقطعت بين الزوجتين منذ مدة طويلة، فمنذ أن تزوجت ابنتي الكبرى من شاب غريب عن الحي الذي نقيم فيه، شعرتْ مروة أنها صاحبة الكلمة الأولى في البيت، آمرة ناهية، أقامت فاصلاً فولاذياً بينها وبين فردوس، وراحت تؤلب أولادها عليها، حتى كادت تغسل أدمغتهم وتُنسيهم وجودها.. كانت تفتعل المشاكل في البيت، وتقول إن سببها فردوس، تهيل الدموع أمام أولادها وتقول بأن فردوس تُشهِّر بها أمام الأقارب والمعارف.. ومع أني كنت أردعها عن تصرفاتها، إلا أنها كانت تنكر ما تقوم به وتدعي أنها مسالمة، ولا تريد غير السترة في الحياة بعد أن فقدت والديها ولم يبق لها في الحياة غير أولادها.. كثيراً

ما فكرت أن أنفصل عنها، لكني كنت أتراجع عن قراري عندما أعود لوضعي الطبيعي، أتذكر شتات الأسرة، وفشل الأولاد في دراستهم بعد أن أخفق معظمهم في الحصول على الشهادة الثانوية وتوقفهم عن متابعة الدراسة، ثم التجائهم للأعمال الحرة.. أخيراً فكرتُ بهجرها.. ومع أني قلت ذلك لفردوس، إلا أنها لم تصدق واعتقدت أني أقول ذلك لاسترضائها..

لا أعلم إذا كان قد مر أحد بتجربتي، لكني شعرت أن فردوس أخذت تنفرد بنفسها بعد أن تقاعدت عن عملها، تتجنب الحديث معي، وتشعرني دائمـاً أنها تعاني من الوحدة.. تقول إنها تشعر بالفراغ ولا رفيق لها في الحياة.. قلت لها مراراً وتكراراً هذا نصيبنا وقدرنا، فلا تُضيِّع السعادة المتبقية في الحياة من بين يديها.. الإنسان لا يعلم الغيب.. كم قلت لها بأنها ملاكي كما كانت تقول لي بأني ملاكها!، لكنها تصر بعد هذا العمر على أن تضيف حرفـاً لكل كلمة، لتصبح الكلمة «أملاكي» و«أملاكك».. وبَّختها وقلت لها «ما هكذا الحياة، لستِ قطعة من أملاكي ولا أنا قطعة من أملاكك.. نحن بشر نصيب ونخطئ، وما أنتِ في نظري إلا طفلة كبيرة، وستبقين كذلك إلى أن يفرقنا القدر بالموت.. جمعتنا رابطة الحب طوال هذه السنوات ولم تجمعنا رابطة الأولاد.. كلانا غريب في هذه الحياة، لكن الغربة غربة الروح وليست غربة الأهل والوطن والعقم أو الأولاد.. تذكري.. طالما أرواحنا متفاهمة فلا خوف من الحياة».

(٣٧)

بعد أن تزوج بقية الأبناء، واستقر كل منهم في بيت الزوجية، عاد البيت فارغـًا.. ومع ذلك لم أشعر بالفراغ الذي خلفه غيابهم.. تفرغت لهواياتي المفضلة، القراءة والكتابة.. كتبت تلك الأيام ثلاث روايات ومجموعة قصصية، ومع ذلك لم أفكِّر يومـًا بالشهرة، أو الحصول على جائزة، كنت أكتب لأني بحاجة لأن أكتب وأعبِّر عما في أعماقي.. وفي أوقات فراغي كثيراً ما كنت أتجول على صفحات الفيس بوك والإنترنت.. مروة تتذمر وتقضي معظم أوقاتها في بيوت أبنائها، بعد أن تقوم بواجباتها البيتية، وفردوس تغيب عن البيت لساعات طويلة بعد تقاعدها عن العمل.

ذات يوم، وبينما كانت فردوس خارج البيت، رحت أبحث عن أوراق تخصني في خزانتها.. وقع نظري على دفتر ملاحظات خاص بها.. بين صفحاته الذابلة وجدت ورقة صفراء مميزة.. جلستُ أتصفحها ورحت أقرأ:

«اليوم وبعد أكثر من ثلاثة وأربعين عامـًا على زواجي، وجدت أني أحتاج إلى وقفة مع نفسي.. داهمتني الأخطار من كل جانب وضاع عمري سدى.. فأنا أعيش في عزلة شديدة، وحين بحثت عن السبب وجدته في زوجي، منه وفيه.. لا أدري من أين أبدأ، وقبل أن يختلط عليه الأمر، ويعتبر هذه الملاحظة شكوى تحتاج إلى لفتة كريمة منه..

أقول له بأني مظلومة وإنه الظالم.. ربما أمزق هذه الورقة قبل أن ترى النور أو تقع بين يديه صدفة..

أنا يا سيدي كنت زوجتك الأولى - آسفة السابقة - ومع هذا التغيير الذي أسميه انقلاباً طرأ على حياتنا، أصبحتَ بحكم الظروف رجلاً لزوجتين، زوجة مفضلة أنجبت لك ما تتمنى من الأولاد، وزوجة من الدرجة الثانية بلا أولاد.. وكنتَ قد عاهدت نفسك أن تدير دفة الأسرة بما يرضي الله ويرضي ضميرك.. وقد فعلت ما استطعت عليه، لكنك مع مرور الأيام ولأسباب أعرفها جيداً بدأتَ تتغير رويداً رويداً، حتى بات هذا التغيير انقلاباً في حياتك دون أن تشعر به، عرفت ذلك وأنا أراقبك عن بعد.. أصبحتَ بكل ثقلك الوجودي والعاطفي والأسري ملكاً لواحدة فقط.. قد تقول هذا خيال، لكنه الحقيقة الواقعة.. ظهرت بوادر هذا التغيير منذ مدة طويلة، وبت أنا ضحية هذا التغيير.. فأنت وبقدرة قادر أصبحت زوجاً وحبيباً وعاشقاً لزوجتك الثانية.. وتلك أشر المصائب حين لم تترك لي في حياتك فسحة أمل.. أصبحتُ أعيش الحياة في ضياع وبلا أمل.. دوامة لا أعرف لها مخرجاً.. فكل شيء في هذه الدنيا يؤخذ عنوة إلا الحب.. فقدت حبي معك، مبارك لك وعليك حبك الجديد.. أنت لا تعرف أن تأكل أو تشرب أو تلبس دون أن تكون جانبك.. حتى في النوم وأنت تنام جانبي أشعر أنك تنام معها، ولا يهدأ لك بال إلا عند الصباح لتهرب إليها، وكأن لا وجود لي في حياتك أو أمام عينيك.. في مرضي تكتفي بالنظر إليَّ قائلاً «سلامتك».. لا يا سيد البيت، الأولاد

ليسوا هم السبب.. العشق هو السبب، أعرف بكل جوانحي أنك تعشقها ولا يمكن أن تستغني عنها.. لكل ما سبق التزمتُ الصمت ولم أحادثك في أي موضوع.. أصبحت في نظرك لا زوجة ولا صديقة ولا حبيبة.. أصبحت خادمة مطيعة في البيت لك ولها.. أشعر بالاختناق وأذرف الدموع ليلاً ونهاراً، وأحاول أن أسأل نفسي: من أنا ولأي سبب خُلقت؟!..غربة الروح قتلتني، ألا يكفي غربة الوطن وغربة الأهل وغربة العقم؟!.. أنت بيديك وأدت كل شيء، فكيف سأعطيك حبّاً أو أذرف عليك دمعًا!.

قبل أكثر من عشرة أعوام ترددتُ في زيارة طبيبة نسائية.. طلبت مني بعض التحاليل.. ناولتها التقرير وأنا على يقين أنها ستقطع الأمل الذي أتشبث به في الحياة.. كان ترددي لأبقى محافظة على ما يسمى الشرنقة التي تحمل بين طياتها الأمل.. بعد الفحوصات قطعت الشك باليقين وأجهضت أحلامي.. الحقيقة كانت مرة، تسلحت الطبيبة بالشجاعة وقالت «انقطع الأمل وذابت الأحلام، لا أمل لكِ بعد اليوم.. أنتِ تمرين بمرحلة تمر بها كل النساء، إنها مرحلة اليأس مع انقطاع العادة الشهرية».. قلت: «وهل هناك يأس أكثر من هذا اليأس والبؤس الذي أعيشه!».. قالت تشجعني: «لا تخافي، ستبقين في صحة جيدة، حياتك الجنسية عادية وكل شيء سيبقى عاديّاً، أمر عادي وستتعودين عليه».. آه يا قلبي! منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً والعادة الشهرية لم تنقطع شهراً، وكل شهر كنت آمل بحلم جديد في ظل الحياة الزوجية.. انقطع الأمل وذابت الأحلام وتبخرت الحياة،

وصرت نسياً منسيّا.

خبأتُ أحزاني في صدري وعدت للبيت.. في السوق توقفت لأشتري قميصاً للنوم.. ترددت وحدثتني نفسي الملعونة «لمن تشترينه ولمن تلبسينه؟!.. هل بقي في حياتك شيء من الشباب، أم لك زوج يُعجب بجسدك أو فتنتك أو ملابسك؟!».. أنت لم تهتم عندما أخبرتك عما قالته الطبيبة.. قلت بأن هذه الأمور عادية ولم يبقَ في الحياة شيء نندم عليه.. أنت تقبلت الهزيمة ببساطة، أما أنا فكانت الهزيمة بالنسبة لي موتاً على ذمة الحياة، وشفقة من عيون الآخرين.. في البيت أعددت فنجان قهوة سادة لوحدي بعد أن غادرتني.. سمعت صوت أبنائك من الغرفة المجاورة يطرق مسامعي.. نظرت إلى أولادك أثناء تجمعهم وتمنيت أن يكونوا أولادي.. وحين قالت لي ابنتك الكبرى «ما بال صوتك حزين!».. لم أتمالك نفسي، رحت أقبلها وأهيل الدموع على صدرها، وتمنيت لو ينفتح صدري لأضعها فيه بدل قلبي.. قلت لها لو كنتِ ابنتي حقيقة لكنت أسعد أم في العالم».

لم تُكمل فردوس ما بدأت به.. توقفت عن الكتابة ولا أعرف لماذا لم تواصل ما تختزنه في صدرها.. كنت أعرف أن الأولاد هم سبب شقائها، لكنها لا تعترف أن الله هو الذي أراد لها ذلك، هو الذي يهب وهو الذي يأخذ.. سنة الحياة.. هناك الغني وهناك الفقير، هناك الصيف وهناك الشتاء.. هناك الصحة وهناك المرض، وهو الذي «يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء

عقيمـاً».

استرضيتها تلك الليلة.. أحسستُ بالفرح يقفز من عينيها وأنا أحتضنها وأهدهدها على السرير.. كبدر منير كانت تلوح لي تلك الليلة.. فقدت معها اللحظة والزمان والمكان، وتمسكنا بكل ما أوتينا من قوة بما بقي عالقاً لنا في الحياة.. عدنا طفلين لا هم لهما إلا اللعب والمتعة.

شعرتُ بسعادة وهي تتألق أمام ناظريَّ، لكن اللحظات السعيدة يبدو أنها لا تدوم في حياتي.. يبدو أني كبرت وبدأت أفقد عقلي، ولا أدري لماذا رحت أستعيد الكلمات التي كتبتها في دفتر مذكراتها في ذاكرتي!.. لحظة السعادة يتبعها عام من الشقاء بعد محاولة الجماع العقيمة، خاصة وأنها لم تعد ضليعة بذلك النوع من البراعة الجنسية التي تحول الحركات العادية إلى شيء شديد الإثارة بعد هذا العمر.. ترددت أصابعها عند أزرار القميص، التوى فمها وانفجرت بالبكاء.. وشعرتُ أنها في طريقها لتحطيم كل شيء أمامها.. قلت لها بأن ذلك لن ينجح، همستْ: «هذا لا يصدَّق، إنك غريب الأطوار!».

تجاهلتْ تعنُّتي وفشلي، وأضافت: هذا لا يهم، المرة القادمة ستكون أفضل، المهم أننا قضينا سهرة رائعة، وأشعر أني ولدت معك من جديد.. أتمنى أن تدوم سعادتنا إلى الأبد.

شعرت أنها كانت تثرثر لترضيني في محاولة لأنسى فشلي، لم ألتقط إلا بعضاً من كلماتها الأخيرة.. قلت مازحاً: إلى الأبد.. هذا

وقت طويل، قولي حتى ينقضي أجلك أو أجلي، الأشياء الجميلة لا تدوم أبداً.. أنت أحلام في حياتي، والأحلام لا تدوم طويلاً.

نظرتْ إلى وجهي بتعجب، شعرتُ أنها ترغب في سماع المزيد.. أضفت: معك عرفت معنى الحب والسعادة، لكن الأحلام لا تدوم، لكل حلم نهاية..

قاطعتني: دعك من الفلسفة الآن، وقل لي: هل تشعر بالسعادة وأنا معك؟!

قلت: إذا أردت الصدق، أنا سعيد بوجودك معي، لكن هناك أشياء كثيرة تنقص سعادتنا.

قالت مستغربة كلامي وتحولي المفاجئ: لكني أحبك كما أنت، ولا أريد منك شيئاً أكثر من هذا.. أنا راضية بنصيبي، راضية بكل ما تسميه نواقص..

كشريط سينمائي بدت حياتي أمامي وهي تتحدث، سلطتُ الأضواء على الجانب المظلم منها وعلى الكلمات التي قالتها في دفتر مذكراتها «كيف سأعطيك حبّاً أو أذرف عليك دمعاً!».. قلت: كفى يا فردوس، لنتوقف عن خداع أنفسنا.. حملقت في وجهي وقالت: أنا لا أفهم!..

قاطعتها والمرارة تملأ جوفي: ما من شيء عذب يدوم.. حبنا كان حلواً، لكنه أصبح علقماً مع مرور الأيام ومع الخلافات العائلية.

شعرتُ أنها بدأتْ تتألم.. أضفت: ما زلت أحب لك السعادة.. لكن الأمراض فتكت بجسدي.. فماذا بقي لك مني!.. كنت آمل أن

تكوني أمّاً لأولادي، لكنك بدوت سعيدة بقبولك هذه الأمور على هذا النحو.. أنا لا أفهم كيف تطلبين من أولادي حبّاً وهم يعرفون أنك تكرهين والدتهم!.. أنا أذل نفسي بإذلالك وتوبيخك على تصرفاتك.. إننا نذل بعضنا بعضاً.

قالت وهي تجهش بحرقة: لكني أحبك وأحب أولادك.. أردت دائماً أن أنجب لك أولاداً، لكنها إرادة الله، أما أن أحب زوجتك وأتعايش معها، فهذا شيء خارج عن نطاق إرادتي ولا سلطة لي عليه.

- افهميني يا فردوس، لقد كبرنا ولم يعد لنا طاقة على المشاكل الأسرية أو غيرها..
- افهمني أنت.. زوجتك هي أم المشاكل.. أنا مسالمة وأريد أن أعيش بقية حياتي بهدوء وأمان، وهذا ما أفتقده معك ومعها.. ولا أعرف ماذا فعلت لكما حتى تعاملاني مثل هذه المعاملة!.

لم أدر ماذا أقول لها!.. أضافت وهي تجهش بالبكاء: أنت تقتلني بكلامك، تدفعني إلى الموت.. قل لي ماذا فعلت لك؟!.

شعرتُ باختناق.. كان الفشل يتلبسني وأنا أحاول أن أدافع عن نفسي بطريقة مغايرة.. قلت: لم تفعلي شيئاً، وهذا كل شيء.

لم يخطر ببالي أن لقاءنا تلك الليلة سيكون مزعجاً لهذه الدرجة وبهذا الشكل!، يبدو أن الموقف انقلب، تململتْ بنفاد صبر وقالت: كيف تفعل بي هذا!، أنا أتمنى أن أعيش معك سعيدة ولو للحظة قصيرة.. لم أجب، أضافت: أشعر وكأني بساط عفن عند نعليك..

قلت: ماذا تتوقعين من رجل يحبك، ولا يعرف طريقة توصلك للسعادة!..

سألتْ بمرارة: ألهذا السبب ما زلت تقول إنك تحبني، هل هذه خطتك لكي تحتفظ بي معلَّقة؟!.

وقفتْ فجأة، مسحت دموعها، تراجعت إلى الخلف، نظرت إليَّ بعينيها نظرة خاطفة وقالت «أنا لم أعد أفهمك، أنت إنسان متقلب العواطف، لا تعرف معنى الحب ولا الحياة الزوجية».. وحاولت الانسحاب إلى غرفة داخلية.. أوقفتها، أطبقتُ يدي على ذراعيها قرب الكتفين، تلاشى غضبها في الحال، رفعتْ رأسها، وانتظرت ما عساي أفعل!.. شعرتُ بها كتلميذة مشاغبة تجيب عن تصرف أحمق، تمنيتُ أن تنسى كل شيء وتتأسف عما قالته.. لكنها لم تفعل، وانسحبت إلى غرفة النوم دون أن تشعل النور، جلستْ على حافة السرير، خمنتُ أنها تجمع شتات أفكارها، ثائرة ومذعورة، وأن أملها قد خاب، حواسها شبه مشلولة، الشتائم تتدافع في حلقها وترغب في النحيب، لن يكون الأمر كما في السابق بعد اليوم، هذه هي المأساة، فقدان الزوج والصديق وشريك العمر.

انحنت إلى الأمام ووضعت جبينها على الطاولة الباردة بقرب السرير، على الضوء الباهت شاهدتُ الدموع تسيل من عينيها بغزارة.. عُمراً بكامله من الذكريات المتقاسمة مر بذاكرتي تلك اللحظة، المشاكل والآلام والأفراح.. تنهدتْ ومسحت وجهها براحتيها، هزت كتفيها، قالت: أشعر بالذل والخيبة، استمرارية الحياة في البيت تعني

الخيبة، للمرة الأولى لا أجد مرجعاً أستند إليه ويساعدني، شيء لا يطاق أن أعود لحياتي ثم أنتهي منبوذة، من الأفضل أن أقوم أنا نفسي بعملية النبذ، بهذه الطريقة أرضي كبريائي على الأقل.

تجاهلتُ سماعها، امتدت يدها وأشعلت المصباح قرب السرير، تناولت ورقة وقلماً وراحت تكتب، بعد دقائق توقفت عن الكتابة، قامت، تأملت تقاسيم وجهي عن بعد وأغلقت باب حجرتها من الداخل.

***

مرت الساعات بطيئة تلك الليلة وأنا أجلس على أريكة في الصالون، بينما هي في الغرفة الداخلية، لا يفصلنا غير باب خشبي ومجموعة من الأفكار السوداوية.. شعرتُ بالفراغ وكلانا يتشبث بكرامة مهترئة ويعاند نفسه، كنت أعرف أن لا مجال لتلاقينا في منتصف الطريق تلك الليلة.. قالت وقد سمعت طرقي على الباب: «أعرف أنك تفتعل المشاكل لتتخلص مني إرضاء لها، إذا كانت هذه رغبتك فطلقني أو اتركني أرحل بكرامتي».. قلت لها: إذا كان هذا طلبها فعليها أن تفكر كثيراً قبل أن يتم الانفصال وتقع الفأس في الرأس كما يقولون.. لكن قبل ذلك أرجو أن تعيد الأمور إلى نصابها، وتفكر في الأمر قبل أن ترحل.. وأبديت لها عدم الاكتراث، فقالت: «لم يبقَ في حياتي شيء آسف عليه».

جال شريط حياتي في ذاكرتي كشريط سينمائي تلك الليلة، أعرف أن حبل الود مع فردوس انقطع في السنوات الأخيرة، كما أعرف أن مروة هي السبب، فمروة لم تشعر بالأمان في يوم من الأيام في بيتها و«حبيبة القلب» كما تسميها تركن أمام عينيها، وتخطف منها زوجها يوماً بعد آخر.. تساءلت في قرار نفسي إذا كانت الغيرة هي السبب!.. مروة تعرف أني أحب فردوس قبل أن أتزوجها، لكنها لم تشعر يوماً ما أني أكن لها حبّاً مثل الذي أحمله في قلبي لفردوس، رغم أني قلت لها مئات المرات بأني أحبها.. كان جل اعتقادي أنه حين يتزوج الرجل من امرأة ثانية ينتاب الزوجة الأولى شعور بأنها مقيدة بضفائرها رغماً عنها إلى زوجها، ومع ذلك تحاول بكل السبل أن تكسب وده، حتى لا يميل كل الميل لزوجته الجديدة.. أما الثانية فقيودها الحب وغرس الأمل في قلب الزوج، لتملأ الفراغ الذي خلَّفته الأولى.. لكني وجدت بعد تجربتي أن لا فرق بين امرأة متعلمة وامرأة غير متعلمة، مثقفة أم جاهلة، الكل سواء في بيت الزوجية.. كان المفروض أن تتفنَّن كل واحدة في إيجاد طرق لسعادة الزوج وامتلاك قلبه، لا أن تتفنَّن في خلق المشاكل وتعاسته.. المفروض أن يجذبن الرجل باتجاه واحد، لا أن تجذب كل واحدة طرفاً من أطرافه باتجاه مغاير للأخرى، ويختلفن في الاتجاه الصحيح لغبائهن وتنافرهن.. فالرجل حين يتزوج على امرأته، يصبح مثل الشجرة التي تنبت في أرض وعرة، تتصلَّب ويشتد عودها، وتغرس جذورها عميقاً في الأرض كلما حاولت العواصف اقتلاعها.. تميل بفعل الرياح، لكنها تقاوم وتصمد في وجه العواصف وتزداد صلابة.. في حين تبدأ المرأة مع مرور السنوات بالركض

واللهاث خلف الأولاد، أو الاستكانة والندم بعد أن يفر العمر من بين يديها.

تلك الليلة وللمرة الأولى شعرتُ بفشلي في الحياة الزوجية.. كان يجب أن أجامل وأكذب على الاثنتين، ولا أبوح بأسرار إحداهما عند الأخرى.. شعرتُ أن الزمن ينزلق من بين يدي وفردوس تنسل كشعرة من حياتي، حلم جميل بدا سراباً في الواقع.. قلت لها من خلف الباب «باب الأمل مفتوح، دعينا على الأقل نعيش على ذكرياتنا الجميلة».. قالت: «وكأنك تقول لي لنفترق ما دام لدينا بعض الشذرات من الكرامة!».

شعرتُ بالغضب، تناولت قلمي ورحت أسوّد صفحة بيضاء كانت بين يدي..

إذا كنتِ تصرين على رأيك، فخُذي أشياءكِ وارحلي.. خذي صورك، ذكرياتك، لحظات السعادة القديمة.. خذيها وارحلي كما تشائين.

خذي كل ما أملك، ما عدا قلبي الذي يحتفظ ببقايا نبضات حب قديم، وارحلي.

منذ بداية الزمان، قلتِ للأهل والأقرباء بأنك تحبين الأطفال.. وأنا كذلك، أحب عيون الأطفال، وألعابهم، لكن القدر شاء..

من أجل حبنا قلتُ لهم إني لا أريد أطفالاً يولدون في زمن العجز

والفقر.. لكنك لم تقتنعي..

كثيراً ما بحثت عنك في البيت فلم أجدك.. لم تقولي يومًا إنك خارجة أو عائدة إلى البيت، ذلك الفندق الذي تعيشين فيه بلا حساب.. بلا زوج وبلا رقابة ولا مسؤولية.. ما عاد همّك غير ما تقولين هذا لي وهذا لك.. هذا حقي وهذا حقك.. هذه أملاكي وتلك أملاكك.. هذه أفراحي، وأفراحك أحزاني.. فهل أنا لص تسلل إلى حياتك تخافين أن يسطو على ثروتك وأسرارك؟!..

وكثيراً ما تساءلت في قرار نفسي: كيف تزعمين أنك تحبين أولادي، وتتفوهين على مسامعهم أنك تكرهين والدتهم!.. لم يكرهك أحد، لكنك كرهتِ الجميع.. لم يعد بيننا عتاب، فقد قلنا كل شيء.. تعاتبنا حتى ملَّ منا العتاب..

أعيدي حساباتك، فالحقيقة ليست كتابة قصة تنسجينها من الخيال، وتخلطين بها بعضًا من الواقع، ثم تزعمين أن كل شيء حقيقة وواقع.. الحقيقة الوحيدة أنك نسيتِ في أعوامك الأخيرة أن لك زوجًا.. كرهتِ كل ما يتعلق به.. أولاده، زوجته، إخوانه وكل أقاربه..

في موتي لا تنتظري جنازتي.. لن تحضريها، ولن يودع أحدنا الآخر الوداع الأخير..

خذي كل ما تشائين وارحلي، إذا كنت عازمة ومصرة على الرحيل..

خذي أنفاسي، كل ما أملك وأنا على قيد الحياة.. وارحلي.

أنتِ من بدأ الملامة والصدود وخان قلبي، فلا تلومي الآخرين..

وحدك ستبقين تنتظرين المجهول.. تنتظرين الرسالة الأخيرة وترددين «يا حبيبي كل شيء بقضاء، ما بأيدينا خلقنا ضعفاء.. ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء.. فإذا أنكر خل خله وتقابلنا لقاء الغرباء، فلا تقل شئنا، فإن الحق شاء.. إن الحق شاء».

***

(٣٨)

في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي صحوت من النوم، شاهدتُ باب غرفة فردوس مغلقـًا، اعتقدت أنها ما زالت نائمة.. غادرتُ البيت وتوجهت إلى عملي دون أن أراها.. زأرت الرياح بعد ظهر ذلك اليوم على غير عادتها في مثل هذا الشهر، ومع غروب الشمس كانت أقوى وأشد، إلى أن هبت رياح باردة تخللها زخات من المطر بعد أذان العشاء.

عدت للبيت في ساعة متأخرة من تلك الليلة، باب غرفتها كان مشرعـًا، ولم تكن في البيت، غرفتها خاوية إلا من بعض حاجياتها، عند مرآتها كان هناك مظروف مسند على صورة حفلة الزفاف.. تناولت المظروف وجلست على السرير، فضضته ورحت أتصفح ما بداخله..

«زوجي العزيز.. كثيراً ما قلت لك إني راحلة، لم تصدق ولم تأخذ كلامي محمل الجد.. في قرارة نفسي أيقنتُ أن شبكة الحرير التي تجمعني بك قد تهتَّكت بعد أن قرأت ما كتبت لي عن مشاعرك نحوي ليلاً، لم يعد للكلمات المجهضة أي معنى.. لهذا رحت أسطِّر لك من فيض مشاعري ما عجز لساني عن النطق به، ورحلتُ من عالمك بعد أن خيَّم على حياتنا الصمت، وليس في جعبتي غير الدموع والعتاب والذكريات.

يقال إن بعض الناس يحتفظون بجمالهم مهما تقدم بهم العمر،

فإذا غاب الجمال عن وجوههم، انتقل إلى قلوبهم.. وها أنا أفتح لك قلبي من جديد، أعصر آهاته، وأسطِّر ما يخالجني من شعور.

أبدأ فأقول إني مسكونة بالغربة، وأنت أرجوحة إيقاعية في رأسي.. في غربتي معك غاب عن حياتي الربيع، غابت اليابسة، طُرُقي صارت ممرات ضيقة ودهاليز أسطورية معتمة.. حياتي باتت صحراء، شمس لاهبة حارقة على مر الدوام.

معك بات الحزن يقطر من عروقي، ومن كل ملامحي، وعزائي أنك ما زلت في ذاكرتي تنبض.. أنا لا أتحدث عن زمن مضى، أنا أتحدث عن الحاضر.. الماضي كان أجمل وأحلى من كل الكلمات.. فيه تجسَّدت حياتي بأحلى الصور معك، كنت دنياي وأملي، عوضني عن أحلى أمنية تتمناها امرأة في حياتها، الأمومة.. هذه إرادة الله، لكن ما ذنبي أنا حين أهملتني في حياتك وتركتني على قارعة الطريق أنزف، أحدث نفسي، أجتر ذكرياتي وحدي، أنام وحدي، أعيش وحدي وأموت وحدي!.

قلبي الذي كان واحة حب على مدى أكثر من ثلاثة وأربعين عاماً قضيتها معك، راح اليوم يصرخ ويتأوه، وأنت ترقد في سرير امرأة ثانية ملكت عليك أحلامك.. لقد أجهضت بفعلتك هذه بقايا أملي وأحلامي ونبض قلبي.

آه، كم خنقت في أعماقي كلمات جميلة في السنوات الأخيرة!..

كم لجمتني عن النطق بأحلى الكلمات، وأنا أراك تقتحم عالمي كحصان جامح لا سيطرة لي عليه!..

كثيراً ما كنت أشعر أني أفقد لغتي وكلماتي حين تكون بجانبي، وعندما أتوحَّد مع نفسي تعود لغتي، تنبثق دموعي وتتوالد آهاتي.

قد تقول إني كبرت، وأنا أقول إنه كلما تقدم الإنسان بالعمر يحتاج إلى رعاية أكثر واهتمام أكبر.. لقد تجاوزت بأفكاري كثيراً، لأول مرة تخونني قوة الصمت، فأبوح بما في أعماقي على صفحات.. أنت الوحيد الذي ملك أحلامي، وما زلت أنتظر عودتك بفارغ الصبر.

في أيامي الأخيرة كثيراً ما رددت على مسامعك أني تعبت.. لم تجب.. دموعي وحدها كانت تجيب عن كل الأسئلة.. للمرة الألف قلت لك إن الغضب لا يحل أية مشكلة، وكم مشكلة يحتاج هذا العمر القصير حتى ينتهي!.. مع ذلك تماديت وزرعت الأحزان في صدري.. أحزان الحب معك ما أطول أن تدوم! أنت لم تعد تشعر بوحدتي أو غربتي.. عبر آهاتي وتوقعاتي قاتلتك بصمت، تشاجرت معك بصمت، بدموعي وصمتي ومحبتي ناجيتك، أنت قتلتني بشموخك وتعاليك ومجافاتك لي وبعدك عني.. شعرتُ أنك تقتحم حياتي عنوة بعد زواجك للمرة الثانية، تدخل قلعتي من أبوابها الخلفية، لم تطرق أبواب قلبي المشرعة لك على مر الدوام.

أثناء وجودك معها، أشعر أني أغوص في نفق مظلم وطويل تحت سراديب الأرض، أسبح في العتمة.. أتمنى لو تنشق الأرض وتظهر

أمامي فجأة تنقذني من وحدتي.. لا أريد منك شيئًا.. أريد أن أراك تعود إليَّ فقط بكل ما فيك من حسنات وعيوب.

حياتي بدت واهية كشبكة عنكبوت في مهب الريح، والذكريات ما زالت تعصف وتدمِّر.. في سنواتي الأخيرة معك عرفت البكاء والدموع والتنهدات.. شعرتُ أن ينابيع الألفة جفت في صدري، أصبحت الحياة والموت في قلبي سيان.. أنت عنيف في حياتك، عنيف في النقاش إلى الحد الذي يخيفني ويجعلني ألوذ بالصمت.. معك تحوَّلت حياتي إلى إسفلت أو رصيف مهان.

دفعتني بكل قواك إلى زاوية الصمت والوحدة، كنت ألتزم الصمت، لا عجزاً عن النطق، لكن خوفًا من أن يفضح قلبي آهاتي التي تقمعها باستمرار.. أنت غاضب متقلب، عصبي المزاج، ومعك شعرت أنك تعاقب جنس حواء فيَّ أنا وحدي.

لقد أطلتُ عليك، أليس كذلك!.. ها أنا أختصر وأطلب بصراحة أن تعيد ما سلبتني إياه.. أنت سلبت من حياتي دفء العلاقة الزوجية، والأنس تحت سياط أوامرك.

إني راحلة، أنا بحاجة إلى التفكير والهدوء.. ومشكلتي أني لا أعرف إذا كانت حياتنا الزوجية ستستمر!.. فمنذ أن وُجدت امرأتك الجديدة لم أحس أنك تحترمني قط، شعرت أنك تعاملني في البيت كمواطنة من الدرجة الثانية، مع أني كنت ألبي جميع طلباتك وأقوم

بكل واجباتي.. أعرف أن مشاغلك كثيرة، لكن أخبرني بربك أين أقع أنا في سلم أولوياتك؟!

ربما وجدتُ عند أهلي بعض الدفء والعطف والأمان الذي افتقدته معك، ليكن الله في عوني وعونك، فالمهمة شاقة وصعبة بعد أن غدت حياتي معك بلا أمل أو استقرار.. لقد اتخذت قراري بالرحيل لأعرف حقيقة مشاعري تجاه الانفصال، ولا أعرف إذا كنت سأعود أم لا!.. المهم أن تعود إليَّ حياتي، ويعود إليَّ نبض قلبي.. وأعتقد أن قلبي وحياتي بين يديك.

ثانية أتوقف عن البوح بما في أعماقي، لا عجزاً مني، لكن حتى لا أدمِّر نفسي معك مرتين.. ويا لشقاء نفسي وعمري إذا كنت أخاطب فيك رجلاً يسمع أحلامه فقط، ولا يسمع توجعاتي!».

***

جلست على الأريكة ورحت أستعيد حياتي مع فردوس.. تراءت لي بصورة ملاك وسط إطار مذهب جميل.. اندفع الملاك وقبع في زاوية معتمة وسط قلبي، وفي الإطار تربعت ظلال أخرى طاردتني عبر سنوات العمر.. وجدت نفسي أفكر في فردوس وأتمنى رؤيتها.. أنا من وأد حبها في قلبي ولم يعترف بالحقيقة، الحقيقة أني أحبها وأتمناها، لكني لا أريد لها الشقاء معي.. أنا من جنى على نفسه وطرد نفسه خارج جنتها.

أعدت قراءة ما كتبتْ مرات ومرات بعد أن رحلت إلى ذويها مخلفة ذكرياتها فقط.. تساءلت في قرار نفسي: ألم تعرف بعد كل هذه السنوات مدى حبي لها، ألم تقرأ في عيني أني ما زلت أحافظ عليها، وأحتفظ بها كزوجة محبوبة، رغم اقتناعها بأني لم أكن السبب في كونها لم تحبل ولم تلد!.. شعرتُ أن الكلمات جافة رغم ما تحمل من مكنونات بين حروفها.. ومع ذلك كتبتُ لها ما أكنه من مشاعر نحوها، وقمت بإرساله عبر بريدها الإلكتروني..

«زوجتي العزيزة، عندما دخلت البيت هذا المساء، وجدته خاويـًا، ارتطم نظري بالأثاث وبعض حاجياتك، ومظروف رسالتك المسند على صورة حفلة زفافنا أمام المرآة.. أعترف أن عشى ليليّـًا داهم عينيّ وساد المكان، ومع أني قرأت توجعاتك التي طالما أحسستُ بها، إلا أني لم أصدق خبر رحيلك.. كابوس لاحق أنفاسي تلك اللحظة، شعرت أني إنسان خاطئ يرغب في الاعتراف أمام حبره الأعظم.. صورتك كانت تنير المكان وابتسامتك تشرق.. خلتك بثياب قديسة لا بفستان الزفاف، وها أنا أعترف وأسطر ما يخالجني من مشاعر.

ذات ليلة من ليالي الصيف، وقبل أكثر من خمسة وأربعين عامـًا، بزغ فجري ورأيتك للمرة الأولى.. ولسنوات طويلة ظل أريج عطرك يطارد أنفاسي، وجهك ينضح ببراءة الأطفال وسعادتهم.. أنفاسك كانت تمدني بالحياة، وقلبك الطيب كان الوهج الذي أستمد منه

الدفء في ليالي البرد والصقيع.. أقول كان وكانت وكأنك ظِلٌّ بهر حياتي لفترة ثم انطفأ فجأة.. لا، فأنا أعترف أنك ما زلت تتوقّدين في حياتي كلهب في شتاء بارد، تحرقين جسدي كجمرة لاهبة، تتربعين في قلبي مثل نداء خالد.

أنا أتذكر الآن كل التفاصيل، كنتِ وما زلت وردة في ظل رجل معطوب، ولا أعرف أكنت قاسياً طوال فترة عمري أم مكابراً!.

عبر ضوء أصفر باهت كنت أراك دائماً.. التفاصيل واضحة رغم عتمة الليل وظلمة المكان وقهر الزمان.

في منامي رأيت أحلاماً جميلة، حاولتُ أن أجسِّدها في واقعي.. أنتِ بكل قواك دفعتني للبحث عن الواقع.. الواقع كان زوجة ثانية «وليس امرأة أخرى كما قلتِ»، بعد أن عجز الأطباء عن تجسيد حلمي معك بصراخ طفل، يملأ حياتنا بأحلى كلمتين في الوجود «بابا وماما».. وقبل أن أقدم على الخطوة التالية، كثيراً ما فكَّرت أن باستطاعة الرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، ومع أن لكل امرأة جمالها وعطرها ولونها وصفاء عينيها، إلا أنه لا يستطيع أن يحب من بينهن إلا امرأة واحدة.

لسنوات طويلة وأنا قابع أحدِّق في الممرات الضيقة.. في خريف عمري تحقق المحال، ونبت لي أطفال كالورود في لوحة أسطورية، ظهرت بصورٍ أجمل وأحلى من ألوان قوس قزح.

شعرتُ أني بحار تائه وسط محيطين، فقدت شطآن قلبي بين

الزوجتين، ولم تستطع إحداهما أن تملأ الفراغ الذي تخلِّفه الأخرى.. بتُّ سجين المحبسين، وما عدتُ قادراً على الإفلات من الواقع.. وحين عدت إليك، عدت لأغوص في بحار عينيك وأسبح على شطآن وجنتيك.. كنت دائماً مقتنعاً بأن الحب طبق متجدد الشهية، رائحة عطرة على مر الزمان، لكني شعرت أنك تنزلقين من حياتي بين الصمت والموت.

برودة قطبية كانت تلامس جسدي عندما أراك صامتة.. الصمت بيننا صار لغة التخاطب.. لفترات طويلة شعرتُ أن الصمت أعمق جذوراً وأشد رسوخاً من العلاقة المبنية على خشونة المحادثة.. كلانا كان مثل مسافرَيْن من عالمين مختلفين، تواردت أفكارهما وتشابهت قبل أن يلتقيا ويتصافحا.

تطوَّر الصمت إلى الموت.. الشجار كان بداية الموت.. الشجارات السليمة تنعش العلاقات الزوجية.. الشجارات أمر طبيعي في الأسرة.. العتاب صابون القلوب.. كنت بشجارات معك أحاول أن أعرف ما يدور بخلدك.. أهرب من مشاكلي العائلية المعقدة وبيتي الآخر، لأتشاجر معك بعتاب وحنان.. كم كنت بحاجة إلى نسمة صيف! ورؤيتك كانت النسمة التي ترد الروح في أيامي القاسية.

معك كان يتلاشى الألم.. بصَمْتك شعرتُ أن العطف هو الحب المبصر والأعمق والأغنى.. هذا هو الحب الذي طالما كنت أسعى

إليه.. لكن تبيَّن فيما بعد أنه من المتعذر أن تجد شخصاً يفهم الآخر طوال الوقت، فكل إنسان فريد في حياته.. وهذا يعني أن ما من أحد يستطيع أن يفهم الآخر على الدوام، فذلك يتطلب منه أولاً أن يصبح هو الآخر.. وبدت معظم مشاحناتنا من منطق «أنت لا تفهمني كما ينبغي».

في الأيام اللاحقة، شعرت أنك تنزلقين بين فترة وأخرى من حياتي، ومن بين أصابعي كزئبق بتُّ معتاداً على انسيابه، مستمتعاً بانزلاقاته، مبهوراً بعودته.. أما عندما قرأت رسالتك، وعرفت أنك راحلة.. شعرت أن مساماتي امتلأت أحزاناً، وتراءى لي رحيلك مثل كسوف الشمس، تمنيت أن تتوقف الشمس والأرض عن الدوران، ويتوقف الزمن حتى تعودي.. في رحيلك شعرتُ أنك شفيتِ ومرضتُ أنا.. أنت مرآتي وظلي، وطالما بقي للصورة ظلال فالأمل باقٍ، والقلب ما زال بأنفاسك ينبض».

***

(٣٩)

مر صيف وتبعه شتاء، ولم تعد فردوس إلى بيتها.. لم تستجب لنداءات قلبي، وعرفت من صديقاتها بأنها لم تعد زوجتي.. أشاعت لهن بأنها مطلقة، وأنها لن تعود.. فراشة خرجت من شرنقتها إلى النور والحرية «كما قالت».. وعندما اتصلتُ بها هاتفياً قالت بأنها لا تريد مني شيئاً، ولا تتمنى إلا كلمة واحدة وهي أبغض الحلال عند الله.

في قرارة نفسي كنت على يقين بأن غارسة الأمل في حياتي، فردوس، تلك الفراشة التي خرجت من شرنقتها، ضلّت طريقها وراحت تبحث عن النور والحرية في الظلام الدامس، لهذا ترددت كثيراً قبل أن أتخذ قراراً بشأنها.. فردوس هربت من حياتي لأنها لم تعد تطيق زوجة أخرى تشاركها فراش زوجها.. كانت أنانية إلى حد ما، رغم أني لم أنقصها حقّاً من حقوقها، وما قالت عن حقوقها إلا تبريراً لموقفها.. أما أنا فكان لي وجهة نظر أخرى في هذا الموضوع، إذ كثيراً ما كنت أفكر فيها وأنا أنام في فراش مروة، كيف لو أصيبت بحادث مرضي عارض فجأة، خاصة وأنها مريضة بمرضي القلب والضغط.. من سيقوم على خدمتها؟!.. لهذا كنت أدخل غرفتها ليلاً وهي نائمة أرقبها أو أوقظها.. وعندما أطمئن عليها أغادرها لأعود إلى حيث أنام في غرفة مروة، إذا كانت تلك ليلتها.. لم تمر ليلة واحدة دون أن

أطمئن عليها وهي في فراشها.. وحين تضبطني مروة وأنا أتسلل إلى حجرة فردوس ليلاً، أو بعد صلاة الفجر، تقول معاتبة «إذا كنت لا تستغني عنها وتحبها كل هذا الحب فنم عندها واتركني».. وتضيف بعد صحوها: «صحيح أني لم أستطع أن أفوز بحبك وبقلبك، لكني سعيدة، إذ استطعت أن أحصل منك على هؤلاء الأولاد».. ومع أني كنت أتجاهل كلماتها، إلا أني كنت أشعر بها والغيرة تتوقد في أعماقها.. ولم تكن تعلم أن ضميري يتحرك كل ليلة فأتبع ظله إلى سرير فردوس، لأطمئن على صحتها من عثرات الزمن، حتى لا يوافيها الأجل وحيدة في غرفتها، مع علمي أن الآجال والأقدار والأعمار والأرزاق هي بعلم الغيب، ولا يعلمها إلا الله.. لكل هذه الأسباب كنت أوافق على نوم فردوس في بيت شقيقتها، وأتجاهل ذهابها إلى صديقاتها ليؤنسن وحدتها دون إذن مني.. كنت بذلك أطمئن عليها وأعذب نفسي.. ومع أني كنت أقر لها تصرفاتها من حيث لا تعلم السبب المباشر لتصرفاتي معها، إلا أني كنت قاسياً عليها بين حين وأخر.. خاصة عندما كتبتُ لها «خذي أشياءك وارحلي»، وفي ذاكرتي أن تُغير الجو فترة من الزمن، وتنام مطمئنة عند شقيقتها مريم، التي لم يواتِها الحظ بالزواج.. أعترف أني أخطأتُ بكلمة «ارحلي»، لكن كان جل اعتقادي أن تقضي فترة من الزمن تستعيد فيها عافيتها، وتأخذ قسطاً من النقاهة والراحة النفسية، ثم تعود إلى عش الزوجية ثانية، مع علمي أن الفراق قاسٍ وصعب على نفسي وعليها.. لكنها

أقنعت نفسها بأني لا أريدها، رفضت منطق العقل كما رفضت سماعي بحكمة، وقالت: «زوجتك الثانية هي التي تملي عليك ما تتصرف به، ولا تريد أن تراني في عمان».. عجبتُ من كلماتها، وهي التي تعرفني منذ أكثر من أربعة عقود حق المعرفة.. وتساءلتُ في قرارة نفسي عن تلك المخلوقة التي تحمل في صدرها قلباً يملأ الكرة الأرضية حبّاً، كيف تخفي بين جنباته كل هذا الكره والحقد!.

في رسالة قصيرة على عنوانها بالإيميل، قلت لها معاتباً وغاضباً في نفس الوقت، بعد أن طلبت الطلاق بلسانها: إنها ما عادت تلك الحبيبة التي أحببتها منذ أول لقاء لنا في بيروت، وباستطاعتي أن أعيش وأموت بدونها، لا يهم أن أتعذب، المهم أن تعيش سعيدة وأن لا أرى الحزن يملأ عينيها حتى يوافيها الأجل.. فكتبت لي بأن حقيقة سفرها لأنها لم تعد تشعر بالأمان معي، وأضافت: «أنا ما رحلتُ من حياتك وما سافرت من عمان إلا للبحث عن إقامة في أي بلد آخر، لأني تأكدت من نواياك في الطلاق، وللأسف فشلت في تدبير إقامة في السويد، وسأعود إلى لبنان وأحاول الحصول على إقامة، أو أسترد جنسيتي الفلسطينية، وإن لم أنجح سأعود للأردن وأستأجر منزلاً بعيداً عنك، ولا أعلم متى ستكون عودتي، فالغد مجهول لامرأة تجاوزت الستين من عمرها وبدأت مرحلة الضعف والاحتياج للآخرين الذين هم أولادك، خفت أن يطردونني من البيت لأن أمهم لا تطيق رؤيتي، لكن الله الغني عنك

وعنهم، لا أريد منَّة أو فضلاً من أحد حتى لو نمت على الرصيف، والبيت الذي لا كرامة فيه الشارع أهون منه.. فقد تحمّلت بما فيه الكفاية، وآن الأوان لأبحث عن شيخوخة هادئة، مع أني ختمتها برحلة إلى أوروبا وعشت لحظات سعيدة وممتعة مع أقاربي وعائلاتهم وشعرت أن الدنيا بخير، وبرأيي أن الله يسَّر لي هذا تكريماً لما عانيت معك ومع زوجتك من تهميش وإقصاء، وقد زرت خمس دول أوروبية، وأحببت أن يشاركني متعتي كل الذين يحبونني ويتمنون لي الخير، وكلهم أهلي وصديقاتي، ومعهم شعرتُ أني ولدتُ من جديد.

سأخرج من حياتك وأقنع نفسي أني قلت «لا» لمرة واحدة في حياتي، ودافعت عن وجودي وأنا أعلم أني خاسرة، لكن الخسارة بكرامة أفضل من الكسب مع الإذلال، لكن يعز عليَّ بعد هذا العمر أن أكون وحيدة، وعليَّ الاستسلام للواقع».

وفي النهاية قالت إن باستطاعتها أن تعيش حياتها بدون زوج، خاصة وأن كلًّا منا لم يعد يسأل عن الآخر، بعد أن أصبحنا خصمين في رحلة العمر.

في لحظة غضب، قادتني أفكاري لأكتب لها ثانية علها تتفهم موقفي، وتعود لصوابها «لأسباب تعرفينها جيداً خاصة العداء الدائم في البيت، أبارك لك حريتك.. أنتِ امرأة حرة الآن بلا زوج يقيد حريتك».

لم تستجب أيضـًا ولم ترد، وجدت نفسي في لحظة نزاع أتصفح ألبومات الصور التي جمعتنا خلال السنوات التي قضيناها معـًا.. وفي لحظة مسروقة من عمر الزمان، راحت يداي تمزق الصور التي أحتفظ بها منذ أن ألتقيت بها.. صورة حفلة الزفاف لم تسلم أيضـًا، ألقيتُ بها على الأرض، وتركت ما تبقى من الصور التي تحملها في حقيبتها لتقوم هي بتمزيقها وإتلافها، ورحت أكتب لها للمرة الثالثة ما جال بخاطري تلك اللحظة عما عانيناه في رحلة حياتنا معـًا.

تبادلنا رسالتين مطولتين كلها عتاب، فضحتْ في رسالتها كل أسرار الماضي والحياة الزوجية، وأصرت على موقفها.. كان جل حديثها عن الزوجة الثانية وكرهها لها.. قالت إن مروة انتزعت منها حياتها واغتصبت حقوقها، ولن تستطيع التعايش معها أو رؤيتها، وطلبت أن تنفرد بحياتها في بيت مستقل مسجل باسمها، بعيداً عن الحي الذي تقيم فيه مروة، وأكون لها وحدها.

وجدت نفسي بين خيارين أحلاهما مر.. فلا يمكن أن أضحي بأبنائي ووالدتهم من أجل قصة حب باتت تقلق راحتي وروحي.. وفي نفس الوقت لم أشأ أن تكون فردوس مطلقة بعد هذا العمر.. أعرف أن فردوس ستعود يومـًا ما لتأخذ ما تبقَّى من حاجياتها في البيت، وتصفية حساباتها في الأردن.. وحتى لا نكون خصمين، فقد أعطيتها

الفرصة الكاملة لتطلب طلبها الأخير، وترحل من حياتي برغبتها، وبكامل حريتها.

بعد أكثر من عام، عادت إلى عمان، لكنها لم تعد إلى بيتها.. استقرت في بيت شقيقتها التي تقيم في حي آخر من أحياء عمان، وبعثت ابن أختها ليأخذ حاجياتها.. قلت لها أن تعود لصوابها ولا تتسرع.. لكنها أصرت على موقفها وقالت إنها لا تريد غير حريتها.. إزاء الأمر الواقع وجدت نفسي أندفع إلى المحكمة الشرعية وأطلقها طلقة بائنة قابلة للرجوع أثناء العدة الشرعية، ثم قمت بتسليمها ورقة الطلاق عن طريق المحكمة، لعلها تعود إلى صوابها.

قبل انتهاء المدة الشرعية، توجهتُ إلى المحكمة ثانية، وأعدت فردوس إلى عصمتي، لكني فوجئت بها تغادر عمان إلى بيروت دون وداع، مخلفة وراءها حمولة من الآهات وقاطرة من الذكريات.

***

(٤٠)

صباح يوم من الأيام صحوت على دنيا غير الدنيا التي أعيشها، فقد رأيت كما يرى النائم فردوس تلج البيت بثياب عروس، وعمر لا يتجاوز السابعة عشرة، وقد غمرتها السعادة في ظل الحياة الزوجية التي وعدتها بها، منذ تعارفنا وأعلنا خِطبتنا للملأ.. كانت تفتح ذراعيها وتحاول الوصول إلى سريري، فتحتُ لها ذراعيَّ وحاولت الوقوف، فجأة تنمَّل جسدي وشلل أصاب أطرافي السفلى.. ديدان صغيرة كالتي كنت أراها في أحلامي أثناء طفولتي في بلدة الكرامة انبثقت من وسط السرير وراحت تنهش جسدي، وأنا أصرخ وأنادي فردوس فردوس.. صحوت على صوت مروة تقول «يكفيك هذياناً بفردوس.. فردوس كانت حلماً في حياتك ولم تكن الواقع، الواقع أني أنا زوجتك الوحيدة وأم أولادك، وفردوس لم تكن في يوم من الأيام إلا ضرة لي اختلقتها في مخيلتك، صدَّعت بها رأسي وأحلت حياتي إلى جحيم».

لا أعرف كيف تجرأت مروة للمرة الأولى وتفوَّهت بتلك الكلمات على مسامعي، ولا أدري إذا كان ذلك حلماً أم حقيقة، أم كنت أنا الذي أهذي طوال الليل، وتتراءى لي فردوس في منامي!.. عادت الكوابيس التي كنت أراها أثناء طفولتي ولاحقتني تلك الليلة.. كلمات مروة أصابتني بمقتل، فكَّرت للحظة أن أهجرها أو أعيدها إلى

مسقط رأسها.. فمنذ أن وجدت نفسها سيدة البيت الأولى بعد رحيل فردوس أخذت زمام الموقف، زفت بابتسامة شماتة خبر رحيل فردوس لكل من يعرفها، وبابتسامة نصر أشاعت أنها فازت بقلب زوجها، ولم يعد له غيرها.. قلت لها بأن لا تفرح كثيراً برحيل فردوس، ستعود عاجلاً أو آجلاً.. فقالت بأن فردوس لم تكن في يوم من الأيام غير كابوس في حياتها، استطاعت مع مرور الأيام التغلب عليه وقهره.. وأضافت: «فردوس كانت حلماً من أحلامك كأحلام اليقظة، أما الواقع فهو أنا، أنا الوحيدة التي عاشت معك وأنجبت لك الأولاد، انزعها من رأسك وعد إلى واقعك، واللي باعك بيعه»..

تركت مروة تهذي ودلفتُ غرفة مكتبي.. لحقتني والدموع تملأ عينيها، جلست أمامي وتأسفت عما بدر منها في لحظة غضب، وأضافت «أعدها إلى حياتك، ودعني أعيش مع أولادي بقية عمري، لا أريد منك شيئاً بعد اليوم».

في قرارة نفسي خمّنت أن مروة أيقنت أن فردوس لن تعود عن قرارها، فقررت أن أحسم الموقف وأعيد النظر بحياتي كاملة، خبأت ما في أعماقي وقررت أن ألتقي بفردوس وجهاً لوجه في بيروت.

***

في الطريق وأنا أقود سيارتي من عمان إلى بيروت، والمذياع يصدح بأغنية فريد الأطرش «حكاية غرامي حكاية طويلة».. راح الماضي يشق طريقه إلى ذاكرتي، أفكاري بدت امتداداً لما يجري في أعماقي، محطات تتوارد في رأسي وتتسلسل مثل حبات مسبحة.. لم أكن أتذكر، كنت أعيش سنوات عمري لحظة بلحظة، منذ طفولتي وحتى تلك اللحظة، وكلمات ذلك المنجِّم الذي يطالع الأبراج ويرى المستقبل ترن في ذاكرتي: «ستحصل على مرادك عاجلاً أو آجلاً، أبواب العمل مفتوحة أمامك في بلاد بعيدة، ستتزوج امرأة تحبها، ثم تتزوج ثانية من امرأة غريبة عن الحي الذي تقيم فيه، واحدة منهما لن تنجب، وواحدة ستملأ البيت بالأولاد.. إحداهما لن تبقى على ذمتك، ولا أعرف أيّاً من الزوجتين سيتم الفراق بينك وبينها».. طردتُ الفكرة من رأسي، وقلت في قرارة نفسي «لن يتم الفراق ولن أفقد فردوس، فردوس جنتي وملاذي الأخير». فجأة تراءت لي بصورة ملاك وسط إطار مذهب جميل.. وجدت نفسي أفكر فيها وأتمنى رؤيتها بعد أن طافت بذاكرتي رسالتها التي تركتها قبل أن ترحل.. أنا من وأد حبها في قلبي ولم يعترف بالحقيقة.. الحقيقة أني أحبها، أتمناها، لكني لا أريد لها الشقاء معي.. أنا من جنى على نفسه وطرد نفسه خارج جنتها.. فردوس لم تكن لحظة عابرة في حياتي.. كانت لهباً في مسيرة العمر.

***

«ذاكرة الإنسان جزء لا يتجزأ من شخصيته، وأكبر عقاب للمرء في

حياته أن يفقد ماضيه وذاكرته، فالماضي ذكريات والمستقبل أمل، أما الحاضر فهو تراث الماضي وبناء المستقبل، وهو أثمن ما يملكه الإنسان».. هذا ما كنت أتحدث به في قرارة نفسي وأنا في الطريق إلى بيروت، ومحطات كثيرة قديمة بالأبيض والأسود ترزح في ذاكرتي.. ظهرت لي بيروت من بعيد وأنا أقترب منها وقطعت حبل أفكاري.. سنوات طويلة مرت قبل أن أعود إليها.. حين غادرتها كانت ترافقني فردوس والأحلام، وها أنا أعود إليها وحيداً مثقلاً بكل عذابات الدنيا.. فجأة اختفت بيروت ومعالم الطريق عن ناظري، وظهر لي وجه فردوس يملأ المكان والزمان، وفي نفس الوقت تراءى لي حلم تلك الليلة وتجسد أمام ناظري.. عروساً بكامل زينتها كانت فردوس، كانت بصورة ملاك تفتح ذراعيها وتركض باتجاهي، وأنا عاجز مشلول وديدان صغيرة تنهش جسدي وأطرافي.. أناديها بصوت مجروح من أعماقي، يتوقف الصوت في الحنجرة، وتضيع مني الكلمات.. لم يبقَ غير آهات حزينة في مكامن القلب، ولا أدري إذا كنت أنا الفتى المنظور للقائها قبل ألف عام، ليغرس أشواك حبها في قلبه، ثم يموت وحيداً على قارعة الطريق!..

أما علمتْ ماذا حل بي بعد رحيلها!، خير لها أن لا تعلم، كي لا تموت مرتين.. «حدثتُ نفسي»، أليست هي القائلة يوماً: إن الموت الحقيقي هو حين تتوقف قلوبنا عن الحب!.. أخشى ما أخشاه أن يكون قلبها أوصد باب الحب، وما عاد يتسع إلا للكراهية، وما عادت تراني في مخيلتها غير بقايا كائن من دخان..

بعد رحيلها مدَّ لي الخريف لسانه مستهزئـًا، سقطت أوراق الأشجار من عليائها، تلاعبت بها نسمات الرياح الخفيفة يمنة ويسرة.. هو ذا قلبي بعد فراقها، تبعثرت حجراته، واستكان صامتـًا لسكِّين حاد بانتظار عودتها..

«آه يا عزيزتي، ما أصعب ذلك المساء الذي طرقتُ فيه أبواب مملكة النوم في غرفتك الحزينة، فلم أجدك هناك!.. يومها عدت أجرجر أذيال الأرق والخيبة والقهر.. القهر كان رحيلك من حياتي.. رحيلك كان موجعـًا وبلا سابق إنذار..

بعد رحيلك أيتها الروح الهائمة في ملكوت السماوات والأرض، وحده الفراغ كان سيد المكان.. وحده الليل كان سيد الزمان.. ووحدك أنت كنتِ سيدة القلب وحنايا الروح..

آه لو كنت أدري ماذا ستفعل الأيام بي بعد رحيلك يا فردوس، لما بقي شيء أعيش من أجله!.. أشعر بأقصى درجات العجز، وأكثرها مرارة، بعد أن سرقتِ أحلامي بقسوتك أيتها السيدة المقيمة في القلب..

يوم أن دخلتِ عالمي، عرف قلبي معنى الحب للمرة الأولى.. يومها أحببتك كمعجزة لا تحدث في العصر إلا مرة واحدة.. ولسنوات طويلة ظللتِ تسكنين في أعماق قلبي.. أما اليوم، بعد هذه الغيبة الطويلة، فاكتشفتُ أن قلبي هو الذي رحل من صدري، هجرني وغادر قفصه ليقطن مستريحـًا عندك وفيكِ..

يوم رحيلك يا فردوس وأنت تودعين عمان، لم تكوني كائناً إنسياً بالكامل.. عندها أيقنتُ أنه لا يمكن أن أعيش حياة طبيعية مع ملاك، لهذا قررت أن أكتفي برؤيتك من بعيد..

وجهك كان على مر الزمان بلون الفصول الأربعة، وكنت حينما أراك تصيبني قشعريرة الزمهرير والحمى في آن واحد.. أتدرين أني ما زلت أرى الأخاديد والتجعدات التي حفرها الزمان في وجهك، تضاهي أجمل وجوه النساء قاطبة، وتبعث في صدري شغفاً متفجراً بالحياة والبكاء حباً وعشقاً من جديد!..

أنا هنا على قارعة الطريق أنزف، بينما أنت في بيتك تنتظرين المجهول.. لا أدري إذا كنت تنتظرين معجزة كما أنتظر!.. أنا في طريقي إليك أيتها السيدة المسربلة بلحظات الوجع، فما زلتِ في القلب تخفقين..

ها أنا يا سيدة الصمت أمضي إليك، وكأني أمضي إلى حتفي وانتهائي، فلم يبقَ غير القليل من الانتظار.. لا أريد شيئاً من الحياة.. لا أريد منكِ سواكِ، ولا أريد من الأمنيات غير أن أراك تتمتعين بوقتك وتعيشين سعيدة..

لا معجزات في هذا العصر.. ومع ذلك أنتظر معجزة.. فهل تصفحين وتسامحين؟».

هذا ما كنت أحدث به نفسي وأنا أشق طريقي إلى بيت أبي سعيد، عادت الذكريات وراحت تتجسد أمام مخيلتي، وفردوس تملأ المكان

والزمان.. آثار الدمار على حالها في مخيم صبرا، حيث عشت أحلى سنوات عمري بعد أن التقيت بفردوس.. اجتزت الزقاق إلى مدخل المخيم، حيث التقيتُ بها للمرة الأولى، عادت وارتسمت أمامي بمريولها المدرسي وخطواتها تتسارع نحو البيت.. البيت كان مدمراً وأثراً بعد عين.. بيوت قليلة ومتفرقة بنيت عشوائيّاً على أطرافه.. عدت من حيث أتيت واتجهت إلى شارع صبرا.. كنت في زمن سابق أعرف أصحاب المحلات كلهم، لكني في تلك اللحظة شعرت بعشى ليلي يغبش عينيَّ، فلم أرَ غير محل أبي سعيد.. توجهت إليه مباشرة، سألت أحد العاملين عن سعيد، نظر إليَّ أحدهم وكأنه يحاول أن يسترجع ملامح صورتي في ذاكرته، قال بأن سعيداً طريح الفراش في بيته، وسألني إذا كنت أريد من أخيه شيئاً؟.. سألته عن البيت وأخبرته أني زوج شقيقته.. ابتسم ابتسامة ساخرة وكأنه يتساءل إذا كنت بكامل قواي العقلية، وقال «زوج أختي!».. عرفت أنه «طارق» أخو سعيد الأصغر، ذلك الطفل الذي ولدته أمه يوم رحيلي من بيروت، قبل أكثر من خمسة وأربعين عاماً.. أضفت: أنا زوج فردوس، كيف حالها؟ جئت من عمان لأجلها.. صمت لحظة وقال «أكيد إنت تعبان من السفر، على كل حال هيا معي إلى البيت».

في الطريق إلى البيت الذي لا يبعد عن المحل سوى مائتي متر، لم ألحظ أي تغيير في معالم مخيمي صبرا وشاتيلا، ما زالا على حالهما أثر الدمار الذي سببه الاجتياح الإسرائيلي عام اثنان وثمانين من القرن الماضي، أعيد بناء بعض البيوت، وارتفعت بنايات جديدة على

أطراف صبرا، أما مخيم شاتيلا فما زالت بيوته مهدمة، وأناسه ما زالوا على حالهم، منذ أن رحلت عن بيروت.

بعد أن اجتزت وطارق سوق الخضار، وبينما كنت سارحًا في أحداث الماضي، كان طارق يحدثني عن والده الذي ابتنى لهم بيتًا جديداً قبل أن يوافيه الأجل، بدل الذي تهدم في مخيم صبرا، كما ازدهرت تجارتهم، وافتتحوا محلات تجارية عدة في الضاحية الجنوبية من بيروت.. فجأة توقف وقطع شريط استرسالي قائلاً: «هذا بيتنا، وأخي يقيم في الطابق الأول».. نظرت إلى البناية، كانت مكونة من سبعة أدوار، الطابق الأرضي مكون من خمسة محلات تجارية ومستودع كبير.. دعوتُ له بالتوفيق واستعجلتُ الدخول إلى البيت..

سعيد كان جالسًا في سريره وبين يديه حاسوب منشغل به.. أدار وجهه ببطء وتحرك بتثاقل بعد أن رددت السلام عليه، نزع النظارة الطبية عن عينيه ونظر إليَّ متأملاً وقال: «أهلاً»، وكأنه لا يعرفني.. قلت له: ألا تذكرني؟.. ارتسمت على وجهه علامة استغراب وقال: «صورتك في ذاكرتي، لكن ذاكرتي تخونني أحيانًا كثيرة بعد هذا المرض».

- أنا زوج فردوس.. قلت.

اتسعت حدقتا عينيه، بدا عليه التوتر، رمقني بدهشة، شعرتُ أنه لا يعرف ماذا يقول لي.. أضفت: «أين فردوس؟ أريد أن أراها».

- تذكّرتك الآن.. أنت الذي خطبْتَ فردوس وكنت تقيم بجوارنا أثناء دراستك في الجامعة؟

- فردوس، أين هي؟ أريد أن أراها. قاطعته
- أما زلت تذكرها؟!
- وهل نسيتها حتى أذكرها من جديد!
- طالما لم تنسها، أريد أن أسألك سؤالاً، لماذا جعلت حياتها جحيماً وتركتها كل هذه السنوات؟! لقد مات والدي وهو يتساءل عن السبب الذي جعلك تتركها وترحل بعد عقد قرانك عليها.. لماذا تخليت عنها؟
- من قال لك إني تخليت عنها؟!

نظر إلى وجهي مباشرة وقال: أكيد أنت فاقد الذاكرة.. فردوس لم تبرح البيت منذ أن تركتها وهربتَ من بيروت بعد تخرجك في الجامعة.

لم أصدق ما أسمع!.. شعرتُ أن سعيد هو من فقد ذاكرته، أو أني في الموقع الخطأ.. قلت له أين هي؟، أريد أن أراها.. قاطعني: لن تراها ولن أسمح لك أن تراها..

توجهت نحو الباب.. في الممر كانت هناك امرأة تجلس على مقعد تنظر إلى الشارع من الفرندة وقد أدارت ظهرها لصحن البيت.. تقدمت نحوها وأمعنت النظر في الجانب الأيمن من وجهها.. صرختُ «فردوس»، وبي رغبة أن أعتذر لها وأملأ وجهها بالقبلات.. أدارت وجهها نحوي.. كانت شقيقتها مريم تملأ المقعد بنفس معالم الوجه.. حدَّقت في وجهي، اتسعت حدقتا عينيها، وبنبرة استفزازية قالت: «ماذا

تريد منا بعد هذا العمر؟».

- فردوس، أريد فردوس..
- لو كنت تريدها حقّاً لما تخليت عنها ورُحْتَ تركض خلف امرأة أخرى!.
- أين هي؟
- من أجلك ظلت على العهد تنتظر أوبتك طيلة الأعوام التي مضت، لكنك خنت الأمانة وتناسيت وجودها.. قلتَ لها إنك ستعود ولكنك لم تعد.
- أين هي؟ أريد أن أراها..
- لن تراها لا في الدنيا ولا في الآخرة، والآن عد من حيث جئت ولا تُرِنا وجهك. قالت ذلك بعصبية وأدارت وجهها نحو الشارع.

أكاذيب، إما أنهم يكذبون عليَّ أو أني فقدتُ ذاكرتي فعلاً، وبي مس من الجنون!.. حدّثتُ نفسي ولم أصدق ما سمعت.. طارق كان يقف قرب الباب ويراقب الأحداث.. حين شاهد حيرتي وانفعالي همس في أذني: «دعك منهما وتعالَ معي لتراها».. أسرعتُ خلفه وهو يتجه نحو سلالم الدرج.. صعدتُ إلى جانبه في السيارة، قاد سيارته ولم يتفوه كلانا بكلمة.. بعد عشر دقائق تقريباً توقف عند مقبرة الشهداء.. قال قبل أن أسأله: «ألا تريد أن تقرأ الفاتحة على روح أخيك الشهيد قبل أن تراها؟!».. ألجمني بكلماته، تبعته نحو جدث أخي.. قرأت سورة الفاتحة وما تيسر من القرآن ووقفت أرقب قبور الشهداء.. لاحظتُ أن

بين كل قبر وآخر قبراً جديداً، وكأن الأرض ما عادت تتسع للأموات بعد أن ضاقت على الأحياء!.. طارق كان يقف عند جدث حديث العهد على مقربة من قبر أخي الشهيد.. خمّنتُ أنه يقرأ الفاتحة على روح والده أو والدته.. تقدمتُ منه، وحين أمعنتُ النظر، عشيت عيناي وهالني ما أرى وأنا أقرأ اسم فردوس على لوحة القبر.

***

المؤلف في سطور

الاسم : ÷براهيم ذيب الفقيه

اسم الشهرة : إبراهيم عوض الله الفقيه

- روائي وقاص.
- مواليد صوبا، القدس، ١٩٤٦م.
- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرسـاً لمدة عشرة أعوام .
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئًا جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين .
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..
- رئيس جمعية صوبا التعاونية منذ عام ١٩٩٣م

- **صدر للمؤلف :**

١. جذور في طريق التحرير، رواية، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٤م.
٢. الهذيان، رواية، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٥م .
٣. الصمت المعبر، رواية، دار عمار، عمان، ١٩٩٢م.
٤. ما زال للصبار روح، رواية، دار النهضة، عمان، ١٩٩٣م.
٥. الخريف واغتيال أحلام، رواية، دار النهضة، عمان، ١٩٩٦م .
٦. الأرض الحافية، رواية، دار الينابيع، عمان، ١٩٩٩م .
٧. نوافذ الغضب، رواية، دار الحرية، عمان، ٢٠٠١م .
٨. ظمأ السنابل، رواية، دار اليازوري، عمان، ٢٠٠٧م .
٩. أحلام يوسف، رواية، دار فضاءات، عمان، ٢٠١١م
١٠. قناديل الروح، رواية، دار فضاءات، عمان، ٢٠١٣م

مجموعات قصصية:

١١. القربان، مجموعة قصصية، دار عمار، عمان، ١٩٩٠م
١٢. فرسان السراب، مجموعة قصصية، دار أمواج، عمان، ٢٠١٠م

تاريخ:

١٣. «صوبا»، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس، تاريخ وطن وحياة قرية، عمان ١٩٩٦م .

- العنوان الالكتروني faqeh46@hotmail.com
- موقع صوبا www.subaa.com